

العدد الأول
مجلة
الحكمة
مجلة بحثية علمية شرعية ثقافية تصدر كل أربعة أشهر
(أكثر مجلات البحوث الإسلامية انتشاراً في العالم)
الحكمة ... رئيس التحرير الزبيري
ضوابط الاختلاف ... مدير التحرير البغدادي
التمسك بالإسلام ... الشيخ عبد العزيز بن باز
منظومة في أصول الفقه ... محمد الصالح العثيمين
فقه اختلاف الأمة في الأحكام ... د. عمر الأشقر
تحقيق مخطوطتين نادرتين ... الحميدي، الخطيب البغدادي
وبحوث أخرى مفيدة.

بسم الله الرحمن الرحيم

الحكمة

مجلة علمية شرعية تصدر كل أربعة أشهر
تعنى بالبحوث والدراسات الإسلامية
وتحقيق المخطوطات

الطبعة الثانية

١٤١٨هـ

الحكمة

مجلة علمية شرعية تصدر كل أربعة أشهر

تعني بالبحوث والدراسات الإسلامية وتحقيق المخطوطات

بإشراف

نخبة من العلماء من بعض الدول الإسلامية

أسعار المجلة

السعودية	٢٠	ريال سعودي	الكويت	١,٧٥٠	دينار كويتي
الإمارات	٢٠	درهم إماراتي	الأردن	٢,٥٠٠	دينار أردني
هولندا	١٢,٥٠	جلدر	بريطانيا	٤	جنيه استرليني
فرنسا	٧٠	فرنك			

الهيئة الاستشارية لمجلة الحكمة

الموزعون المعتمدون للمجلة

١ ـ **السعودية** ـ الرياض ـ المؤتمن للتوزيع

ص.ب ٦٩٧٨٦ ـ الرياض ١١٥٥٧ ـ ت ٤٦٤٦٦٨٨

---

٢ ـ **الإمارات العربية المتحدة** ـ عجمان ـ مكتبة الأقصى

ص.ب ٤٤٦ ـ ت ٤٢١٩٨٧

---

٣ ـ **الكويت** ـ الجهراء ـ مجمع كاظمة التجاري ـ دار إيلاف للنشر والتوزيع

ص.ب ١٥١٣٠ ـ الرمز ٥١٠١٧ ـ ت ٤٥٥٧٥٥٩ ـ فاكس ٤٥٥٧٥٥٨

---

٤ ـ **هولندا**

AL-OSRA
Choice of the Distinguished Family
Stichting Alwakf Alislami
P.O.Box 2082
5600 CB Eindhoven
NETHERLAND
TEL. 0031 402461404
FAX. 0031 402467297

---

٥ ـ **بريطانيا** ـ ليدز

P.O. BOX HP 70 TEL. 741829
LEEDS
LS 6 IXN U.K

---

٦ ـ **فرنسا** ـ معهد الدراسات الإسلامية باريس

INSTITUT d'ETUDES ISLAMIQUES de PARIS
établissement libre d'enseignement supérieur
22, rue François bonvin 75015 Paris - FRANCE
Tél. et fax 01 43 06 14 46

---

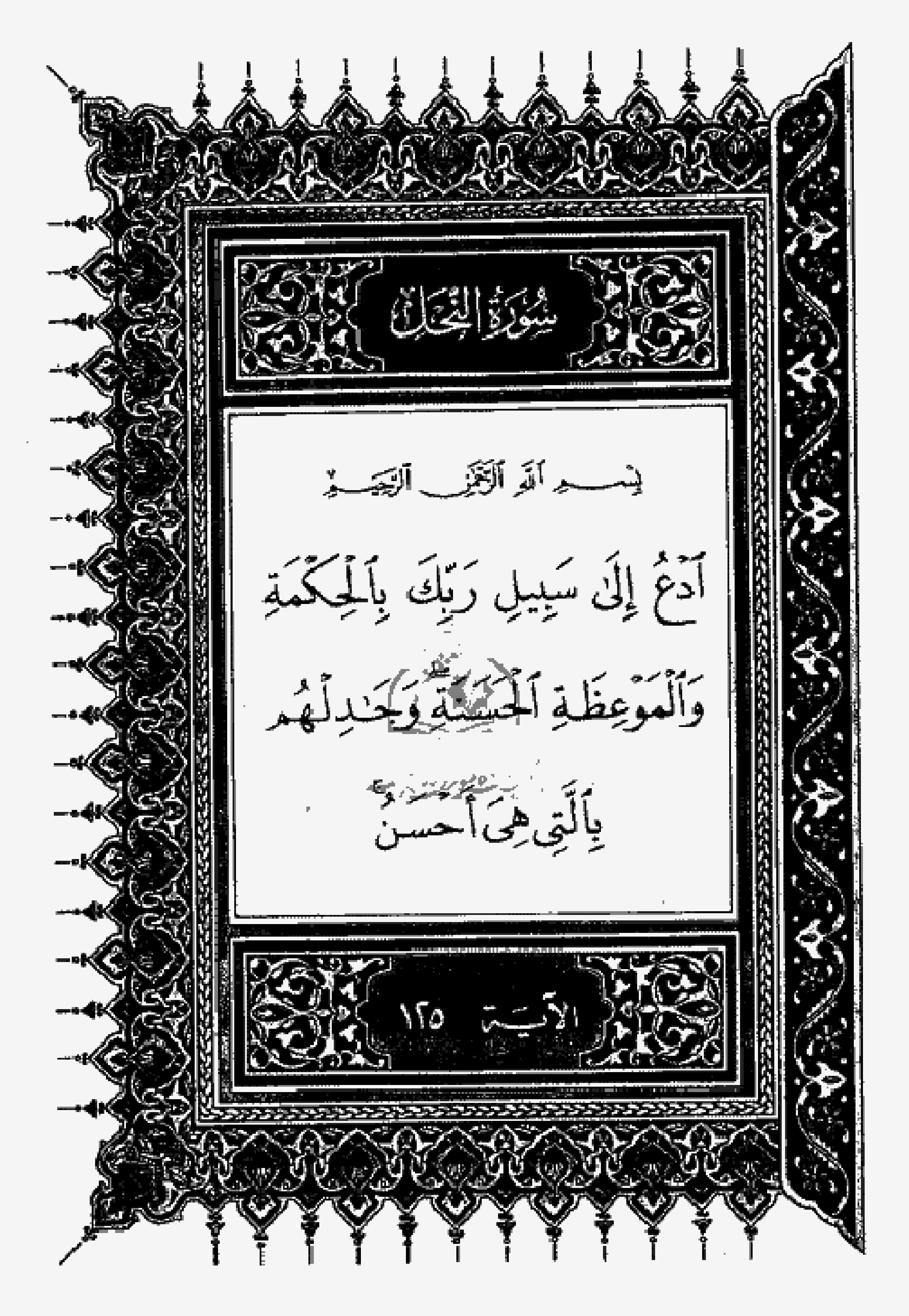
٧ ـ **الأردن** ـ عمان ـ العبدلي ـ مقابل جوهرة القدس ـ دار الفاتحين

ص.ب ٢١١٥٠١ ـ عمان ١١١٢١ ـ ت ٦٩٣٩٤٠

---

٨ ـ **لبنان** ـ بيروت ـ كورنيش المزرعة ـ دار ابن حزم

ص.ب ١٤/٦٣٦٦ ـ ت ـ فاكس ٧٠١٩٧٤


سورة النحل
بسم الله الرحمن الرحيم
ادع إلى سبيل ربك بالحكمة
والموعظة الحسنة وجادلهم
بالتي هي أحسن
الآية ١٢٥

منهج المجلة وأهدافها

١- تبصير المسلمين بدينهم الحق ، وذلك بالرجوع إلى الكتاب والسنة الصحيحة ، وفهمها على أصول أهل السنة والجماعة من السلف الصالح ، رضوان الله عليهم أجمعين .

٢- نشر المقالات والبحوث الشرعية التي من شأنها إنضاج فهم المنهج الشرعي وحسر الخلاف والفرقة المذمومة بين الأمة الإسلامية وصولاً إلى الائتلاف والأخوة المحمودة .

٣- تحذير المسلمين من الانحرافات الشركية والبدعية ، وتحذيرهم من المعاصي لما تورثه هذه الذنوب من المصائب والضعف والتفرق .

٤- تحرص المجلة على نشر البحوث والمقالات العلمية والشرعية والمخطوطات المحققة ، التي لم يسبق نشرها في كتاب أو مجلة .

٥- تعتذر المجلة عن نشر البحوث والمقالات التي لا تتفق مع توجه المجلة وسياستها كالبحوث والمقالات السياسية أو الحزبية أو غير ذلك .

٦- المجلة لا تمثل حزباً معيناً أو طائفة معينة ، بل هي منبر لجميع المسلمين المخلصين .

٧ ـ تحرص المجلة من خلال بحوثها على تقديم حلول إسلامية عملية للمشكلات الفقهية المعاصرة ، وتسعى نحو حياة إسلامية راشدة على منهاج النبوة .

٨ ـ المقالات والبحوث التي تنشر في المجلة تعبر عن رأي كاتبيها ، ولا يلزم أن تكون معبرة عن رأي القائمين عليها .

٩ ـ لا يجوز لأصحاب البحوث التي تنشر في مجلة الحكمة أن يعيدوا نشرها في مؤلف أو مجلة أخرى إلا بعد مضي ستة أشهر على نشرها في مجلة الحكمة .

إلى الباحثين الأفاضل

توجه المجلة عناية الباحثين الذين يودون الاسهام في مجلتنا إلى ما يأتي :

أ ـ ان تكون البحوث متسمة بالعمق والأصالة بحيث يضيف كل بحث جديداً إلى المعرفة .

ب ـ أن تكون البحوث موثقة من الناحية العلمية بالمصادر والمراجع .

جـ ـ أن تكون منسقة مقسمة وفق أصول البحث العلمي .

د ـ أن تكون مكتوبة على الآلة الكاتبة أو بخط واضح مقروء .

هـ ـ أن تكون مكتوبة على وجه واحد من الورق .

و ـ أصول البحوث المرسلة للمجلة لا ترد لأصحابها نشرت أم لم تنشر .

في هذا العدد

افتتاحية العدد

الحمد لله واهب النعم، ﴿الذي علم بالقلم، علم الإنسان ما لم يعلم﴾، الذي أمرنا بالدعوة إلى صراطه المستقيم بالحكمة والموعظة الحسنة، وأصلي على من آتاه ربه الكتاب والحكمة، وعلمه ما لم يكن يعلم، وعلى آله الأخيار، وصحبه الأبرار، الذين دعوا إلى سبيل ربهم بالحكمة والموعظة الحسنة وعلى من سلك سبيلهم، وسار على دربهم إلى يوم الدين.

أما بعد فإن هذا العدد، الذي تحمله يداك، وتنظر فيه عيناك, هو إصدارنا الأول من المجلة التي عملنا منذ زمن على إصدارها، وبذلنا في سبيل ذلك جهداً ليس بالقليل.

وهي مجلة هادفة، تقصد إلى نشر العلم الشرعي الخالص من الشوائب، الداعي للحق، المبيِّن للصواب.

وبِذا تنضم مجلتنا إلى ركب المجلات الإسلامية الجادة في العالم الإسلامي، التي تثري الحركة العلمية، وتساعد في التأصيل الشرعي، وتسهم في الدعوة إلى الله، وفي محاربة الباطل، وإقرار الحق.

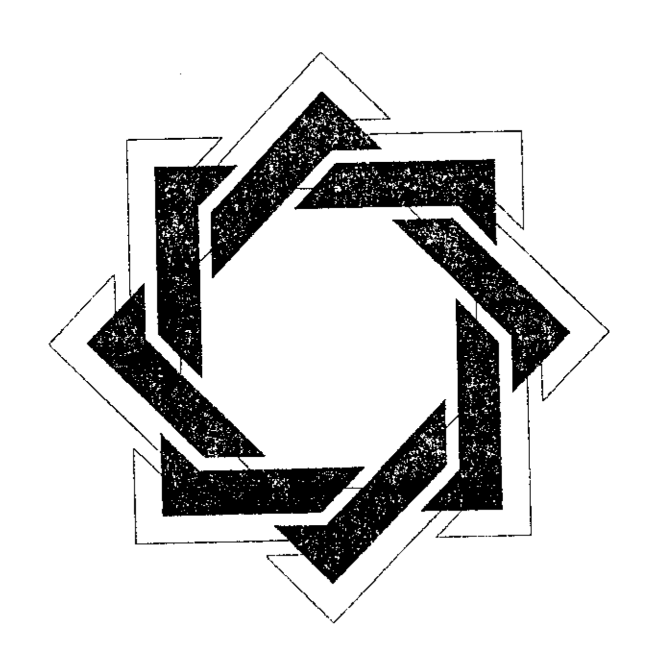
وهذه المجلة منبر لكل مسلم يريد أن يجلي العلم ويقعده، وينشر ما

أعطاه الله من علم، فالمجلة تقوم بتقديم نتاج العلماء الموثقين إلى المسلمين في مختلف بقاع الأرض.

ونعد قراءنا في افتتاحية عددنا الأول أن نكون أوفياء أمناء على ما نسطره وننشره، فلا نخلط الحق بالباطل، ولا نلبس على المسلمين دينهم، ولا نخوض في منازعات ومخاصمات تشوه وجه مجلتنا، وإنما ننشر ما نراه صوابا، ونحاور بالتي هي أحسن، ملتزمين بأخلاق الإسلام وآدابه.

وإننا لنأمل أن تجد مجلتنا قبولاً من أهل العلم وطلابه، فيمدونا بالمقالات والبحوث العلمية الأصيلة القائمة على منهج أهل السنّة في الاعتقاد والعمل، كما نرجو أن يسدّدوا مسيرتنا ويقوّموا أبحاثنا التي نقدمها في مجلتنا، والحمد لله رب العالمين.

هيئة التحرير



إطلالة الحكمة

تستهل «الحكمــة» مستعينةً بـا لله العليـم الحكيـم -أن تكـون الحكمـة ضالَّتها تتعلمها وتُعلمها على منهج دعوة رسل الله ﴿ربّنا وابعثْ فيهم رسـولاً منهـم يتلـو عليهـم آيـاتك ويعلمهمُ الكتاب والحكمة ويزكيهم إنكَ أنت العزيزُ الحكيم﴾.

تستهل «الحكمة»، لا بديلاً عـن غيرهـا ولا تكـراراً، بـل تكميـلاً وتأليفـاً وتكثيراً لمنـابر الخير، التي يفتح الله بها قلوباً غُلفاً، وآذاناً صُماً، وأعيُناً عُمياً.

تستهل «الحكمة» لتكون منبراً مقروءاً ينهل من النبع الصـافي الوضـيء: المحجـة البيضـاء التي ليلها كنهارها: كتاب الله، وسنّة رسوله ﷺ.

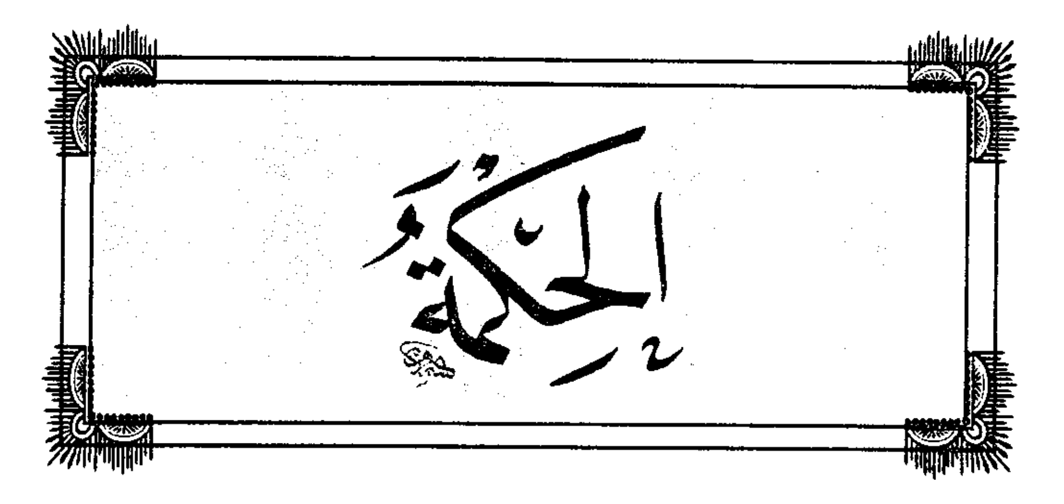
تستهل «الحكمة» لتنشر ما قوي مقتضى نشره من البحوث الشرعية، على أسـاس الخـبر المصدق، والنظر المحقق، الذي هو شرط العلم النافع.

تستهل «الحكمة» لتكون منبراً لكلمة الحق، التي تقابل كلمة الباطل، ومنبراً للسنّة، الـتي تقابل البدعة، وللخبر المصدق، الذي يقـابل الواهـي المعلـق، وللنظـر المحقـق، الـذي يقـابل السرد المشوش.

تستهل «الحكمة» لكل مسلم في أرض الله يبتغي قـول كلمـة الحق، أو سماعهـا، إعـزازاً لدين الله -الإسلام- وبلاغاً للناس، وهدىً ورحمةً للعاملين.

التحرير





بقلم: رئيس التحرير
وليد بن أحمد الحسين
أبوعبدالله الزبيري

إن كل شيء في هـذا الكـون خلقـه الله لحكمـة بالغـة، وعـبرة فائقـة، فالدقـة المتناهيـة، والتكوين البديع لكل ذرة في هذا الكون، لا شك أنها في مكانها المناسـب لهـا، وموضعهـا اللائق بها؛ لأنها من لدن حكيم خبير.

ولا بد من الحكمة في جميع شئون الدين والدنيا؛ فما كانت الحكمة في شـيء إلا زانتـه، وما انتزعت من شيء إلا شانته وهانته. وعندما نلقي نظرة التأمل في كتاب الله عـز وجـل يتبين لنا جلياً كيف قرن الله علمه بالحكمة، كما قرن عزته بالحكمة. فعندما نتسـاءل عـن مناسبة ذلـك الاقـتران تتجلـى لـك المناسـبة في أن العلـم بـدون حكمـة، ينتـج عنـه الزيـغ والضلال. كما أن العزة والسلطان بدون حكمة ينتج عنه الطيش والظلم. وقـد علـم الله أنبياءه الحكمة، ووهبهم إياها؛ فهم يقضون بها بين النـاس، وفي مقدمتهـم نبينـا محمـد ﷺ، الذي قال الله في شأنه: ﴿وأنزَلَ ا للهُ عليـكَ الكتـابَ والحكمـةَ وعلّمَـكَ مـا لم تكُـنْ تعلـم وكان فضلُ اللهِ عليكَ عظيماً﴾ [النساء: ١١٣].

وقد كان شيخنا محمد بن صالح العثيمين[١] يدندن حول هذا الموضوع، ويركز عليـه في

---

(١) ولعلي في العدد القادم من مجلتنا، إن شاء الله يكون لي ترجمة مفصلـة عـن حيـاة الشـيخ محمـد بـن صـالح العثيمـين حفظه الله.

مجالس كثيرة، طوال ملازمتي له منذ ثلاث عشرة سنة إلى يومنا هذا.

وفي صحيح البخاري من حديث أنس بن مالك قال: كان أبو ذر يحدث أن رسول الله ﷺ قال: «فُرج عن سقف بيتي، وأنا بمكة، فنزل جبريل، ففرج صدري، ثم غسله بماء زمزم، ثم جاء بطست من ذهب، ممتلئ حكمة وإيماناً، فأفرغه في صدري ثم أطبقه...» الحديث[1].

فتأمل كيف غسل صدر النبي محمد عليه الصلاة والسلام، وأفرغ فيه من الإيمان والحكمة: بل كانت الحكمة منهجاً ثابتاً وراسخاً عند جميع أنبياء الله؛ فقال تعالى عن إبراهيم عليه الصلاة والسلام: ﴿فقد آتينا آل إبراهيمَ الكتابَ والحكمةَ وآتيناهُم مُلكاً عظيماً﴾ [النساء: ٥٤]، وقال عن عيسى: ﴿وإذْ علّمتُك الكتابَ والحكمةَ والتوراةَ والإنجيلَ﴾ [المائدة: ١١٠]، وقال عن داود عليه السلام: ﴿وقتلَ داودُ جالوتَ وءاتاهُ اللهُ الملكَ والحكمةَ وعلمهُ مما يشاء﴾ [البقرة: ٢٥١]، وقال عنه أيضا: ﴿وآتيناهُ الحكمة وفصل الخطاب﴾ [ص: ٢٠]، وعن لقمان العبد الصالح: ﴿ولقدْ آتينا لقمانَ الحكمةَ أن اشكُرْ لله﴾ [لقمان: ١٢]. والله أعلم حيث يجعل حكمته.

كما قرن الله إرادته ومشيئته بالحكمة، فهي ملازمة لهما، كملازمتها للعلم والعزة، فقال تعالى: ﴿وما تشاءونَ إلا أن يشاءَ الله إن الله كان عليماً حكيماً﴾ [الإنسان: ٣٠].

وكل هذه الدلائل، والبينات الواضحات، في شأن الحكمة، واتصاف الله بها، مقترنة بالخلق والتدبير، وأمر تعالى أنبياءه بأن يتحلوا بها، وينتهجوها، في أمورهم الدينية والدنيوية. كل ذلك من أجل أن نقتفي أثرهم فيها؛ فهي أعظم حلية يتحلى الإنسان بها، ومن أوتيها فقد أوتي خيراً كثيراً، قال تعالى: ﴿يؤتي الحكمةَ من يشاءُ ومن يؤتَ الحكمة

---

(١) البخاري: في كتاب الصلاة، باب كيف فرضت الصلوات في الإسراء.

فقد أوتي خيراً كثيراً﴾ [البقرة:٢٦٩]. بل إن من أوتي الحكمة فإنه يغبط ويحسد عليها وما ذلك إلا لعظم هذه النعمة، فقد جاء من حديث عبدالله بن مسعود: أن النبي ﷺ قال: «لا حسد إلا في اثنتين: رجل آتاه الله مالاً، فسلطه على هلكته في الحق، وآخر آتاه الله حكمة، فهو يقضي بها ويعلمها»(1).

و«الكلمة الحكمة ضالة المؤمن، فحيث وجدها فهو أحق بها»، هكذا روي هذا الحديث بهذا اللفظ عند الترمذي بسند فيه ضعف(2)، لكن معناه صحيح. وهكذا يكون المؤمن، فكلامه تقطر منه الحكمة، وأفعاله لا تصدر إلا عن حكمة، ودعوته تسير بنور الحكمة، فكم من أناس انحرفوا عن طريق الهدى، واتبعوا سبيل الردى، بسبب استعجالهم في أقوالهم، أو أفعالهم، في أمور الدين، أو الدنيا؛ لتخلف نور الحكمة فيها، حتى كانت نتيجة جهدهم، وبذلهم، عواقب وخيمة، وأخطاء جسيمة، في البلاد أو العباد، بل ربما جنوا بخطئهم على دعوة وصحوة بكاملها. وهذا جانب من الأهمية بمكان، يهمله أو يغفل عنه، أولا يوفق إليه الكثير من الغيورين على دينهم، كل ذلك بسبب قلة في العلم، أو قصور في الفهم والتصور لدقائق الأمور، أو سوء في القصد، وهو أشدها.

لذا، أمرنا الله عز وجل أن تكون دعوتنا مبنية على الحكمة، فقال تعالى: ﴿ادعُ إلى سبيلِ ربّكَ بالحكمةِ والموعظةِ الحسنة وجادلهمْ بالتي هي أحسن﴾ [النحل:١٢٥].

وأول الممتثلين لهذا الأمر الإلهي نبينا محمد ﷺ، فكان يستعمل الحكمة في أموره كلها، بل كان يُغذّي أصحابه الحكمة، ويحثهم عليها، فقد قال ابن عباس رضي الله عنهما: ضمّني النبي ﷺ إلى صدره وقال: اللهم علمه الحكمة –والحكمة الإصابة في غير النبوة–

---

(١) صحيح البخاري: (٧٣، ١٤٠٩).

(٢) الترمذي: كتاب العلم– باب ما جاء في فضل الفقه على العبادة، وقد صحَّ موقوفاً من كلام السلف.

وهذا الحديث أخرجه البخاري في صحيحه[1]، بل إن ابن عباس رضي الله عنهما يذكر أن النبي ﷺ دعا له بأن يؤتيه الله الحكمة مرتين. أخرجه الترمذي في سننه بسند حسنه شيخنا الألباني حفظه الله[2].

والحكمة لغة: إصابة الحق بالعلم والعقل، كما في مفردات الراغب. وهي معرفة أفضل الأشياء بأفضل العلوم، كما في لسان العرب: ١٢: ١٤٠، والنهاية في غريب الحديث: ١: ١١٩. والحكيم: المتقن للأمور، كما في لسان العرب: ١٢: ١٤٣. والحكيم: المانع من الفساد، كما في الجامع لأحكام القرآن: ١: ٢٨٨.

واصطلاحاً: هي الإصابة في الأقوال والأفعال، ووضع كل شيء في موضعه، كما جمع ذلك الباحث سعيد القحطاني من أقوال العلماء في كتابه ((الحكمة))، وذكر العلامة ابن القيم في مدارجه: أن الحكمة في كتاب الله نوعان: مفردة، ومقرونة بالكتاب.

فالمفردة كقوله تعالى: ﴿ادعُ إلى سبيل ربّك بالحكمة والموعظةِ الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن﴾ [النحل:١٢٥]. وقوله تعالى: ﴿يؤتي الحكمةَ من يشاء ومن يؤتَ الحكمة فقد أوتي خيراً كثيراً﴾ [البقرة:٢٦٩]، وقوله سبحانه: ﴿ولقد آتينا لقمانَ الحكمةَ أن اشكر لله ومن يشكر فإنما يشكر لنفسه، ومن كفر فإن الله غني حميد﴾ [لقمان:١٢].

وبين ابن القيم أن هذه الحكمة هي المذكورة في أقوال العلماء بالمعنى المتقدم، أما الحكمة المقرونة بالكتاب، فهي السنة من أقوال النبي ﷺ وتقريراته، كقوله تعالى: ﴿ربّنا وابعث فيهم رسولاً منهم يتلو عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم إنك أنت العزيز الحكيم﴾ [البقرة:١٢٩]، وقوله تعالى: ﴿واذكروا نعمت الله عليكم وما أنزل

---

(١) صحيح البخاري: كتاب فضائل الصحابة– باب ذكر ابن عباس رضي الله عنهما.
(٢) مشكاة المصابيح: (١٥١/٣).

عليكم من الكتاب والحكمة يعظكم به﴾ [البقرة:٢٣١]، وقوله تعالى: ﴿هو الذي بعث في الأميين رسولا منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين﴾ [الجمعة:٢]. ونقل ابن القيم عن الشافعي وغيره من الأئمة تفسيره للحكمة هنا بمعنى السنة.

أركان الحكمة

أركان الحكمة التي تقوم عليها ثلاثة هي: العلم، والحلم، والأناة. كما ذكر ذلك العلامة ابن القيم في مدارجه، وهذه الأركان تناظر إلى حدٍ ما ما يذكره شيخ الإسلام في مواضع عديدة من كتبه: العلم قبل الأمر والنهي، والرفق معه، والصبر بعده.

١- العلم:

أمر الله نبيه بأمرين؛ أولهما العلم، ثم العمل، فقال تعالى: ﴿فاعلم أنه لا إله إلا الله واستغفر لذنبك﴾ [محمد:١٩]، فدل على أن مرتبة العلم مقدمة على مرتبة العمل. وقد قسّم شيخ الإسلام[١] العلم النافع إلى ثلاثة أقسام:

الأول: علم بالله وأسمائه وصفاته، مثل سورة الإخلاص، وآية الكرسي ونحوها.

الثاني: علم بما أخبر به، مما كان، وما يكون، وما هو كائن، مثل القصص والوعد والوعيد.

الثالث: العلم بما أمر الله به من العبادة الظاهرة، والباطنة، مثل العلم بأصول الإيمان، وقواعد الإسلام، والأحكام الفقهية، ونحوها من علوم الدين.

---

(١) المجموع: (١١/٣٩٦).

وحذّر الله تعالى من كتمان العلم، وأمر بتبليغه للبشرية فقال تعالى: ﴿إن الذين يكتمون ما أنزلنا من البينات والهدى من بعد ما بيناه للناس في الكتاب أولئك يلعنهم الله ويلعنهم اللاعنون﴾ [البقرة:١٥٩]. وقال ﷺ: (من سئل عن علم يعلمه، فكتمه، ألجم يوم القيامة بلجام من نار). رواه أحمد وأهل السنن إلا النسائي، وصححه الألباني.

٢- الحلم:

هو العقل، كما في ((القاموس)). وهو ضبط النفس، والطبع، عن هيجان الغضب، كما في ((النهاية في غريب الحديث)).

وقد وصف الله نفسه بصفة الحلم في عدة مواضع من القرآن الكريم، كقوله تعالى: ﴿ولقد عفا الله عنهم، إن الله غفور حليم﴾ [آل عمران:١٥٥].

ونلاحظ أن الآيات التي وصف الله نفسه فيها بصفة الحلم قد اقترنت في الغالب بصفة المغفرة، بعد إشارة سابقة إلى خطأ، أو تفريط في أمر شرعي، وهذا مما يتفق مع مفهوم الحلم.

ومما يؤكد أن الحلم من أركان الحكمة قوله تعالى للنبي ﷺ: ﴿فبما رحمة من الله لنت لهم ولو كنت فظاً غليظ القلب لانفضوا من حولك﴾ [آل عمران:١٥٩]، وقوله ﷺ للأشج سيد عبد قيس في حديث الوفد: «إن فيك خصلتين يحبهما الله: الحلم والأناة» رواه مسلم.

وعن عائشة قالت: قال النبي ﷺ: (إنّ الله رفيق يحب الرفق، ويعطي على الرفق ما لا يُعطي على العنف، وما لا يعطي على ما سواه)، رواه مسلم. وعنها: أن النبي ﷺ قال: (إن الرفق لا يكون في شيء إلا زانه ولا ينزع من شيء إلا شانه) رواه مسلم.

٣- الأناة:

هي التثبت وعدم العجلة -كما في مختار ((الصحاح)) وهي من مظاهر خلق الصبر، وقد

ذم الإسلام العجلة، ونهى عنها، وذم كذلك الكسل، ونهى عنه، ومدح الأناة وأمر بها.

قال تعالى: ﴿لا تحرك به لسانك لتعجل به، إن علينا جمعه وقرآنه، فإذا قرأناه فاتبع قرآنه، ثم إن علينا بيانه﴾ [القيامة:١٦-١٩].

فأمر سبحانه نبيه ﷺ بعدم العجلة، ومسابقة الملك في قراءته، وتكفل له أن يجمعه في صدره وييسره لبيانه.

وقال تعالى: ﴿ولا تعجل بالقرآن من قبل أن يقضى إليك وحيه، وقل رب زدني علما﴾ [طه:١١٤].

وأمر الله عباده المؤمنين بالتأني في الأمور، والتثبت منها، فقال تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا إذا ضربتم في سبيل الله فتبينوا ولا تقولوا لمن ألقى إليكم السلام لست مؤمنا تبتغون عرض الحياة الدنيا فعند الله مغانم كثيرة كذلك كنتم من قبل فمن الله عليكم فتبينوا إن الله كان بما تعملون خبيرا﴾ [النساء:٩٤].

ويدخل في العجلة عدم التثبت بعمل الإنسان في المدح أو الذم دون دراية كافية في الممدوح أو المذموم من كل وجوه المدح أو الذم، وبعد ذلك يحصد الغم والأسف قال تعالى: ﴿ويدع الإنسان بالشر دعاءه بالخير وكان الإنسان عجولا﴾ [الإسراء:١١].

ولسمو الأناة أحبها الله عز وجل، كما في حديث الأشج السابق: (إن فيك خصلتين يحبهما الله: الحلم والأناة).

والداعية إلى الله، إذا تثبت وتأمل في جميع أموره، اكتسب ركنا من أركان الحكمة. وينبغي ألا يقتصر في التأني والتثبت على الأفعال والأقوال، بل عليه أن يجري ذلك على قلبه وباطنه، قال تعالى: ﴿ولا تَقْفُ ما ليسَ لك به علم، إن السمعَ والبصرَ والفؤاد كلُ أولئكَ كان عنهُ مسئولاً﴾ [الإسراء:٣٦].

وينبغي أن يعلم أن العجلة المذمومة، إنما تكون فيما لا يعلم ابتداءً من الأعمال أ صحيح أولاً، ثم في محله ثانياً. أما فيما يكون معلوماً أنه كذلك، فهذا ينبغي المسارعة فيـ كما قال تعالى على لسان موسى عليه السلام: ﴿وعجلتُ إليكَ ربي لترضى﴾ [طـه: ٨٤ وقوله تعالى: ﴿إنهم كانوا يسارعون في الخيرات﴾ [الأنبياء: ٩٠]. وقوله تعالى: ﴿سارع إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها السموات والأرض﴾ [آل عمران: ١٣٣]، وقوله تعالى ﴿وفي ذلك فليتنافس المتنافسون﴾ [المطففين: ٢٦]، وقوله ﷺ: (بادروا بالأعمال فتنا كقطع الليل المظلم)[١].

وعن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه -قال الأعمش: ولا أعلم إلا عن النبي ﷺ- «التؤدة في كل شيء خير إلا في عمل الآخرة» رواه أبو داود في كتاب الأدب، وصححه الألباني[٢].

الحكمة في الدعوة:

إن طرق الدعوة الحكيمة كثيرة في دين الله عند المتأمل لكتاب الله وسنة نبيه الكريم وسيرته، ومنها:

١- تحري الوقت المناسب من حاجة أو فراغ ونحوهما، حتى لا يمل السامعون عن الاستماع للحق، فعن ابن مسعود رضي الله عنه قال: «كان النبي ﷺ يتخولنا بالموعظة في الأيام كراهة السآمة علينا»[٣].

٢- ترك الأمر الذي لا ضرر في تركه، اتقاء الفتنة، أو يكون في تركه من الضرر ما هو

(١) رواه مسلم: في الإيمان عن أبي هريرة برقم: ٢٠٣٨ في المختصر.
(٢) صحيح أبي داود: (٩١٣/٣).
(٣) البخاري: في كتاب العلم: (١٦٢/١)، الفتح.

دون الضرر الحاصل بفعله، فعن عائشة رضي الله عنها أن النبي ﷺ قال لها: ((يا عائشة، لولا أن قومك حديثو عهد بجاهلية، لأمرت بالبيت فهدم، فأدخلت فيه ما أخرج منه، وألزقته بالأرض، وجعلت له بابين: بابا شرقيا ، وبابا غربيا . فبلغت به أساس إبراهيم))[1].

٣- تأليف القلوب بالجاه والمال. فالداعية كالطبيب، يشخص المرض، ثم يعطي العلاج، فإذا علم الداعية أن المدعو لا يرسخ الإيمان في قلبه إلا بمال، أو جاه، سارع إلى فعله حتى يرسخ الإيمان في قلبه، ولذلك قال النبي ﷺ: ((إني لأعطي الرجل وغيره أحب إلي منه، خشية أن يكبَّ في النار على وجهه))[2].

٤- التأليف بالعفو في موضع الانتقام، والإحسان في مكان الإساءة، واللين في موضع الشدة، فعن أنس رضي الله عنه قال: «كنت أمشي مع رسول الله ﷺ، وعليه برد نجراني، غليظ الحاشية، فأدركه أعرابي، فجبذه بردائه جبذة شديدة، فنظرت إلى صفحة عاتق النبي ﷺ، وقد أثرت بها حاشية الرداء من شدة جبذته، ثم قال: يا محمد، مر لي من مال الله، الذي عندك، فالتفت إليه، فضحك، ثم أمر له بعطاء» متفق عليه.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه: أن رجلاً قال: يا رسول الله، إن لي قرابة أصلهم ويقطعوني، وأحسن إليهم ويسيئون إلي، وأحلم عنهم ويجهلون علي! فقال: (لئن كنت كما قلت، فكأنما تسفهم المل، ولا يزال معك من الله تعالى ظهير عليهم، ما دمت على ذلك). رواه مسلم. وقوله: (تسفهم المل)؛ أي تجعلهم يسفون الرماد الحار.

٥- عدم مواجهة الداعية أحداً بعينه ما أمكن، عندما يريد أن يؤدبه، أو يزجره، إذا

---

(١) البخاري: في كتاب الحج: (٣/٤٣٩)، الفتح، ومسلم في الحج: (٢٢/٩٦٩).

(٢) البخاري: في كتاب الإيمان: (١/٧٩)، الفتح، ومسلم: في الإيمان: (١/١٣٢).

كان في الموعظة العامة. كفاية من ذلك أن النبي ﷺ منع شيئاً فرخص فيه، فتنزه عنه قـ
فبلغ ذلك النبي ﷺ فخطب فحمد الله، ثم قال: (ما بال أقوام يتنزهون عن شـيء أصنـ
فوالله إني لأعلمهم بالله وأشدهم له خشية)[1].

وبلغه شرط أهل بريرة رضي الله عنها: أن الولاء لهم بعد بيعها، ثم خطب الناس فقـ
«ما بال أناس يشترطون شروطاً ليست في كتاب الله، من اشترط شرطاً، ليس في كتـ
الله، فليس له، وإن شرط مائة مرة، شرط الله أحق وأوثق»[2].

٦- ضرب الأمثال؛ لأن الأمثال من البيان الذي أمر الله به؛ في قوله تعالى: ﴿وما علـ
الرسول إلا البلاغ المبين﴾ [النور:٥٤]. وفي الكتاب والسنة من الأمثال ما فيه بيـ
للدين. قال تعالى: ﴿وضرب الله مثلاً رجلين أحدهما أبكم لا يقدر على شيء وهو كـ
على مولاه أينما يوجهه لا يأت بخير، هل يستوي هو ومن يأمر بالعدل وهو على صر
مستقيم﴾ [النحل:٧٦].

وقال ﷺ: (المؤمن للمؤمن كالبنيان، يشد بعضه بعضاً، وشبك بين أصابعه)[3].

ومن الأمثلة العظيمة التي ضربها الأنبياء لقومهم ما حدث به النبي ﷺ عن يحيى بـ
زكريا، فقال ﷺ: (إن الله أمر يحيى بن زكريا بخمس كلمات أن يعمل بهن، وأن يأمر بـ
إسرائيل أن يعملوا بهن، فكأنه أبطأ بهن، فأوحى الله إلى عيسى: إما أن يبلغهن أو تبلغهن
فأتاه عيسى، فقال له: إنك أُمرت بخمس كلمات أن تعمل بهن، وتأمر بني إسرائيل
يعملوا بهن، فإما أن تبلغهن وإما أن أبلغهن، فقال له: يا روح الله، أخشى إن سبقتني
أعذب، أو يخسف بي، فجمع بني إسرائيل في بيت المقدس، حتى امتلأ المسجد، فقعد علـ

---

(١) البخاري: في كتاب الأدب: (١٠/٥١٣)، الفتح، ومسلم: في الفضائل: (٤/١٨٢٩).
(٢) مسلم: في الزكاة: (٢/١٠٢٠).
(٣) البخاري: في الصلاة: (١/٥٦٥)، الفتح، ومسلم: في البر والصلة: (٤/١٩٩٩).

الشرفات، فحمد الله، وأثنى عليه، ثم قال: إن الله أمرني بخمس كلمات أن أعمل بهن، وآمركم أن تعملوا بهن:

أولهن: أن تعبدوا الله، ولا تشركوا به شيئا ، فإن مثل من أشرك بالله كمثل رجل اشترى عبداً من خالص ماله بذهب أو ورق، ثم أسكنه داراً فقال: اعمل وارفع إلي، فجعل العبد يعمل، ويرفع إلى غير سيده، فأيكم يرضى أن يكون عبده كذلك؟ وإن الله خلقكم، ورزقكم، فاعبدوه، ولا تشركوا به شيئا.

وآمركم بالصلاة، وإذا قمتم إلى الصلاة فلا تلتفتوا، فإن الله عز وجل يقبل بوجهه على عبده ما لم يلتفت.

وآمركم بالصيام، ومثل ذلك كمثل رجل معه صرة مسك في عصابة، كلهم يجد ريح المسك، وإن خلوف فم الصائم أطيب عند الله من ريح المسك.

وآمركم بالصدقة، ومثل ذلك كمثل رجل أسره العدو، فشدوا يديه إلى عنقه، وقدموه ليضربوا عنقه، فقال لهم: هل لكم أن أفتدي نفسي منكم؟ فجعل يفتدي نفسه منهم بالقليل والكثير، حتى فك نفسه.

وآمركم بذكر الله كثيراً، ومثل ذلك كمثل رجل طلبه العدو، سراعاً في أثره، فأتى حصناً حصيناً، فأحرز نفسه فيه، وإن العبد أحصن ما يكون من الشيطان، إذا كان في ذكر ا لله تعالى).

وأنا آمركم بخمس أمرني الله بهن: (الجماعة، والسمع، والطاعة، والهجرة، والجهاد في سبيل الله، فإن من فارق الجماعة قيد شبر، فقد خلع ربقة الإسلام من عنقه، إلا أن يراجع، ومن دعا بدعوة الجاهلية، فهو من جثاء جهنم، وإن صام وزعم أنه مسلم، فادعوا

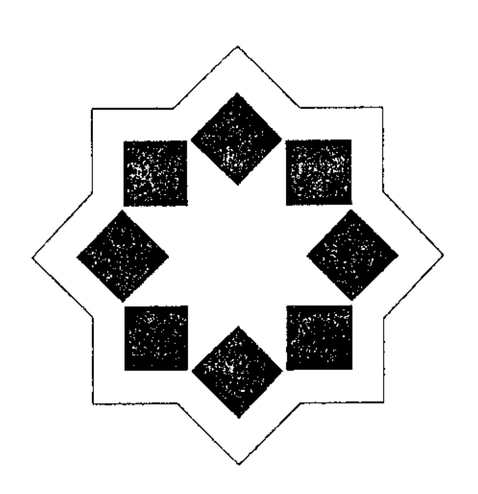
بدعوة الله، التي سماكم بها المسلمين المؤمنين عباد الله)[1].

٧- ومن الحكمة في الدعوة إنزال الناس منازلهم بحسب حالهم، ولهذا قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: «حدثوا الناس بما يعرفون، أتحبون أن يُكذَّب الله ورسوله»[2].

وكذلك ذكر عن عائشة، رضي الله عنها، أنها قالت: «أمرنا رسول الله ﷺ أن ننزل الناس منازلهم»[3].

وقال عبدالله بن مسعود رضي الله عنه: «ما أنت بمحدث قوماً حديثاً لا تبلغه عقولهم، إلا كان لبعضهم فتنة»[4].

وقد مر بنا حديث عائشة، حينما قال لها النبي ﷺ: (يا عائشة لولا أن قومك حديثو عهد بكفر، لنقضت الكعبة، وجعلت لها بابين: باب يدخل الناس، وباب يخرجون منه).

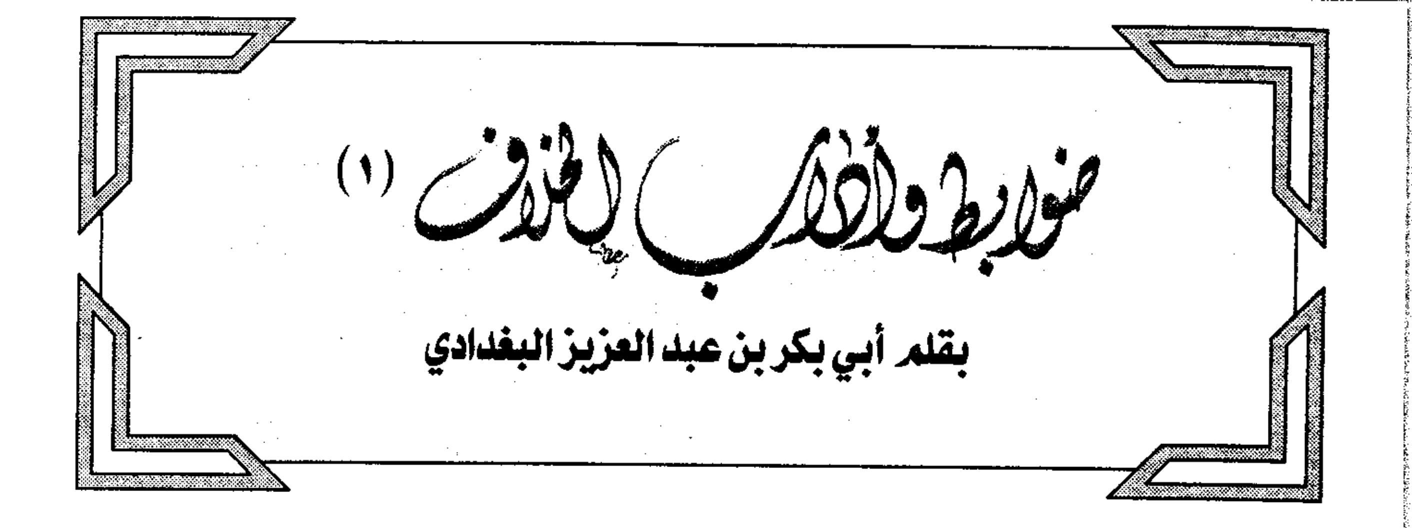


(١) رواه أحمد والترمذي والنسائي وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم: (١٧٢٤).

(٢) البخاري: في العلم: (١/٢٢٥)، الفتح.

(٣) مسلم: في المقدمة: (١/٥٥)، النووي، وأبوداود: (١٣/١٩١)، العون.

(٤) مسلم: في المقدمة: (١/١١).



الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على رسوله الكريم محمد صلى الله عليه وسلم تسليماً كثيراً وبعد..

فإني أشعر بسعادة غامرة، وأنا أكتب في العدد الأول من مجلة «**الحكمة**»، التي أسأل الله تعالى أن يبارك فيها؛ لتخدم دينه على النهج القويم، وتكون منبراً جديداً يضاف إلى منابر الإسلام المقروءة في عالمنا المعاصر.

إنَّ موضوع الخلاف بين المسلمين من أهم الموضوعات التي شغلت العلماء والباحثين، لما يترتب على عدم إدراك معناه، وأنواعه، وضوابطه، وآدابه، من التفرق، الذي يقابل الائتلاف، والبغض، الذي يقابل المحبة، والضعف، الذي يقابل القوة.

قسمت مقالتي إلى جزئين: جزء عن الخلاف ومتعلقاته الشرعية، وجزء عرضت فيه بعض كتب الخلاف المعاصرة، التي كان لها أثر إيجابي في معالجته، وعلقت عليها في المواضع التي تقتضي ذلك.

(١) هذا البحث مجتزأ بتصرف من كتاب بعنوان «ضوابط وآداب الخلاف عند شيخ الإسلام ابن تيمية»، أقوم بتأليفه. وسينشر على حلقات بإذن الله في مجلة الحكمة.

القسم الأول

الخلاف

أولاً: الاجتهاد:

لا بد أولاً من الكلام على الاجتهاد:

١- تعريفه:

هو بذل الفقيه الوسع في نيل حكم شرعي، بطريق الاستنباط[١]. وقد قيد بعض العلم
هذا التعريف بالحكم الشرعي العملي إخراجاً للحكم الشرعي العلمي.

وفي الحقيقة، فإن هذا التقييد لا يقصد به الإطلاق، وإنما ذكروا ذلك على سبي
التغليب، فإن غالب الاجتهاد يكون على الأحكام العملية، دون العلمية، وإن كا
الاجتهاد في المسائل العلمية يقع أيضاً. وقد فصل ابن تيمية[٢] في رد من فرق بين الاجتها
في المسائل العلمية والعملية، أو بين الأصول والفروع، إذا كان اجتهاداً شرعياً، بذل في
المجتهد الوسع، وقصد الوصول إلى الحق. قال شيخ الإسلام[٣]: «والخطأ المغفور ف
الاجتهاد هو في نوعي المسائل الخبرية والعلمية، كما قد بسط في غير موضع».أ.هـ.

---

(١) إرشاد الفحول، ص: ٤١٨.

(٢) مجموع فتاوى ابن تيمية: ١٩/ ٢٠٧-٢١٢.

(٣) مجموع فتاوى ابن تيمية: ٢٠/ ٣٣.

٢- شروط الاجتهاد:

بين العلماء[1] شروط المجتهد كالتالي:

١- أن يكون عالماً بنصوص الكتاب والسنة.

٢- أن يكون عارفاً بمسائل الإجماع.

٣- أن يكون عالماً بلسان العرب، بحيث يمكنه تفسير ما ورد في الكتاب والسنة.

٤- أن يكون عالماً بعلم أصول الفقه، لاشتماله على نفس الحاجة إليه.

٥- أن يكون عارفاً بالناسخ والمنسوخ.

٣- تجزُّؤ الاجتهاد:

ذهب أكثر العلماء إلى أن الاجتهاد يتجزأ. قال ابن دقيق العيد[2]: «وهو المختار؛ لأنها قد تمكن العناية بباب من الأبواب الفقهية، حتى تحصل المعرفة بمآخذ أحكامه، وإذا حصلت المعرفة بالمآخذ أمكن الاجتهاد». أ.هـ، وقال شيخ الإسلام[3]: «والاجتهاد ليس هو أمراً واحداً، لا يقبل التجزيء، والانقسام، بل قد يكون الرجل مجتهداً في فن أو باب أو مسألة، دون فن وباب ومسألة».

وفي وقتنا الحاضر، فإنه لا بد من تجزيء الاجتهاد؛ لاستيعاب الأبواب والمسائل المتفرعة في مبحث واحد من مباحث الفقه، كما هي الحال بالنسبة للرسائل الجامعية ونحوها.

---

(١) إرشاد الفحول، ص: ٤١٩-٤٢٢.

(٢) إرشاد الفحول، ص: ٤٢٥.

(٣) مجموع فتاوى ابن تيمية: ٢٠/ ٢١٢.

٤- النقل المصدق والنظر المحقق[1]:

العلم لا بد فيه من نقل مصدق صحيح، مبني على التحري والتثبت، بعد شيوع وتفش النقل الضعيف، بدرجاته التي تتفاوت بين الساقط والمحتمل. ومما يزيد في أهمية هذه المسأ هو وجود مثل هذه النصوص في كثير من كتب الفقه المتداولة من جهة، وعدم معرف الكثيرين ممن يتناولون تلك الكتب أصول معرفة الصحيح من الأخبار، من غيرها من جه أخرى.

ولا بد كذلك من النظر المحقق إذ إن ثبوت النص وصحته لا يكتمل نفعه إلا بفهم دقي صحيح بمعنى النص، ولوازمه ومقتضياته، وما يترتب عليه من الأحكام الشرعية.

٥- تطرق الخطأ إلى أقوال العلماء أكثر من تطرقه إلى الأدلة الشرعية[2]:

وهذا الأصل يعمل عند التعارض في الاجتهاد، بين قول ظهرت حجته بحديث صحيح وافقه طائفة من أهل العلم، ومن تعلق باجتهاد، لم تظهر حجته بحديث صحيح. وذلك لأ مآخذ الاجتهاد واسعة محتملة بخلاف النصوص الشرعية، فإنها وإن تطرق إليها الاحتمال قدرها أقل.

٦- الباطل لا ينفق إلا بثوب الحق[3]:

ولذلك نهى الله عن لبس الحق بالباطل في قوله تعالى: ﴿ولا تلبسوا الحق بالباطل وتكتموا الحق وأنتم تعلمون﴾ [سورة البقرة:٤٢]؛ لما في ذلك من التضليل للخلق. وهذ

(١) مجموع فتاوى ابن تيمية: ١٢/ ٦٣، ٦/ ٣٨٨.

(٢) مجموع فتاوى ابن تيمية: ٢٠/ ٢٥٠.

(٣) مجموع فتاوى ابن تيمية: ٣٥/ ١٩٠.

المعنى ينطبق على البدعة، التي تكون في إفسادها أكثر من المعصية؛ ولـذا كـانت أحـب إلى إبليس من المعصية؛ كما قال بعض السلف[1]. وفي هذا المعنى قال رسـول الله ﷺ: (وإنما أخاف على أمتي الأئمة المضلين)[2].

وفي هذا المعنى يقول شيخ الإسلام موافقاً ومؤيداً[3]: «وقد قال بعـض النـاس: أكـثر مـا يفسد الدنيا: نصف متكلم، ونصف متفقه، ونصف متطبـب، ونصـف نحـوي، هـذا يفسـد الأديان، وهذا يفسد البلدان، وهذا يفسد الأبدان، وهذا يفسد اللسان» أ.هـ.

ثانيا: الخلاف

١- تعريفه:

عرفه الجرجاني[4] بأنه «منازعة تجري من المعارضين لتحقيق حق أو لإبطال باطل».

٢- أنواعه:

من حيث الظاهر هو نوعان، كما بينه شيخ الإسلام[5]: «خلاف تضاد، وخلاف تنـوع، **فالأول**: مثل أن يوجب هذا شيئاً، ويحرمه الآخـر، والنـوع **الثـاني**: مثـل القـراءات، الـتي يجوز كل منها.... وأنواع التشهدات.... والاستفتاحات... وغير ذلك». أ.هـ.

وأما من حيث هو فهو ثلاثة أنواع: مذموم وممدوح وسـائغ. **والأول**: مثـل خـلاف أهـل

---

(١) سفيان الثوري.

(٢) مسلم.

(٣) مجموع فتاوى ابن تيمية: ٥/ ١١٨-١١٩.

(٤) التعريفات، للجرجاني: حرف الخاء.

(٥) منهاج السنة، لابن تيمية: ٦/ ١٢١.

الأهواء لأهل العلم، **والثاني**: مثل خلاف أهل العلم لأهل الأهواء، **والثالث**: مثل خلاف أهل العلم لأهل العلم.

٣ - ضوابط الخلاف السائغ:

أ- خفاء الدليل الراجح مع قصد الحق: كما قال شيخ الإسلام(١): «إنه إذا كان فيه (المسألة) نص خفي على بعض المجتهدين، وتعذر عليه علمه، ولو علم به، لوجب عليه اتباعه، لكنه لما خفي عليه اتبع النص الآخر، وهو منسوخ أو مخصوص». أ.هـ.

ب- ما كان من المسائل الدقيقة: وهي التي يكثر فيها احتمال الخطأ، وقل من يسلم منا حتى من فضلاء الأمة، كما قال شيخ الإسلام(٢): «ولا ريب أن الخطأ في دقيق العلم مغفور للأمة، وإن كان ذلك في المسائل العلمية. ولولا ذلك، لهلك أكثر فضلاء الأمة».أ.هـ.

جـ- عدم مخالفة النص الشرعي أو الإجماع: وهو أن لا يكون في المسألة نص ولا إجماع فإذا اجتهد الفقيه فيها وبذل فيها وسعه، فإن خالف غيره من العلماء، سواء أكانوا سابقين أو معاصرين، فالخلاف يكون سائغاً، كما نصر ذلك شيخ الإسلام(٣).

د- لا يكون الخلاف سائغاً إلا من أهل العلم والاجتهاد: وفي هذا الباب يقول شيخ الإسلام(٤)، بعد أن ذكر أنواع المجتهدين: «بخلاف الذين أفتوا المشجوج في البرد، بوجوب الغسل، فاغتسل، فمات، فإنه قال: (قتلوه قتلهم الله، هلا سألوا إذا لم يعلموا، إنما شفا

---

(١) مجموع فتاوى ابن تيمية: (٢٠/٢٥).
(٢) مجموع فتاوى ابن تيمية: ٢٠/ ١٦٥.
(٣) مجموع فتاوى ابن تيمية: ٣٣/ ١٣٣.
(٤) مجموع فتاوى ابن تيمية: ٢٠/ ٢٥٣-٢٥٤.

العي السؤال). فإن هؤلاء أخطأوا بغير اجتهاد -إذ لم يكونوا من أهل العلم-.أ.هـ.

هـ- لا يكون الخلاف سائغا مع البغي: وذلك أن البغي يعارض قصد الحق، الذي هو من لوازم الخلاف السائغ. قال تعالى: ﴿وما اختلف الذين أوتوا الكتاب إلا من بعد ما جاءهم العلم بغياً بينهم﴾ [آل عمران:١٩].

قال شيخ الإسلام[1] في كلامه على الآية: «والبغي إما تضييع للحق، وإما تعد للحد، فهو إما ترك واجب، وإما فعل محرم. فعلم أنه موجب التفرق هو ذلك». أ.هـ.

و- لا يكون الخلاف سائغاً مع ظهور الأدلة: وذلك أن الدليل الظاهر يحسم مادة الخلاف، فإن كان الخلاف سائغاً قبل ظهور الدليل، فإنه لا يكون كذلك بعد ظهوره. وفي هذا المعنى يقول شيخ الإسلام[2]: «فلا يجوز لنا أن نعدل عن قول ظهرت حجته بحديث صحيح وافقه طائفة من أهل العلم إلى قول آخر ما قاله عالم».أ.هـ، وقال:[3] «ولهذا اتفق العلماء على أنه إذا عرف (شخص) الحق لا يجوز له تقليد أحد في خلافه». أ.هـ.

٤ - أسباب الخلاف

إن سبب الخلاف مبني على أمرين:

١- الاختلاف في ثبوت النص الشرعي.

٢- الاختلاف في فهم النص الشرعي.

(١) مجموع فتاوى ابن تيمية: ١/ ١٤.
(٢) مجموع فتاوى ابن تيمية: ٢٠/ ٢٥٠.
(٣) مجموع فتاوى ابن تيمية: ٧/ ٧١.

وفي ذلك يقول شيخ الإسلام[1]: «لكن تنوع الشرع لهؤلاء وانتقاله لم يكن لتنوع نفس الأمر النازل على الرسول، ولكن تنوع أحوالهم، وهو: إدراك هذا، لما بلغه من الوحي سمعاً، وعقلاً، وعجز الآخر عن إدراك ذلك البلاغ، إما سمعاً، لعدم تمكنه من سماع ذلك النص، وإما عقلاً؛ لعدم فهمه لما فهمه الأول من النص». أ.هـ.

وذكر شيخ الإسلام[2] أسباباً أخرى متفرعة عن تلك الأسباب أهمها:

١- أن لا يكون الحديث بلغه.

٢- أن يكون بلغه، ولكن لم يثبت عنده.

٣- اعتقاد ضعف الحديث باجتهاد، خالفه فيه غيره.

٤- اشتراطه في خبر الواحد العدل شروطاً، يخالفه فيها غيره.

٥- عدم معرفته بدلالة الحديث.

٦- اعتقاده أن تلك الدلالة قد عارضها ما دلَّ على أنها ليست مرادة، مثل معارضة العام بالخاص، أو المطلق بالمقيد.

ولا شك أن هناك أسباباً أخرى كثيرة، يتعلق أهمها باختلافهم في المسائل الأصولية، والقواعد الفقهية، والدلائل اللفظية.

٥- وجوب الاستبانة عند الخلاف:

حيث يجب التحري لمعرفة الصواب عند الاختلاف، كما قال تعالى: ﴿فإن تنازعتم في

---

(١) مجموع فتاوى ابن تيمية: ١٩/ ١٢٤.

(٢) مجموع فتاوى ابن تيمية: ٢٠/ ٢٣٣-٢٥٠.

شيء فردوه إلى الله والرسول إن كنتم تؤمنون با لله واليوم الآخر ذلك خير وأحسن تأويلاً﴾ [النساء:٥٩]. قال شيخ الإسلام: «وإذا اشتبه الأمر، استبان المؤمن، حتى يتبين له الحق، فلا يقدم على الطاعة إلا بعلم ونية، وإذا تركها (أي الاستبانة)، كان عاصياً».

٦- المصيب واحد:

لا شك أن الحاكم في الأحكام الشرعية هو الله سبحانه وتعالى. ومن هذه الأحكام ما نص عليه الله تعالى في كتابه، أو على لسان نبيه ﷺ، ومنها ما لم ينص عليه، بل تخضع لاجتهاد المجتهدين، الذين يجتهدون في الوصول إلى حكم الحاكم، الذي هو الله؛ ولا شك أن حكمه واحد يتنزل على أحكام التكليف الخمسة المعروفة، أو أحكام الوضع؛ فلا يجوز أن يتعدد، بأن يكون الوجوب، وكذلك الكراهة. وفي هذا التوجيه يقول الشوكاني[1]: «وههنا دليل يرفع النزاع، ويوضح الحق إيضاحاً لا يبقى بعده ريب لمرتاب، وهو الحديث الثابت في الصحيح من طرق «أن الحاكم إذا اجتهد فأصاب فله أجران، وإن اجتهد فأخطأ فله أجر»[2]. فهذا الحديث يفيدك أن الحق واحد، وأن بعض المجتهدين يوافقه، فيقال له مصيب، ويستحق أجرين. وبعض المجتهدين يخالف، ويقال له مخطئ، واستحقاق الأجر لا يستلزم كونه مصيباً، واسم الخطأ عليه لا يستلزم أن لا يكون له أجر. فمن قال: كل مجتهد مصيب، وجعل الحق متعدداً بتعدد المجتهدين فقد أخطأ خطأً بيناً، وخالف الصواب مخالفة ظاهرة».أ.هـ.

وقال شيخ الإسلام[3]: «فإن هذا مذهب جمهور الفقهاء، الموافقين لسلف الأمة، على أن المصيب عند الله واحد في جميع المسائل». ثم قال: «وإذا كان هذا في دقة الفروع، فما

(١) إرشاد الفحول، ص: ٤٣٧.
(٢) البخاري من حديث عمرو بن العاص مرفوعاً.
(٣) مجموع فتاوى ابن تيمية: ١٤/ ٤٣١.

الظن بما تنازعوا فيه من الأصول؟ فإنه لا خلاف بين المسلمين، ولا بين العقلاء أن المصيب في نفس الأمر واحد، وإنما تنازعوا في المخطئ، هل يغفر له أو لا يغفر له، وهل يكون مصيبا ، بمعنى أداء الواجب وسقوط اللوم ».أ.هـ.

٧ - عدم الاحتجاج بالخلاف:

وهذا باب غاية في الأهمية؛ لضبط الخلاف، ومنع التقول على الله بغير علم؛ إذ المعتبر هو مراعاة الخلاف، لا الاحتجاج به. وما أبين ما قاله الشاطبي في بيان ذلك حين قال[1]: «وقد زاد هذا الأمر على قدر الكفاية، حتى صار الخلاف في المسائل معدوداً في حجج الإباحة، ووقع، فيما تقدم وتأخر من الزمان، الاعتماد في جواز الفعل على كونه مختلفا فيه بين أهل العلم، لا بمعنى مراعاة الخلاف، فإن له نظراً آخر».

قال: «وهو عين الخطأ على الشريعة، حيث جعل ما ليس بمعتمد معتمدا، وما ليس بحجة حجة»، ثم قال: «حكى الخطابي، في مسألة البتع المذكور في الحديث عن بعض الناس، أنه قال: إن الناس لما اختلفوا في الأشربة، وأجمعوا على تحريم خمر العنب، واختلفوا فيما سواه، حرمنا ما اجتمعوا على تحريمه، وأبحنا ما سواه.

قال (أي الخطابي): وهذا خطأ فاحش، وقد أمر الله تعالى المتنازعين أن يردوا ما تنازعوا فيه إلى الله والرسول، قال الخطابي: ولو لزم ما ذهب إليه هذا القائل، للزم مثله في الربا، والصرف، ونكاح المتعة؛ لأن الأمة قد اختلفت فيها. قال (الخطابي): وليس الاختلاف حجّة، وبيان السنة حجة على المختلفين من الأولين والآخرين». انتهى كلام الشاطبي.

---

(١) الموافقات للشاطبي: ٤/ ١٤١.

والاحتجاج بالخلاف مع بطلانه، فإنه لا يعمَدُ إليه إلا من ليس له علم بالأدلة الشرعية، وفي ذلك يقول شيخ الإسلام[1]: «مع أن تعليل الأحكام بالخلاف علّة باطلة في نفس الأمر، فإن الخلاف ليس من الصفات التي يعلق الشارع بها الأحكام في نفس الأمر، فإن ذلك وصف حادث بعد النبي ﷺ، ولكن يسلكه من لم يكن عالماً بالأدلة الشرعية في نفس الأمر، لطلب الاحتياط».أ.هـ.

٨ - مراتب الخلاف من حيث الثمرة:

لا شك أن الخلاف له مراتب متفاوتة، بين الخلاف في المسائل التافهة، والخلاف في المسائل الكبيرة، وبين هذا وذاك درجات، ومعرفة تلك الدرجات والمراتب هو بحسب ما يترتب على نفس الاختلاف من نتائج وثمرات. وعندما ندرك أن الخلاف في الشريعة غير مطلوب أصلا ، مع استحالة تفاديه، يضاف إلى ذلك أن جملة المسائل التي حدث فيها الخلاف كثيرة ومتنوعة، فإن ترتيب الخلاف وتصنيفه حسب درجاته وثمراته يعد من الأمور الأكثر أهمية في حسر الخلاف وتقويضه، واعتبار الأهم فالمهم. وهذا التصنيف أصل شرعي في كل ما خلق الله وقدر، فالناس يتفاوتون على درجات، والإيمان على درجات، والكفر على درجات، والجنة على درجات، والنار على درجات، وهكذا فالخلاف لا بد أن يكون كذلك، ثم تعطى كل منزلة ما تستحق.

يقول شيخ الإسلام[2]: «فالمسلمون، سنيهم وبدعيهم، متفقون على وجوب الإيمان بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، ومتفقون على وجوب الصلاة، والزكاة، والصيام، والحج، ومتفقون على أن من أطاع الله ورسوله، فإنه يدخل الجنة، ولا يعذب،

(١) مجموع ابن تيمية: (٢٣/ ٢٨١).
(٢) مجموع فتاوى ابن تيمية: (٧/ ٣٥٧).

وعلى أن من لم يؤمن بأن محمداً رسول الله ﷺ إليه، فهو كافر. وأمثال هـذه الأمـور ا
هـي أصـول الديـن، وقواعـد الإيمـان، الـتي اتفـق عليهـا المنتسـبون إلى الإسـلام والإيمـا
فتنازعهم بعد هذا في بعـض أحكـام الوعيـد، أو بعـض معـاني بعـض الأسمـاء، أمـر خفيـ
بالنسبة إلى ما اتفقوا عليه، مع أن المخالفين للحق البين من الكتاب والسنة هم عند جمهـ
الأمة معروفون بالبدعة، مشهود عليهـم بالضلالـة، ليـس لهـم في الأمـة لسـان صـدق، و
قبول عام، كالخوارج والروافض والقدرية ونحوهم.

وإنما تنازع أهل العلم والسنة في أمور دقيقة تخفى على أكثر الناس، ولكـن يجـب رد
تنازعوا فيه إلى الله ورسوله». أ.هـ.

فقد فرق شيخ الإسلام بين الخلاف في المسائل الدقيقة، التي تخفى على أكثر الأمة، وبـ
أن هذا الاختلاف أمر خفيف بالنسبة لما اتفقوا عليـه، وبـين الخـلاف في المسـائل العظيمـ
مثل بدعة الخوارج، والروافض، والقدرية، ونحو تلك البدع التي امتدت إلى وقتنا الحاضـ
ثم إن شيخ الإسلام بين أن كل تلك الاختلافات، الدقيق منها، والعظيم، يجب أن ترد إ
كتاب الله ورسوله.

ويقول شيخ الإسلام أيضاً[1]، فيما يجب اعتباره في الخلاف: «أن تسـتوعب الأقـوال
ذلك المقام، وأن ينبه على الصحيح منها، ويبطل الباطل، وتذكر فائدة الخلاف وثمرته، لئ
يطول النزاع والخلاف فيما لا فائدة تحته، فيشتغل به عن الأهم». أ.هـ.

٩- متى يكون الخلاف رحمة:

إن الخلاف يكون رحمة ، إذا كان خفاء الحكم، الـذي هـو سـبب الخـلاف، أكـثر رحمـ

---

(١) مجموع فتاوى ابن تيمية: (١٣/ ٣٦٨).

للأمة من ظهوره. وهذا نظير قوله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تسألوا عن أشياء إن تبد لكم تسؤكم﴾[سورة المائدة:١٠١]، وقوله ﷺ في الحديث: «ما أحل الله في كتابه فهو حلال، وما حرم فهو حرام، وما سكت عنه فهو عفو، فاقبلوا من الله عافيته، فإن الله لم يكن لينسى شيئاً ثم تلا هذه الآية ﴿وما كان ربك نسياً﴾ »[1]، وقوله ﷺ: «إن أعظم المسلمين في المسلمين جرماً من سأل عن شيء لم يحرم، فحرم عليهم من أجل مسألته»[2].

قال شيخ الإسلام[3]: «والنزاع في الأحكام قد يكون رحمة، إذا لم يفض إلى شر عظيم من خفاء الحكم؛ ولهذا صنف رجل كتاباً سماه «كتاب الاختلاف» فقال أحمد: سمه «كتاب السعة». وإن الحق في نفس الأمر واحد، وقد يكون من رحمة الله ببعض الناس خفاؤه؛ لما في ظهوره من الشدة عليه، ويكون من باب قوله تعالى: ﴿لا تسألوا عن أشياء إن تبد لكم تسؤكم﴾ [المائدة:١٠١].

وهكذا ما يوجد في الأسواق من الطعام والثياب قد يكون في نفس الأمر مغصوباً، فإذا لم يعلم الإنسان بذلك، كان كله حلالاً، لا إثم عليه فيه بحال، بخلاف ما إذا علم، فخفاء العلم بما يوجب الشدة قد يكون رحمة، كما أن خفاء العلم بما يوجب الرخصة قد يكون عقوبة». أ.هـ.

١٠- لا يجوز الوقوف عند اختلاف الأئمة في الأصول الفقهية:

لا شك أن اختلاف الأئمة في الأصول الفقهية يصلح سبباً وعذراً لهم، فيما ترتب على ذلك من الاختلافات في التطبيقات الفقهية الجزئية؛ ولكن هل يصلح ذلك عذراً لغيرهم؟

---

(١) أخرجه البزار والحاكم والبيهقي والحديث حسن إن شاء الله.

(٢) متفق عليه.

(٣) مجموع فتاوى ابن تيمية: (١٤/١٥٩).

أقول: إن الأمة اتفقت على حجية الكتاب والسنة والإجماع، وكادت أن تجمع على القياس أيضاً، ووقع الاختلاف في حجية أقوال الصحابة، وشرع من قبلنا، والاستصحاب. ولكن لم ينقل لنا أن هناك خلافاً في حجية أقوال التابعين، وتابعيهم من الأئمة، بل إن هذ غير موجود أصلاً.

إن الكلام في هذا الباب هو نظير الكلام في الاحتجاج بالخلاف، الذي سبق بيانه. يضاف إلى ذلك ما تقدم بيانه، من أن المصيب بين المختلفين واحد، فبالتالي لا بد من إخضاع اختلاف الأئمة في الأصول الفقهية إلى الصواب والخطأ ما أمكن؛ ذلك أن كثيراً ممن يؤلف في الخلاف يقف عند هذه الاختلافات، بما يشعر بشرعية الوقوف عندها، وكأنها نصوص شرعية، أو أدلة شرعية. وإن قيل: إن هذه الاختلافات سائغة.

فأقول **أولاً**: إن السائغ لا يتخلف عن الخضوع إلى الصواب والخطأ.

وثانياً: إنها سائغة لأولئك الأئمة، ولا تكون سائغة لمن تبين له الحق فيها لمن بعدهم، كما سبق بيان ذلك في ضوابط الخلاف السائغ.

ومن يطلع على كلام الأئمة الذين جاءوا من بعدهم، مثل شيخ الإسلام، وابن القيم، والحافظ ابن حجر، وغيرهم يجدهم لا يقفون عند ذلك ألبتة، وقد ألف شيخ الإسلام رسالة سماها «صحة أصول أهل المدينة».

١١- لا محالة من الخلاف بكل أنواعه :

ذلك أن سنة الله في خلقه التفاوت والتدرج في الخير، والشر، والعلم، والرزق، فلا بد من مؤمنين وكافرين، ولا بد من عالمين وجاهلين، ولا بد من أغنياء وفقراء، والمؤمنون يتفاوتون بينهم كما قال تعالى: ﴿ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا فمنهم ظالم لنفسه ومنهم مقتصد ومنهم سابق بالخيرات بإذن الله﴾ [فاطر:٣٢]، وكذلك أهل العلم كما قال تعالى: ﴿وفوق كل ذي علم عليم﴾ [يوسف:٧٦].

وقد أشرنا سابقاً إلى أن سبب الاختلاف بين أهل العلم يرجع بالنهاية إلى أمرين: **النص المحتمل، والفهم المتفاوت**، مع أن الحق في نفس الأمر واحد. ولا شك أن مجرد الاعتذار بالنص المحتمل، والفهم المتفاوت، والوقوف عند ذلك، في تسويغ الخلاف، أمر غاية في الفساد؛ إذ إن ذلك يتيح انفلات السيطرة على الخلاف، وبالتالي ضياع الدين. وهنا يأتي دور العلماء في بيان ضوابط الخلاف أولا ، ثم توضيح النص المحتمل لحسر الخلاف، وإن تفاوت الفهم؛ حيث إن تفاوت الفهم بالنسبة للنص المحكم لا أثر له، ما دام المكلف عاقلاً، يفهم ما يقال له، فكل الناس، وإن تفاوتت مداركهم، يفهمون النصوص المحكمة، ولا يختلفون في ذلك. وهكذا كلما كان النص أكثر وضوحاً، انحسر الاختلاف فيه.

وفي هذا الباب لا بد من الإشارة إلى أن سبب الخلاف لا يقتصر من حيث الأصل إلى النص المحتمل، والفهم المتفاوت، حيث يدخل مع ذلك أسباب فيها شوب من الهوى، وشوب من التعصب، وشوب من المعارضة بشبهة. ولا شك أن تلك الشوائب تتفاوت أيضاً بين الشدة والضعف، ولكنها موجودة قائمة، لا يزيلها مجرد البيان والتوضيح، حيث إننا نتعلق بالإيمان والإخلاص، الذي هو متفاوت أيضا بين الناس، مثل الذنوب تماما.

وهنا نصل إلى النتيجة التالية: لا يجوز أن نهدف إلى رفع الخلاف، بل حصره وتهذيبه. وإن من يهدف إلى رفع الخلاف يحصد سيئتين:

الأولى وضع الشيء في غير محله، وفي ذلك هدر للجهود المطلوب حفظها.

الثانية توسيع الخلاف.

ثالثاً: التقليد و التعصب

١- وجوب اتباع وتقليد الرسول ﷺ وأهل الإجماع:

نصوص الكتاب العزيز مستفيضة في إيجاب ذلك، مثل قوله تعالى: ﴿فإن تنازعتم في

شيء فردوه إلى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر﴾ [النساء:٥٩] وقول تعالى: ﴿فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم﴾ [النساء:٦٥] وقوله تعالى ﴿ومن يشاقق الرسول من بعد ما تبين له الهدى ويتبع غير سبيل المؤمنين نوله ما تو، ونصله جهنم وساءت مصيراً﴾ [النساء:١١٥] وقوله تعالى: ﴿وما آتاكم الرسول فخذو وما نهاكم عنه فانتهوا﴾ [الحشر:٧] وغير ذلك من آيات الكتاب العزيز. وأما من السـ فقوله ﷺ: (كل أمتي يدخلون الجنة إلا من أبى)، قيل: ومن يأبى يا رسول الله، قال: (مـ أطاعني دخل الجنة، ومن عصاني، فقد أبى)[1]، وقوله ﷺ: (من رغب عن سنتي فليس مـ)[2]، وقوله ﷺ: (ألا هل عسى رجل يبلغه الحديث عني، وهو متكئ على أريكته، فيقوا بيننا وبينكم كتاب الله، فما وجدنا فيه حلالاً استحللناه، وما وجدنا فيه حراما حرمناه وإن ما حرم رسول الله ﷺ كما حرم الله)[3]، وغير ذلك من الأحاديث. وقال السلف «السنة مثل سفينة نوح من ركبها، نجا، ومن لم يركبها هلك»[4].

٢- يسوغ التقليد للعاصي ولكن إذا عرف الحق بخلافه، لم يجز له ترك الحق:

في ذلك يقول شيخ الإسلام[5]: «وقد يقول كثير من علماء المسلمين، أهل العلـ والدين، من الصحابة والتابعين، وسائر أئمة المسلمين، كالأربعة وغيرهم أقوالاً باجتهادهم فهذه يسوغ القول بها، ولا يجب على كل مسلم أن يلتزم إلا قول رسول الله ﷺ، فهـذ شرع دخل فيه التأويل والاجتهاد؛ (يعني الشرع المؤول الذي هو أقوال أهل العلم)، وقـ

(١) البخاري عن أبي هريرة.

(٢) متفق عليه.

(٣) الترمذي والحديث الصحيح.

(٤) مالك وغيره، نقله شيخ الإسلام عنه في المجموع: (١١/ ٦٢٣).

(٥) مجموع فتاوى ابن تيمية: (٣٥/ ٣٦٦-٣٦٧).

يكون في نفس الأمر موافقاً للشرع المنزل، فيكون لصاحبه أجران، وقد لا يكون موافقاً له، لكن لا يكلف الله نفساً إلا وسعها، فإذا اتقى العبد الله ما استطاع، آجره الله على ذلك، وغفر له خطأه. ومن كان هكذا (يعني من العوام الذين يقلدون أهل العلم)، لم يكن لأحد أن يذمه، ولا يعيبه، ولا يعاقبه، ولكن إذا عرف الحق، بخلاف قوله، لم يجز ترك الحق الذي بعث الله به رسوله لقول أحد من الخلق، وذلك هو الشرع المنزل من عند الله، وهو الكتاب والسنة».أ.هـ.

ثم إن الذي يتبع الحق، حيثما يجده عند العلماء، لا يعاب عليه بالتذبذب، بل هو يميل مع الحق حيث مال، وفي هذا المعنى يقول شيخ الإسلام[1]: «ومن كان موالياً للأئمة، محباً لهم، يقلد كل واحد منهم، فيما يظهر له أنه موافق للسنة، فهو محسن في ذلك. بل هذا أحسن حالاً من غيره، ولا يقال لمثل هذا مذبذب على وجه الذم، وإنما المذبذب المذموم الذي لا يكون مع المؤمنين ولا مع الكفار».أ.هـ.

٣- العامي يرجح بحسب تمييزه:

لا شك أن العامي شخص مكلف، وإن من شروط التكليف العقل، الذي يفهم به الأحكام ويميزها، ويميز كلام الله تعالى عن كلام رسوله ﷺ، وعن كلام غيره، ويعلم أن الحجة التي قامت عليه، إنما قامت بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ، وهو الشرع المنزل.

وأما أقوال العلماء، التي تهدف إلى الوصول إلى حكم الله، فقد تصيب ذلك، وقد تخطئه، وهي الشرع المؤول، ومعرفة الصواب والخطأ من كلام أهل العلم إنما يعرف بحسب ما يظهر من الأدلة، فالعامي المكلف العاقل المميز، إذا ظهر له من الأدلة ما يستطيع أن

(١) مجموع فتاوى ابن تيمية: (٢٢/ ٢٤٩).

يرجح بين أقوال أهل العلم، وجب عليه ذلك، يقول الشاطبي[1]: «ليس للمقلد أن يتخ في الخلاف، كما إذا اختلف المجتهدون على قولين، فوردت كذلك على المقلد... فيتب هواه، وما يوافق غرضه، دون ما يخالفه».

ثم قال فيما يجب على العامي في مثل هذا الحال: «فليس إلا الترجيح بالأعلمية وغيره وأيضا فالمجتهدان بالنسبة إلى العامي كالدليلين بالنسبة للمجتهد، فكما يجب على المجته الترجيح، أو التوقف، كذلك المقلد».

ثم قال: «وأيضاً فإن في مسائل الخلاف ضابطاً قرآنياً، ينفي اتباع الهوى جملة، وهو قو تعالى: ﴿فإن تنازعتم في شيء فردوه إلى الله والرسول﴾ [النساء:٥٩]. وهذا المقلد ة تنازع في مسألته مجتهدان، فوجب ردها إلى الله والرسول، وهو الرجوع إلى الأدلـ الشرعية، وهو أبعد من متابعة الهوى والشهوة».أ.هـ.

وقال شيخ الإسلام[2] في استدلال العوام: «الناس في الاستدلال والتقليد على طر نقيض. منهم من يوجب الاستدلال، حتى في المسائل الدقيقة، أصولها وفروعها على ك أحد، ومنهم من يحرم الاستدلال في الدقيق على كل أحد، وهذا في الأصول والفرو وخيار الأمور أوسطها».أ.هـ.

٤- التعصب لعالم معين ضلال:

إن من سنة الله في خلقه أن جعلهم فقراء إليه، وجعل فيهم ضعفاً، كما قال تعا ﴿وخلق الإنسان ضعيفاً﴾ [النساء:٢٨]، فالناس كل الناس تذنب وتخطئ، كما قال ﷺ

(١) الموافقات للشاطبي: (٤/ ١٣٢-١٣٤).

(٢) مجموع فتاوى ابن تيمية: (٢٠/ ١٨).

(كل بني أدم خطاء وخير الخطائين التوابون)[1].

فلا معصوم إلا من عصمه الله من الأنبياء، وأما سائر البشر فهم يصيبون ويخطئون، ويذنبون، ويتوبون، ويجهلون، ويعلمون. فالتعصب لإنسان بعينه هو في الحقيقة نفي لهذه السنة الإلهية، وكأنه يفترض في هذا الإنسان البراءة من الزلل والخطأ، مثل حال الروافض، الذين افترضوا ذلك في أئمتهم، فضلوا سواء السبيل. ولا شك أنه ليس أحد حجة على أحد، فضلاً عن أن يكون حجة على دين الله، إلا كتاب الله وسنة رسوله، فالتعصب لإنسان بعينه يستلزم أن يكون حجة على دين الله، وهذا ضلال عظيم.

يقول شيخ الإسلام[2]: «وإذا كان الرجل متبعاً لأبي حنيفة أو مالك أو الشافعي أو أحمد، ورأى في بعض المسائل أن مذهب غيره أقوى، فاتبعه، كان قد أحسن في ذلك، ولم يقدح ذلك في دينه، ولا عدالته بلا نزاع، بل هذا أولى بالحق، وأحب إلى الله ورسوله ممن يتعصب لواحد معين غير النبي ﷺ، كمن يتعصب لمالك أو الشافعي أو أحمد أو أبي حنيفة، ويرى أن قول هذا المعين هو الصواب، الذي ينبغي اتباعه، دون قول الإمام الذي خالفه، فمن فعل هذا كان جاهلاً ضالاً، بل قد يكون كافراً، فإنه متى اعتقد أنه يجب على الناس اتباع واحد بعينه، من هؤلاء الأئمة، دون الإمام الآخر، فإنه يجب أن يستتاب، فإن تاب، وإلا قتل، بل غاية ما يقال: إنه يسوغ أو ينبغي أو يجب على العامي أن يقلد واحداً لا بعينه من غير تعيين زيد ولا عمرو».أ.هـ.

ولا شك أن هذا المعنى الذي ذكره شيخ الإسلام ينطبق على من نسب نفسه لأحد الأئمة، ثم ألزم نفسه باتباعه في كل ما يقول.

---

(١) أحمد والترمذي، وانظر صحيح الجامع: (٢/ ٨٣١).

(٢) مجموع فتاوى ابن تيمية: (٢٢/ ٢٤٨-٢٤٩).

٥- تحريم أخذ العهد لإنسان أو لجماعة على الطاعة في كل ما يقوله:

إن هذا الباب يتعلق بسابقه، فكما أنه لا يجوز التزام عالم بعينه في كل اجتهاد فكذلك لا يجوز أخذ العهد على الطاعة والالتزام لا لعالم ولا لجماعة في اجتهاداتها، يكون فيها الاجتهاد سائغاً، وأن هذا العهد لا يكون إلا لإمام الأمة، ولا يكون إ الاجتهادات التي تتعلق بمصالح الأمة العامة، أما اجتهادات الإمام في المسائل الفقه واختياره لها، فلا يلزم ذلك أحد. أما العهد على التعاون على الأمر بالمعروف والنهي المنكر، فهذا جائز قطعاً. والمقصود هنا هو العهد على الطاعة في المسائل الاجتهادية، غير الاجتهادية من المسائل المنصوصة والمعروفة فهذا أمر آخر.

يقول شيخ الإسلام[1]: «وليس لأحد منهم أن يأخذ على أحد عهداً بموافقته على كل يريده، وموالاة من يواليه، ومعاداة من يعاديه، بل من فعل هذا كان من جنس جنكيزخ وأمثاله، الذين يجعلون من وافقهم صديقاً ولياً، ومن خالفهم عدواً باغياً. بل عليه وعلى أتباعهم، عهد الله ورسوله، بأن يطيعوا الله ورسوله» أ.هـ.

ويقول[2] في التعصب الحزبي: «وأما رأس الحزب، فإنه رأس الطائفة التي تتحزب، تصير حزباً، فإن كانوا مجتمعين على ما أمر الله به ورسوله، من غير زيادة ولا نقصان، ا مؤمنون، لهم ما لهم، وعليهم ما عليهم.

وإن كانوا قد زادوا في ذلك ونقصوا، مثل التعصب لمن دخل في حزبهم بالحق والباط والإعراض عمن لم يدخل في حزبهم، سواء على الحق والباطل، فهذا من التفرق الذي ا الله ورسوله، فإن الله ورسوله أمرا بالجماعة والائتلاف، ونهيا عن التفرقة والاختلا وأمرا بالتعاون على البر والتقوى، ونهيا عن التعاون على الإثم والعدوان.

---

(١) مجموع فتاوى ابن تيمية: (٢٨/ ١٦).

(٢) مجموع فتاوى ابن تيمية: (١١/ ٩٢).

وفي الصحيحين عن النبي ﷺ: أنه قال: (مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم كمثل الجسد، إذا اشتكى منه عضو، تداعى له سائر الجسد بالحمى والسهر)[1]، وفي الصحيحين عنه ﷺ أنه قال: (المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً) وشبك بين أصابعه[2]. وفي الصحيح أنه قال: (المسلم أخو المسلم، لا يسلمه، ولا يخذله))[3].أ.هـ.

ومن الملاحظ أن إيراد ابن تيمية لهذه الأحاديث إنما لإثبات فساد التعصب الحزبي، الذي ينافي الأخوة الإيمانية الإسلامية، التي تجب لكل المسلمين دون تمييز.

القسم الثاني

عرض ونقد لبعض كتب الخلاف المعاصرة

أولاً – كتاب: أسباب اختلاف الفقهاء

تأليف: د. عبدالله بن عبدالمحسن التركي[4].

المسائل المهمة المعروضة:

١- بين المؤلف أن الاختلاف ظاهرة طبيعية بشرية. (ص: ٩)

٢- بين بعض مسائل الخلاف التي وقعت بين الصحابة (ص: ١٠-١٢).

٣- بين أسباب الاختلاف عند الصحابة وهي: (ص: ١٣- ٢٢).

---

(١) متفق عليه.

(٢) متفق عليه.

(٣) متفق عليه بلفظ: ((لا يظلمه ولا يسلمه)) من حديث ابن عمر.

(٤) الناشر: مكتبة الرياض الحديثة، الطبع والطبعة: ط٢/ ١٩٧٧، عدد الصفحات: (٢٣٩). حجم: (١٧×٢٤).

أ- الاختلاف في السنة وثبوتها.

ب- الفهم عند التطبيق.

ج- الرأي فيما لا نص فيه.

٤- بين أموراً مهمة تتعلق بالخلاف: (ص: ٣٦)

أ- إن أصول الشريعة وأركانها لا خلاف فيها في الجملة عند ه يعتد بقوله.

ب- إن الحق واحد، ومصيبه واحد، والمخطئ بعد الاجته معذور مأجور.

ج- إن المختلفين، إذا وضح لهم الحق من كتاب وسنة، يجـ عليهم الرجوع إليهما، وترك آرائهم.

د- إن الخلاف في أنظار المجتهدين موجود.

هـ- إن اجتماع المسلمين، وتوحيد كلمتهم، وتقاربهـ وتعاونهم، أمر حث عليه الإسلام.

٥- بين أن الخلاف لا يعتد به كدليل شرعي (ص: ٣٧-٣٩)

٦- بين خطر التعصب. (ص: ٤٠- ٤٢)

٧- بين الآثار السيئة للاختلاف: (ص: ٤٤- ٤٦)

أ- جهل كثير من الناس بالأمر المشروع.

ب- البغي.

ج- الهوى واتباع الظن.

د- التفرق.

هـ- الريب في كثير مما اتفق عليه أهل السنة.

٨- بين أسباب الخلاف: (ص: ٤٩-١٩٣)

أ- في المبادئ الفقهية (ص: ٤٩-٧٠)

ب- في أدلة الأحكام: الكتاب، والسنة، والإجماع، والقياس، وقول الصحابي، وشرع من قبلنا، والاستحسان، والمصالح المرسلة، والاستصحاب (ص: ٧٠-١٣٧)

ج- في دلالة النصوص: مثل العموم والخصوص والإطلاق والتقييد وغيرها. (ص: ١٤١-١٩٣)

٩- بين كيف كان رسول الله ﷺ يعامل المخطئين من المجتهدين من الصحابة، وما في معاملته لهم من الود والألفة. ثم حض المسلمين على عدم العدول عن الحجة الظاهرة بالدليل الشرعي إلى قول عالم. وبين أن تطرق الخطأ إلى آراء العلماء أكثر من تطرقه إلى الأدلة الشرعية (٢٢٣-٢٢٧)

التعليق:

١- ذكر الشيخ التركي في النقطعة ٤ مسائل غاية في الدقة والأهمية، ولكن يؤخذ عليه أنه أجملها جميعاً في نصف صفحة، في حين أن كل مسألة منها ينبغي أن تكون فصلاً، أو موضوعاً مستوفياً لمقوماته، من حيث إثبات ذلك بالأدلة الشرعية، وأقوال أهل العلم، وربطها بموضوع الخلاف. وكذلك يقال بالنسبة للنقطتين (٥) و (٦). وهنا أقول: إنه قد يعتذر للشيخ بأن بحثه خارج عن هذا التفصيل.

٢- ذكر أسباب الخلاف وفصلها في نحو (١٤٠) صفحة؛ أي ثلثي الكتاب، ولكنه

وقف عند تلك الأسباب، ولم يخضعها إلى الترجيح إلا نادراً. وهذا الوقـوف غـير مناسـ
حيث إن مجرد اختيار الفقهاء لقاعدة أصولية، أو فقهية، لا يبرر الخلاف السائغ، بـل ي
أن يخضع لمقياس الأدلة الشرعية، من حيث الصواب أو الخطأ، إلا إذا تعذر ذلك، أو
الترجيح. ويشار في ذلك إلى القاعدة الصحيحة التي اختارها الشيخ في: أن المصيب وا

٣- من الواضح أن الشيخ نبه إلى مسائل دقيقة، قـل التنبيـه عليهـا مـن قبـل كثـير
الذين كتبوا في الخلاف، كما مر في الملاحظة رقـم (١)، وكذلـك في آخـر الكتـاب،
ذكر أن تطرق الخطأ إلى آراء العلماء أكثر من تطرقه إلى الأدلة الشـرعية. وهـذه الأ
نبه عليها شيخ الإسلام ابن تيمية، في أكثر من موضع، كما سبق بيانه (النقطة: ٥).

٤- من الملاحظات المهمة أن الشيخ لم يحدد بوضوح نوع الخلاف السائغ، الذي هو
الحقيقة أهم موضوع في البحث. والله أعلم.

ثانيا: كتاب: دراسات في الاختلافات الفقهية

تأليف: د. محمد أبو الفتح البيانوني[1]

المسائل المهمة المعروضة:

١- بين الكاتب أن حقيقة الاختلافات هي ثمرات متعددة لشجرة الكتاب والسنة،
الاختلاف في الاجتهاد هو من الاختلاف المحمود، الذي انتفعت به الأمة. (ص: ١٦-

٢- بين أن سبب نشوء الاختلاف هو: (ص: ٢١-٣٠)

أ- احتمال النصوص الشرعية.

(١) الناشر: مكتبة الهدى، الطبعة وسنة الطبع: (ط١/ ١٩٧٥)، عدد الصفحات: (١٧٠)، حجم: (١٧×٢٤).

ب- اختلاف المدارك والأفهام.

٣- فصل في أسباب الاختلافات الفقهية: (ص: ٣١-٨٩).

أ- الاختلاف في ثبوت النص من عدمه.

ب- الاختلاف في فهم النص.

ج- الاختلاف في طرق الجمع والترجيح بين النصوص المتعارضة.

د- الاختلاف في القواعد الأصولية، وبعض مصادر الاستنباط.

٤- بين مواقف العلماء من الاختلاف اعتماداً على كلام ابن عبد البر في «جامع بيان العلم وفضله» وبين أن هناك موقفين هما: (ص: ٩٣-١٠٢)

أ- الاختلاف رحمة. وجائز لمن نظر في أقوال المختلفين أن يأخذ بقول من شاء، إذا لم يعلم أنه خطأ، وذكر أن هذا المعنى مروي عن عمر بن عبدالعزيز، والقاسم بن محمد، وسفيان الثوري.

ب- أن الاختلاف، إذا تدافع، فهو خطأ وصواب، والواجب عند الاختلاف طلب الدليل من الكتاب، والسنة، والإجماع، والقياس، وذكر أن هذا المعنى مروي عن مالك والليث.

ثم رجح الكاتب حمل معنى «الاختلاف رحمة» على توسيع الاجتهاد وفتحه، وأن هذا المعنى لا يتعارض مع من قال: «المصيب واحد».

٥- بين مسألة الإنكار في المسائل الخلافية، ورجح أنه لا ينكر في المسائل الخلافية، إلا إذا كانت في واحد من الحالات الآتية: (ص:١٠٣-١١٨).

أ- ما كان الاختلاف فيه تاريخياً، ولا يصح استمراره، مثل: ر
الفضل، ونكاح المتعة.

ب- ما كان الخلاف فيه ضعيفاً، وهو قسمان:

١- ما اشتد ضعفه، فينكر.

٢- ما ليس كذلك، فلا ينكر إلا على سبيل النصيحة.

٦- بين نماذج من أدب الخلاف: (ص: ١١٩-١٣٤).

٧- بين موقف المسلم من الاختلافات الفقهية، وصنفه بحسبه كالآتي: (ص:١٣٥-١٥٠).

أ- العالم لا بد له أن يجتهد ويرجح.

ب- العامي يجب عليه التقليد.

ج- المتعلم بحسبه، فقد يكون من أهل الاجتهاد في بعـ
المسائل، فله أن ينظر ويرجح، وقد يقصر عن ذلك، فيجب
يقلد.

٨- ذكر مواقف شاذة: (ص: ١٥١-١٥٧).

أ- إفراط: مثل التعصب المذهبي.

ب- تفريط: اعتبار الخلاف العلمي من الخلاف المذموم، وكذلك اعتبار المقلد تار
للكتاب والسنة، وكذلك الطعن في المذاهب الفقهية، وكذلك تجميع زلات العلماء.

التعليق:

١- قرر الكاتب أن حقيقة الاختلافات هي ثمرات متعددة، لشجرة الكتاب والسنة،

النقطة (١)، وهذا التقرير فيه نظر من جهة نفس الأمر؛ إذ الراجح في الاختلاف أن المصيب واحد، كما يقرره الكاتب نفسه في النقطة رقم (٤)، ثم من جهة أخرى فإن الاختلاف غير مطلوب، وإن كان سائغاً، في حين أن تشبيهه بالثمرات يبتعد عن هذا المعنى، حيث إن الثمرات أمر مطلوب محبوب، ويسعى إليه.

٢- في النقطة رقم (٣) نعيد الملاحظة التي ذكرناها على الشيخ التركي، من الوقوف عند أسباب الاختلافات الفقهية والأصولية، وعدم إخضاعها للترجيح.

٣- في النقطة (٤) تكلف الكاتب في الجمع بين المذهبين، في حمل معنى «الاختلاف رحمة» على توسيع الاجتهاد وفتحه، وأن هذا لا يتعارض مع من قال: «المصيب واحد».

وهذا الجمع فيه تكلف ظاهر؛ فإن من استساغ الأخذ بقول من شاء، إذا لم يعلم أنه خطأ – بغض النظر عن المستوى العلمي لهذا الآخذ، لا يمكن أن ينسجم مع القول إن «المصيب واحد».

٤- ما ذكره الكاتب في النقطة (٥) دقيق ونافع جداً، حيث حدد مراتب الخلاف بدقة، وأعطى كل مرتبة ما ينسجم معها من التعامل.

٥- في النقطة (٥) أوجب التقليد مطلقاً على العامي، وفي إيجابه مطلقا نظر؛ فإنه إذا قصد عالماً بعينه، يقلده في كل ما يقول، دون غيره، فهذا خطأ فاحش، كما نص عليه الأئمة، بما لا يناسب تفصيله الآن وسبق الإشارة إليه. وأما إذا لم يقصد عالما معيناً، فإنه يجب عليه التقليد، إذا لم يتبين له الحق عند غيره من العلماء، وأما إذا تبين، فيجب العدول إلى هذا الغير، ويجب هنا القول إن العامي لا يعدم كل آلات التمييز والترجيح، وإلا لما كان مكلفاً، وخصوصاً في غير المسائل الدقيقة، هذا من جهة، ومن جهة أخرى، فإن العالم الذي يسمى عالماً عند كثير من الناس، ويقعد مقعد المقلد قد لا يكون عالماً في نفس الأمر، وخصوصاً في وقتنا الحاضر، فإذا جمعنا هذين الأمرين تبين لنا وجه الاعتراض على الكاتب

بشكل أكثر وضوحاً.

٦- مع أن الكاتب ضمن بحثه الكلام عن الخلاف السائغ إلا أنه لم يحدده بوضوح.

ثالثا: كتاب: أدب الأختلاف في الإسلام

تأليف: د. طه جابر العلواني[١].

المسائل المهمة المعروضة:

١- بين الكاتب أن الخلاف والاختلاف يراد به مطلق المغايرة في القول، أو الرأي، أ الحالة، أو الهيئة، أو الموقف (ص:٢٣)

٢- بين أن الاختلاف الواقع في سلف الأمة وخلفها هو جزء من ظاهرة طبيعية، وأن إذا لم يتجاوز حدوده والتزم آدابه كان ظاهرة إيجابية. (ص:٢٦).

٣- بين فوائد الخلاف الملتزم كالآتي: (ص: ٢٧).

أ- يتيح تعر ف جميع الاحتمالات، التي يمكن أن يكون الدليل رمى إليها.

ب- أنه رياضة للأذهان وفتح مجال التفكير.

ج- تعدد الحلول لكل واقعة.

٤- بين أقسام الاختلاف من حيث الدوافع كالتالي: (ص: ٢٨-٣١).

أ- خلاف أملاه هوى.

---

(١) الناشر: رئاسة المحاكم الشرعية بدولة قطر، الطبعة وسنة الطبع: (ط١/ ١٩٨٥). عدد الصفحات: (١٧٠) الحجم: (٥×٢٠).

ب- خلاف أملاه حق .

ج- خلاف يتردد بين الهوى والحق .

٥- بين رأي العلماء في الاختلاف، وتحذيرهم منه، بكل أنواعه. ولكنه أنهى كلامه مستدلاً بأن نبي الله هارون عليه السلام عد الاختلاف أكبر خطراً، وأشد ضرراً، من عبادة الأوثان، حين صنع السامري لقومه عجلاً من الذهب، فالتزم جانب الصمت، منتظراً أخاه موسى عليه السلام، خشية الفرقة. (ص: ٣٢- ٣٣).

٦- بين تأريخ الاختلاف. (ص: ٣٥-٣٨).

٧- بين الاختلاف في فهم النصوص، وضوابط التأويل كالآتي: (ص:٣٨- ٤٤)

أ- ألا يرفع التأويل ظاهر المعنى المفهوم من اللفظ.

ب- ألا يناقض نصاً قرآنياً.

ج- ألا يخالف قاعدة شرعية مجمعاً عليها.

د- وجوب مراعاة الغرض الذي سبق النص.

٨- بين معالم أدب الخلاف بين الصحابة، وأمثلته والتزامه بآداب النبوة مع الاختلاف (ص: ٥٠- ٧١).

٩- حدد سمات ذلك الاختلاف كالآتي: (ص: ٧٢-٧٣).

أ- كانوا يتحاشون الاختلاف ما أمكنهم ذلك.

ب- إن وجد مسوغ للاختلاف فإنهم كانوا وقافين عند حدوده، ويرى كل منهم أنه على صواب يتحمل الخطأ، والآخر على خطأ يحتمل الصواب.

ج- كانت الأخوة بينهم أصلاًمن أصول الإسلام مع الاخ

د-لم تكن المسائل الاعتقادية مما يجري فيه الخلاف.

هـ- كانت نظرتهم إلى استدراكات بعضهم على بعض معونة، يقدمها المستدرك منهم لأخيه، وليست عيباً أو نقداً.

١٠- بين الخلاف في عهد التابعين وآدابه وأمثلته. (ص: ٧٣-٧٧).

١١- بين اختلاف مناهج الأئمة في الاستنباط. (ص: ٨٩-١٠١).

١٢- بين أسباب الاختلاف وتطوره كالآتي: (ص: ١٠٣-١١٦).

أ- أسباب تعود إلى اللغة.

ب- أسباب تعود إلى رواية النص.

ج- أسباب تعود إلى القواعد الأصولية، وضوابط الاستنبا

١٣- بين نماذج أدب الخلاف بين الأئمة. (ص: ١١٧-١٣٦).

١٤- تكلم عن التقليد وخطره. (ص: ١٤٥-١٤٧).

١٥- بين سبيل النجاة كالآتي: (ص:١١٥-١٥٨).

أ- تهيئة أسباب وجود علماء، يجمعون بين العلم والة الحسنة، وإدراك مقاصد الإسلام.

ب- تعديل مسار الفكر لدى المسلمين، بحيث تعالج ا الفكرية، التي يعيشها المسلمون اليوم.

١٦- ختم بأن هذين الهدفين لا يتحققان إلا بأمور (ص: ١٥٩-١٨٦).

أ- أخذ العلم الشرعي من أبوابه وأصوله وفصوله، التي ف

أهل العلم.

ب- أن الشريعة جاءت لسعادة البشرية في الدارين، وأنها سمحاء، وتتضمن مصالح العباد، ولا بد من إدراك أن النصوص الشرعية منها ما هو قطعي الثبوت والدلالة، ومنها ما هو ظني الثبوت والدلالة، وبالتالي تتسع للاختلاف.

ج- أن الاخوة الإسلامية، ووحدة المسلمين، من أهم الواجبات.

د- تفاوت مراتب العبادات والطاعات، وتفاوت منازل المؤمنين حسب ذلك، وعلى المسلم أن يطمح دوماً إلى أعلى الدرجات.

هـ- معرفة أسباب الاختلاف.

و- معرفة المخاطر الهائلة، والتحديات الخطيرة، التي تحيط بالأمة.

ز- تقوى الله في السر والعلن، وفي الوفاق والخلاف.

التعليق:

١- في النقطة (٤) لم يحدد الشيخ بوضوح الخلاف الذي يتردد بين الهوى والحق، وهو في الحقيقة أهم موضوع في البحث، فكان ينبغي تفصيله وتحديده.

٢- في النقطة (٥) استدل في كلامه على التحذير من الخلاف، بأن نبي الله هارون عليه السلام عد الاختلاف أكبر خطراً وأشد ضرراً من عبادة الأوثان، حين صنع السامري لقومه عجلاً من الذهب، فالتزم جانب الصمت، منتظراً أخاه موسى عليه السلام، خشية الفرقة. وفي هذا الاستدلال خطأ؛ حيث إن هارون عليه السلام، نهاهم عن ذلك قبل مجيء موسى عليه السلام فهولم يقارنه مع الفرقة، من حيث تحمل عبادة الأوثان على الفرقة، بل نهاهم إبتداءاً، كما قال تعالى: ﴿ولقد قال لهم هارون من قبل يا قوم إنما فتنتم به وإن

ربكم الرحمن فاتبعوني وأطيعوا أمري قالوا لن نبرح عليه عاكفين حتى يرجع إلينا موس
قال يا هارون ما منعك إذ رأيتهم ضلوا ألا تتبعن أفعصيت أمري، قال يا ابن أم لا تأ
بلحيتي ولا برأسي إني خشيت أن تقول فرقت بين بني إسرائيل ولم ترقب قولي
[طه: ٩٤]. قال ابن كثير في قوله تعالى: ﴿ما منعك إذ رأيتهم ضلوا ألا تتبعن﴾ [طه: ٩٢
٩٣]: أي فتخبرني بهذا الأمر أول ما وقع.

٣- ذكر الشيخ ضوابط التأويل في النقطة (٧)، وهي ضوابط دقيقة وفاعلة في ضب
الخلاف.

٤- ذكر في النقطة (٩) سمات الاختلاف بين الصحابة بدقة متناهية، داعياً إلى التزام
لينحسر الخلاف المذموم، ولكنه أجملها في صفحة واحدة، وكان الأنسب أن يفصل في
تفصيلاً يشفي الغليل.

٥- عند ذكر أسباب الخلاف في النقطة (١٢) وقف عند تلك الأسباب ولم يخضعها
الترجيح.

٦- في النقطتين (٥) و (١٦) بين سبيل النجاة بأمور جادة وهامة، وخصوصاً فيـ
يتعلق بالاهتمام بدراسة الشريعة على وجه التفصيل، والإعداد؛ إذ لا نجاة إلا بالرجوع
الشريعة كاملة صافية من الفساد والجهل، ومن ثم أخذها بقوة، بتهيئة المعاهد والجامعات
إذ إن شيوع الشرع الصحيح يحسر الفساد الفكري، وبالتالي يضبط الخلاف.

رابعا: كتاب: الخلاف في الشريعة الإسلامية

تأليف: د. عبدالكريم زيدان[1].

(١) الناشر مؤسسة الرسالة، الطبعة وسنة الطبع: (ط٢/ ١٩٨٨)، عدد الصفحات: (٢٦)، الحجم: (١١×١٨).

المسائل المهمة المعروضة:

١- ابتدأ بتأكيد أمر الله تعالى للأمة بالاجتماع والائتلاف، ونهيه عن التفرق والاختلاف، مستشهداً بكلام شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله. (ص: ٥).

٢- بين معنى الاختلاف والخلاف، وأنهما بمعنى واحد، وهو ما لا يتفق عليه الفقهاء في مسائل الاجتهاد.

٣- بين وقوع الخلاف، وأنه من الطبيعة البشرية، وأنه لا بد منه. (ص: ٩-١٤)

٤- بين أنواع الخلاف كالآتي: (ص:١٤-٢١).

أ- مذموم، وأهله مذمومون.

ب- ممدوح، وأهله ممدوحون.

ج- سائغ، وأهله مأجورون.

وبين أن الخلاف المذموم مثل خلاف الكفار للمؤمنين، ومثل خلاف أهل الأهواء والبدع، مثل الخوارج لأهل السنة، ومثل أهل التعصب المذهبي، ومثل المبالغة في الإنكار على أهل التعصب المذهبي.

ومثل للخلاف الممدوح بمخالفة المسلمين للمشركين.

ومثل للخلاف السائغ المقبول باختلاف المجتهدين من فقهاء ومفتين في المسائل الاجتهادية، وهي التي لا يوجد فيها نص قطعي.

٥- بين شروط الاختلاف السائغ كالآتي: (ص: ٢١).

أ- أن يصدر من أهل العلم.

ب- أن يكون الخلاف في المسائل الفرعية، التي يسوغ الاجتهاد فيها، والتي لا يوجد فيها دليل قطعي على حكمها؛ لأنه لا مساغ في معرض النص.

ج- أن يكون قصد المجتهدين الوصول إلى الحق.

د- أن يبذل المجتهدون أقصى جهد مستطاع؛ للوصول إلى الحق.

هـ- أن لا يؤدي الاختلاف إلى التفرق والتقاطع.

٦- بين أنه لا يجب الحرص على الخلاف السائغ، لكن إذا وقع فلا غرابة منه.(ص: ٢٢).

٧- بين الكلام في «هل الاختلاف رحمة»، ورجح أن الحديث المروي في ذلك ضعيف، وعلى فرض صحته، فإنه يحمل على الاختلاف السائغ.(ص:٢٣-٢٥).

٨- بين مسألة الصواب والخطأ في أقوال المجتهدين، ورجح أن المصيب واحد، كما هو مذهب الجمهور، وأن المصيب له أجران، والمخطئ له أجر (ص:٢٥-٢٨).

٩- بين أسباب الاختلاف كالآتي: (ص: ٢٨-٣٢).

أ- البغي.

ب- الهوى.

ج- الجهل.

١٠- بين أسباب الاختلاف السائغ المقبول كالآتي: (ص:٣٢-٣٥).

أ- الاختلاف في قواعد تفسير النصوص (الكتاب والسنة).

ب- وصول الحديث لبعض، وعدم وصوله للبعض الآخر.

ج- الاختلاف في الدلالة والمقصود.

د- الاختلاف في مدى حجية بعض المصادر الفقهية، مثل القياس وغيره.

التعليق:

١- في النقطة (١) بين ابتداء أن الاختلاف غير مطلوب، وهذا توكيد مهم لحسر الخلاف وتحديده.

٢- في النقطتين (٤) و (٥) بين الخلاف السائغ وحدده في المسائل الاجتهادية، التي لا يوجد فيها نص قطعي.

وفي هذا التحديد نظر إذا ما اعتبرنا القطعي في مقابل الظني، الذي يقصد به غلبة الظن، ومن المعلوم أن معظم الشريعة مبناها على هذا الظن الغالب الذي يتم تحديده باعتبارات شرعية دقيقة معروفة، فمخالفة هذا الظن الغالب بظن دونه لا يمكن أن يكون سائغاً، ولقال من شاء ما شاء؛ وذلك لكثرة الروايات بمختلف درجات الصحة والضعف، وكذلك كثرة الاحتمالات على مختلف الدرجات الخاصة بهذه الاحتمالات، فإن مجرد احتمال النص بدرجة، أو بأخرى، لمعنى آخر لا يسوغ الخلاف، وفي هذا يقول الله تعالى: ﴿هو الذي أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هن أم الكتاب وأخر متشابهات، فأما الذين في قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله، وما يعلم تأويله إلا الله والراسخون في العلم يقولون آمنا به كل من عند ربنا وما يذكر إلا أولوا الألباب﴾ [آل عمران:٧].

ومن جهة أخرى ينبغي ملاحظة أن السائغ وغير السائغ لا يكون إلا غير سائغ بعد البيان وظهور الصواب من الخطأ بالأدلة الشرعية، سواء قيل إنها قطعية أو ظنية.

أما تفصيله لشروط الخلاف السائغ، فإنه تفصيل دقيق وفاعل، ولكن يؤخذ عليه

أنه أجمله في صفحة واحدة، في حين أن أهمية هذا التفصيل في البحث تقتضي التفصيـ
وكذلك يمكن القول بالنسبة للنقاط (٦) و (٧) و (٨).

٣- في النقطة (١٠) وقف أيضاً على أسباب الخلاف،ولم يخضعها، أو يذكر إخضاع للصواب والخطأ، مع أنه أكد في النقطة (٨) أن المصيب واحد.

خامساً - كتاب: أدب الخلاف

المؤلف: صالح بن عبدالله بن حميد[1].

المسائل المهمة المعروضة:

١- وصف المؤلف حال الأمة بالتفرق والاختلاف، ودعا أهل العلم المختلفين إلى عـ التعصب، وإلى حسن الأدب في الجدل والمناظرة، والتميز بين الأولويا (ص: ٦- ٨)

٢- ذكر تعريف الجرجاني للخلاف: منازعة تجري بين المتعارضين لتحقيق حق لإبطال باطل.(ص:٩).

٣- بين أن وقوع الخلاف أمر مُسَلّمْ. (ص:١٠).

٤- ذكر أنواع الخلاف على نفس النحو الذي بينه الدكتور عبدالكريم زيدان من د ذكر شروط الخلاف السائغ (ص:١٠-١٤).

٥- ذكر نماذج من اختلاف الصحابة ثم التابعين وأتباعهم (ص:١٤-٣١).

٦- نبه إلى أهمية التفريق بين مدونات الفقه على المذاهب وكتب الفتاوى وبين

---

(١) الناشر: مكتبة الضياء، الطبعة وسنة الطبع: (ط١/ ١٩٩١)، الصفحات: (٤٦)، الحجم: (١٢×١٧).

كتب الفتاوى يستحضر المفتي فيها وقوفه بين يدي الله عز وجل، فيقول فتواه وإن خالفت المذهب (ص: ٣١-٣٢)

٧- وافق ما نقله عن ابن قدامة في كتاب «الروضة في أصول الفقه» من أن للمفتي إذا استفتي، وكانت فتواه ليست فيها سعة للمستفتي، فله أن يحيله إلى من عنده سعة. (ص: ٣٢).

٨- بين ضرورة الابتعاد عن المراء والجدل، الذي لا نفع فيه (ص: ٣٤).

٩- بين أن الإنكار لا يكون فيما لا سنة ولا إجماع فيه، وللاجتهاد فيه مساغ. (ص: ٣٧).

١٠- ذكر قول مالك والليث في اختلاف أصحاب رسول الله ﷺ: إنما هو خطأ وصواب، ورجح أن اختلاف الصحابة يدل على أنه اختلاف سائغ لا اعتراض عليه.

١١- ذكر مواقف الإفراط: مثل التعصب، ووضع الأحاديث لنصرة المذهب.

وذكر مواقف التفريط: مثل الاختلاف المذكور في كتب الفقه المقارن، وهو خلاف مذموم، ومثل النظر إلى العامي المقلد، على أنه تارك لكتاب الله وسنة رسوله ﷺ، ومثل الغلو في الإنكار على أهل المذاهب، وتتبع زلات العلماء. (ص: ٤٠-٤٢).

١٢- ختم الكتاب بذكر مبادئ وآداب تجب مراعاتها عند الخلاف وهي كالآتي:

أولا: الإخلاص وقصد الحق.

ثانيا: تحاشي الخلاف قدر الإمكان.

ثم ذكر أن ذلك يتم بالأمور التالية:

أ- حسن الظن بطلبة العلم، والتماس العذر لهم.

ب- اتهام النفس عند موطن الخلاف.

ج- رحابة الصدر.

د- البعد عن مسائل الفتنة.

هـ- التزام الآداب الإسلامية في انتقاء أطيب الكلام، والبعد عن الكلما
الجارحة(ص: ٤٢-٤٥).

التعليق:

١- أكد الكاتب في النقطة (١) على عدم التعصب والتميز بين الأولويات، وهـ
مسألة غاية في الأهمية، فيما يتعلق بالخلاف، فضلاًعن غيره.

٢- في النقطة (٤) بين أنواع الخلاف، وحدد السائغ منه، بأنه اختلاف المجتهدين ه
فقهاء ومفتين في المسائل الاجتهادية. وفي هذا التحديد إجمال ينبغي تفصيله؛ حيث
اختلاف الفقهاء منه ما هو سائغ، ومنه ما ليس كذلك، وسبق بيانه.

٣- في النقطة (٦) نبه إلى أهمية التفريق بين مدونات الفقه المذهبية وكتب الفتاوى،
جهة استحضار المفتي وقوفه بين يدي الله عز وجل. وفي الواقع فإن هذا التفريق غير ،
أهمية؛ لأن المشكلة الأساسية ليست في مجرد استحضار المفتي نفسه بين يدي الله، بل
الفهم الصحيح لأصول الشريعة وفروعها، حيث إننا نفترض أصلاًوجود مثل هـ
الاستحضار عند مؤلفي المدونات أيضا .

٤- في النقطة (٧) وافق ما نقله عن ابن قدامة، من أن للمفتي، إذا استفتي، وكا
فتواه ليست فيها سعة للمستفتي، فله أن يحيله إلى من عنده سعة. أقول: هذا القول ظـ
الفساد على جلالة قدر ابن قدامة رحمه الله، إن صح اختياره لذلك؛ لأن المفتي والمجتهد
يتكلم بما يغلب عنده أنه حكم الله، فكيف يعدل عنه إلى ما لا يظنه كذلك. وفي هـ

القول أيضا حيلة إلى جمع كل ما قيل في الرخص، التي من تتبعها وجمعها فقد جمع الشر كله، كما نقل شيخ الإسلام في «الاستقامة» قول الأوزاعي: «من أخذ بقول أهل الكوفة في النبيذ، وبقول أهل مكة في المتعة والصرف (يعني ربا الفضل)، وبقول أهل المدينة في الغناء، فقد جمع الشر كله»[1] أ.هـ.

٥- في النقطة (١٢) ذكر مبادئ وآداب تجب مراعاتها عند الخلاف، وهي مبادئ دقيقة ومهمة، وخصوصاً الأولى منها، وهي الإخلاص، وقصد الحق، ثم حسن الظن، والتماس العذر، ورحابة الصدر، وهذه من أنفع الآداب التي تجعل الخلاف نافعاً.

أما مسألة اتهام النفس عند موطن الخلاف، ففيها نظر، حيث إن الخلاف لا يقدم عليه أصلاً إلا إذا ترجح عنده صحة وصواب ما يذهب إليه من أنه حكم الله تعالى، أما إذا لم يحصل ذلك، فلا إقدام على الخلاف.

ثم إن الكاتب ذكر مسألة البعد عن مسائل الفتنة، وتحاشي الخلاف ما أمكن، وهذه مسألة مهمة، حيث إن الخلاف لا يقدم عليه إلا إذا كان هناك ثمرة منه، أما إذا علم أنه لا نفع فيه، بل فتنة ومراء، فلا ينبغي الإقدام عليه.

ومما ينبغي معرفته أن مفهوم الفتنة وتحديدها يجب أن يناط بأهل العلم تماما، مثل مسألة المصلحة والمفسدة، فلا ينبغي أن تخضع للمزاج والهوى، بل يكون ذلك حسب الضوابط الشرعية.

(١) الإستقامة: (١/ ٢٧٤).

سادسا – كتاب: فقه الخلاف

تأليف: جمال سلطان[1].

المسائل المهمة المعروضة

١- بين أن الاختلاف هو آفة الأمة الإسلامية المعاصرة، وأن المشكلة الأساسية تكمن في الجانب الأخلاقي لهذه المشكلة، وإنما في الجانب الحركي، وبهذا لا يكفي أدب الخلاف، وإنما فقه الخلاف. (ص: ٥).

٢- بين الكاتب أن الاختلاف سنة من سنن الله، فهو ليس جميلا بإطلاق، وا ذميماً بإطلاق. (ص:٩).

٣- تكلم عن سنة التباين والاختلاف بين الإنسان والإنسان، وأن ذلك آية من آيات الله تعالى (ص:١١-١٣).

٤- أكد الكاتب أن علماء المسلمين، على حد علمه، ناقشوا وحللوا أسباب الاختلاف إلى أسباب موضوعية، ولكنهم لم يقفوا عند سر اختلاف تفكير الإنسان مع الإنسان الآخر، ولو مع تشابه كل الظروف المحيطة بهما. ثم رجح الكاتب أنه سر غامض في الإنسان يُعمله الله تعالى في الإنسان في لحظة يقدرها الله تعالى. (ص:١٤-١٦).

٥- بين الكاتب أن الشريعة لم تهتم عند الاختلاف والمراء ببيان الصواب من الخطأ

---

(١) الناشر: مركز الدراسات الإسلامية الطبعة وسنة الطبع: (ط١/ ١٩٩٢). عدد الصفحات: (٩٥). حجم (١٧×٢٤).

وإنما قطع الاختلاف، وأن من ترك المراء، وهو محق، بنى الله له بيتاً في الجنة، كما أخبر رسول الله ﷺ (ص: ١٩-٢١).

٦- بين الكاتب أن المطلوب هو اتفاق الموقف العملي، ولو اختلف الموقف الفكري، واستدل بعدم الخروج عن السلطان إلا عند الكفر البواح الذي لا شبهة فيه، وكذلك مسألة الشورى، ورأي الأغلبية الحاسم. (ص:٢٢-٢٧).

٧- قسم الخلاف إلى قسمين: خلاف محمود، وهو التخصيبي، وهو الاجتهاد العقلي الجاد، والخلاف المذموم، وهو الخلاف التفريقي، وهو الذي يتعدى نطاق الموقف الفكري ليتشخص في صورة موقف عملي، يلزم الآخرين باتباعه، سواء كان صواباً أو خطأ في نفسه. وبين أن التعددية المذهبية للفقه الإسلامي هي من النوع التخصيبي المحمود (ص:٢٨-٢٩).

٨- بين الكاتب أن كثيراً من أبواب الفقه والعبادات تتسع لاختلاف الموقف الحركي، بينما هناك أبواب كأحكام القتل، لا تتسع إلا لموقف حركي واحد، وإن تعددت المواقف الفكرية (ص:٢٩-٣٠).

٩- بين أن هناك حقيقة شرعية وتاريخية، من لا يعرفها، فهو لا يعرف شيئاً من التأريخ الإسلامي، فضلاً عن مقاصد الإسلام، وهي أن هناك أموراً لا بد فيها من حسم الخلاف الفكري عملياً، وفق موقف سلوكي واحد، وعلى باقي الآراء أن تطيع عملياً مع احتفاظها بحقها في الخلاف النظري: (ص:٣٠-٣١).

١٠- بين الكاتب أنه ليس المهم المحافظة على الوحدة الفكرية، بل المهم الحفاظ على الوحدة التنظيمية. (ص:٣١).

١١- بين أن مهمة القيادة ليس في إلغاء الفكر، أو مصادرة الخلاف، وإنما مهمة القيادة تنشيط هذه الفعاليات وتنظيمها، ثم حسم الموقف الحركي. (ص:٣١).

١٢- أكد أكثر من مرة أن على الحركة الإسلامية المعاصرة إعادة النظر جذرياً في فا
الخلاف (ص:٣٣).

١٣- بين الكاتب أسباب التفرق والتحزب كالآتي: (ص: ٤٠-٤١).

أ- غياب التربية الأخلاقية، التي من فروعها حسن تقدير التبعا
والتحديات.

ب- غياب فقه الخلاف.

١٤- أكد الكاتب مرة أخرى على أن دراسة كتب مثل: «العواصم من القواصم» لا
العربي، «رفع الملام» لابن تيمية، «والتنبيه على الأسباب التي أوجبت الخلاف
للبطليموسي، إضافة إلى التراث الفكري والحركي الخلافي لحقبة الخلافة الراشدة، ومع
كم هائل من النصوص النبوية الهادية في هذا المجال تحديداً، يقول الكاتب: إلا أن الحر
الإسلامية لم تستطع أن تستجمع أطراف هذا التراث، لتصوغ نظرية جديدة في السيط
على الخلاف، أو لتحيي النظرية الإسلامية في فقه الخلاف (ص:٤١-٤٢).

١٥- تحدث الكاتب عن الواقع المرير في التفرق لأي اختلاف، ثم بين أن التفرق سب
الضعف وذهاب القوة. (ص:٤٦-٤٩).

١٦- بين الكاتب أسباب الاختلاف كالآتي: (ص:٥٥-٦٩).

أ- ضعف المحصلة العلمية: علماء غير عاملين، وعاملون بغ
علم، الانفصام بين الفقه والواقع.

ب- الخلل في فهم مقاصد الشريعة.

ج- الهوى والاستبداد.

د- غياب فقه المرحلة.

هـ- العشوائية وعدم ثوابت العمل.

و- الورع الموهوم وذريعته إلى الفتنة.

ز- السياج الفكري لكل طائفة.

١٧- بين الكاتب العلاج كالآتي: (ص: ٧٤-٩١).

أ- التربية على التجرد للدين.

ب- الرؤية الواضحة للمنهج الفكري والحركي بحيث يتسع المجال الحيوي للاجتهاد ونقل الثوابت.

ج- ممارسة أدب الخلاف في الإسلام.

د- ترسيخ قاعدة الشورى. وحدة القرار ووحدة الإرادة.

هـ- توسيع أبحاث فقه السيرة.

و- تفهم طرفي النزاع للمسو غات الكاملة له.

ز- ضبط قواعد الحوار واحترامها كالآتي:

١- السماع الجيد للرأي الآخر.

٢- معرفة شخصية المحاور.

٣- إثبات الرأي بالحجج المؤيدة له.

٤- تحديد نقطة الخلاف بدقة.

٥- تحديد الهدف المرجو من الحوار.

٦- تبني قاعدة: رأيي صواب يحتمل الخطأ، ورأيك خطأ يحتمل

الصواب.

ح- النقد الإيجابي البناء الذي يعتمد إعطاء البديل.

التعليق:

١- في النقطة (٤) استدرك الكاتب على جميع فقهاء المسلمين -على قدر علمه- أنهم لم يقفوا ويحللوا السر الغامض وراء الظاهرة الفكرية التي تختلف من إنسان لآخر. أقول إن السبب بسيط، إذ إن فقهاء المسلمين ليست مهمتهم الوقوف على كل الظواهر النفسية والخلقية والاجتماعية، وغير هذه الظواهر المتعلقة بخلق الله، وإنما يقف على ذلك أصناف العلماء كل حسب اختصاصه، أما اختصاص الفقهاء، فهو تحليل ودراسة الظواهر التي ترتبط بالأحكام الشرعية ارتباطاً حقيقياً بحيث، لا يؤثر جهلهم بغيرها في الحكم الشرعي؛ فإن أثر فهو مما ينبغي معرفته أيضاً.

ولا شك أن موضوع الخلاف يتدرج درجات ومراتب، منها ما هو خارج موضع النزاع، ومنها ما هو من صلبه، وما ذكره الكاتب من السر الغامض، هذا هومن الباب الخارج عن موضع النزاع، فلا يناسب أن يتناوله فقهاء المسلمين.

٢- في النقطة (٥) في الفقرة الأولى من فصل (فقه الخلاف في الجيل الراشد) خلط الكاتب بين الخلاف والمراء، حيث أكد أن الشريعةلم تعرض لقضية الصواب والخطأ، وإنما رفع الخلاف ابتداء. وفي الحقيقة فإن الأدلة التي ذكرها أدلة خاصة بالمراء، كما هو منصوص فيها، ولا شك أنه ممنوع ومحرم أصلاً. أما الخلاف، فإنه أمر آخر، تعتمد إزالته ورفعه ابتداء على معرفة الصواب من الخطأ، إن أمكن، وإلا فهو من النوع السائغ. فذكر هذا الموضوع في الفقرة الأولى من فقه الخلاف تلبيس وخلط بين الخلاف والمراء.

٣- في النقطة (٦) بين الكاتب أن المطلوب هو اتفاق الموقف العملي، أو الحركي، ولو اختلف الموقف الفكري. أقول: إن هذا المطلوب في الحقيقة لا يحتاج إلى تنبيه، بل لسان

الحال ينادي به بعد زوال الخلافة الإسلامية. أما الكلام في الخلاف الفكري، وتشذيبه، وتهذيبه، وتحليله، وتصنيفه، فهو في الحقيقة القنطرة إلى هذا المطلوب، وما كتب من كتب من العلماء والفقهاء والباحثين إلا إلى ذلك، فالاتفاق السلوكي هو في الحقيقة من باب تحصيل الحاصل.

٤- في النقطة (٧) قسم الكاتب الخلاف إلى قسمين؛ تخصيبي وتفريقي، وهو تقسيم لم يسبق إليه الكاتب. ومن الجدير بالذكر هنا أنه لا ينبغي الحرص على الخلاف الفكري، إلا إذا اعتبرنا الخلاف خارج المعنى الذي هو موضوع النزاع، أما معنى التنوع والتوسع، الذي هو من باب المغايرة فهذا لا يدخل في موضوع الكتاب أصلاً. أما معنى التعارض، فالأصل فيه أن المصيب واحد، ولا يجب الحرص عليه، وإن وقع اجتهاداً، وجب تحديده، والتزام الأدب الشرعي فيه.

أما التفريقي بمعنى أنه إذا اختلف اثنان في مسألة فكرية، أحدهما على صواب، والآخر على خطأ في نفس الأمر، ثم نتج من هذا الاختلاف أن تصرف كل منهما بحسب الخلاف الفكري، وأن هذا التصرف هو خلاف تفريقي يلام عليه الطرفان، فهذا لا يعرف بين أهل العلم، أما إذا قصد التزام الإمارة الشرعية، فهذا أيضاً فيه تفصيل، فإن الخليفة لا يلزم المسلمين باجتهاداته الفقهية، إلا فيما يتعلق بمصالح الأمة، كما بين ذلك شيخ الإسلام ابن تيمية وغيره بما لا يناسب ذكره الآن.

أما الكلام في واقعنا المعاصر، وغياب الخلافة، فإن الكلام في الخلاف التفريقي هذا لا نفع فيه، أوهو كلام لا يصلح أن يكون نصيحة، وهو يشبه أن يقول القائل للغريق لا تغرق. ولا شك أن مثل هذا الطرح في الوقت الحاضر عسير، وغير ممكن، ودونه مراحل كثيرة لا بد من ابتدائها، أما الابتداء من النهاية، فهو النهاية بعينها.

ثم إن كان المراد من الكلام هو الخلافة، أو الإمامة، فلماذا التلميح في مسألة غاية في الأهمية والخطورة؟، ثم لماذا لا تعرض كاملة هي ومقدماتها ومقوماتها وأسبابها ومراحلها

كي يكون الكلام نافعاً؟، أما التلميح المقطوع، فهو غير نافع، وهو وضع الشيء في غـ
محله.

٥- في النقطة (٨) ينبغي معرفة أن الأحكام المتعلقة بالسلطان، أو الخليفة لا تناط إ
بمن ينوب عنه، وأن الخليفة أو القاضي الشرعي، إن اختار حكماً شرعياً معيناً، خالفه في
غيره من العلماء، فإن الذي ينفذ هو ما اختاره الخليفة أو القاضي الشرعي. أما باقِ
الأحكام الشرعية غير المناطة بالسلطان، فالخلاف العملي فيها مضطرد مع الخلاف
الفكري، وهنا تجدر الإشارة إلى أن الكاتب ابتعد عن الواقع، حيث إن معظم الأم
الإسلامية تعيش في أماكن، حيث لا سلطان للإسلام فيه، وهي مع ذلك تعاني أزم
الخلاف الفكري الذي هو سبب طبيعي للخلاف العملي، فالاهتمام بالخلاف العملي يلز
بالضرورة الاهتمام بالخلاف الفكري أولاً ودون انفكاك.

٦- في النقطة (٩) يمكن تلخيص كلام الكاتب بالقاعدة العسكرية المعروفة: نفذ ثـ
ناقش.

وأتسائل الآن، هل هذه هي المشكلة التي تعانيها الأمة أنها لا تنفذ ثم تناقش؟

ثم أستدرك وأقول: هذا جيد، ولكن أنفذ أوامر من؟ عشرات بل مئات الأسمـ
والأحزاب تنبري وتقول أنا. وكل ينظر للآخر أنه ليس بأهل، وذلك طبعاً بسبب الخلاف
الفكري، أكرر: الخلاف الفكري.

٧- في النقطة (١٢) أكد الكاتب، أكثر من مرة، على ضرورة إعادة النظر جذرياً ا
فقه الخلاف. وفي هذا الكلام إشارة إلى ما طرحه من «فقه الخلاف»، وإذا علمنا ما قلنا مـ
الاعتراض عليه، تبين أن هذا التوكيد الضروري مبالغ فيه جداً، وأن هذا التهويل لهـ
الجديد المطروح من فقه الخلاف، يجب أن يتناسب مع دقة الطرح وعلميته، أما هـا
الأجمال المجرد من المقدمات والمقومات، فلا يناسب ذلك.

ثم إن «فقه الخلاف» عنوان دقيق ومهم، فإن «الفقه» معناه العلم والفهم بكل ما يتعلق بما يضاف إليه، وهو «الخلاف»، أما مجرد تضخيم الجانب الحركي وطرحه، على أساس أنه فقه الخلاف، كما هو مستقرأ من كامل الكتاب، فهذا فيه تقصير بين.

٨ – في النقطة (١٤) ذكر أن كتباً مثل: «العواصم من القواصم» «ورفع الملام» وغيرها، إضافة إلى التراث الفكري الخلافي، لحقبة الخلافة الراشدة، إضافة إلى الكم الهائل من النصوص الشرعية، كل ذلك لم تستطع الأمة أن تدرك منه فقه الخلاف. أقول: وأنا أتساءل إذا كانت الأمة عاجزة عن إدراك فقه الخلاف، من كل هذه التفاصيل الشرعية، والنصوص الشرعية فبأي شيء يمكن أن تدرك فقه الخلاف؟.

أقول: إن طرح الكاتب خطأ. فإن جواب هذا التساؤل هو أن الأمة لا تتمكن من أن تدرك فقه الخلاف قطعاً، إذا لم تتمكن من أن تدرك ذلك الفقه من أئمة الدين، فضلاً عن الكم الهائل من النصوص الشرعية. ولكن الكاتب، كما هو واضح، يطرح نظريته لتكون هي الحل؛ حيث جعل رسالته محاولة لسد الثغرة في البناء الفكري، كما قال.

وفي الواقع فإني لا أدعي أن هذه الرسالة ليس فيها إسهاماً في رأب الصدع، ولكن طرح الكاتب طرح مبالغ فيه إلى حد غير مقبول تماماً.

٩– في النقطة (١٠) بين الكاتب أنه ليس المهم المحافظة على الوحدة الفكرية، بل المهم الحفاظ على الوحدة الحركية. أقول الوحدة الفكرية والسلوكية أصلاً أمر الله به ورسوله، كما في قوله تعالى: ﴿واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا﴾ [آل عمران:١٠٣]، وقوله تعالى: ﴿إن الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعاً لست منهم في شيء﴾ [الأنعام:١٥٩].

وغير ذلك من الأدلة، فإخراج الوحدة الفكرية من هذا الأصل لا يصح إلا بدليل شرعي أقوى يصح به التخصيص. هذا من جهة، ومن جهة أخرى، فإن العلماء قرروا في الاختلاف الفكري أن المصيب واحد، فكيف لا يحرص على الصواب؟

١٠– في النقطة (١٦) ذكر الكاتب أسباب الاختلاف، وهي أسباب مهمة ودقيقة،

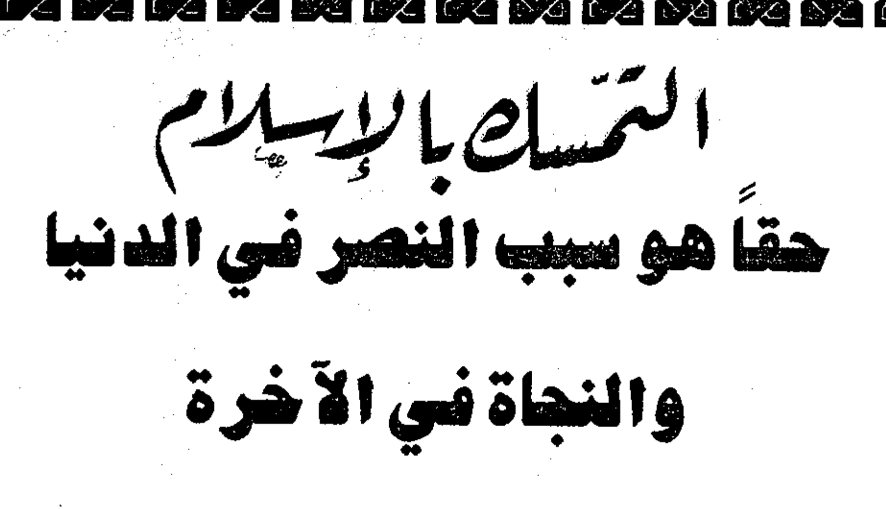
وخصوصا ضعف المحصلة العلمية، وربط العلم بالواقع، وكذلك مسألة السياج الفكر الذي يمثل التعصب، والذي يمثل عقبة عظيمة من عقبات الوفاق الإسلامي.

١١- في النقطة (١٧) ذكر الكاتب العلاج وذكر الإخلاص، وهو بلا شك أعظ أسباب الألفة، ثم ذكر الوضوح، وهو أهم أسباب المعرفة، ثم ذكر أدب الخلاف، تكلم عن الشورى، وهنا أقول: إن الشورى تفتقد الآن في الأمة إلى أوليات كثيرة، من اختلاف المناهج، ثم عدم الخلافة. أما الشورى بمعنى ما خاب من استشار، فهذا مناسـ جداً، خصوصاً في مصالح الأمة، أما التزام ذلك بالمعنى الشرعي المعروف، فهذا له مبحـ آخر.

ثم ذكر الكاتب أدب الحوار فذكر آداباً دقيقة وهادفة ونافعة بإذن الله، تسهم في البـ المنشود.

أما ما ذكره في النقد الإيجابي، الذي يعتمد إعطاء البديل، فإن هذا غير لازم؛ إذ قـ يكون من الأفكار والأفعال ما وجوده أضر من عدمه.

وفي الشريعة، فإن معظم المناهي الشرعية خالية من البديل اللازم. أما طرح البديل، فـ من الأمور المستحبة إن وجد. والله أعلم.



التمسك بالإسلام حقاً هو سبب النصر في الدنيا والنجاة في الآخرة

سماحة الشيخ عبدالعزيز بن عبدالله بن باز

الرئيس العام لإدارات البحوث العلمية والافتاء والدعوة والإرشاد[1]

الحمد لله وحده، والصلاة والسلام على من لا نبي بعده، وعلى آله وصحبه.

أما بعد، فإن الله سبحانه وتعالى إنما خلق الخلق ليعبد وحده، لا شريك له، وأنزل كتبه، وأرسل رسله؛ للأمر بذلك، والدعوة إليه، كما قال سبحانه:

﴿وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون﴾ [الذاريات:٥٦], وقال سبحانه: ﴿يا أيها الناس اعبدوا ربكم الذي خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون﴾ [البقرة:٢١], وقال عز وجل: ﴿الر كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير، ألا تعبدوا إلا الله

(١) هذا المقال نشر في عام (١٣٩٥هـ)، في مجلة البحوث، العدد الثاني وإنما ننشره خلافاً لمنهج المجلة في التزامها بما تستطيع من عدم نشر البحوث والمقالات التي سبق نشرها وذلك لانشغال الشيخ حفظه الله وعدم استطاعته المشاركة في مجلتنا فرأينا إن كان ولا بد فالمشاركة لا بد منها، لا سيما أن مقال الشيخ قديم العهد فيكون إحياءً له وقد واعدنا الشيخ حفظه الله بالمشاركة في الكتابة في المجلة إن شاء الله.

إنني لكم منه نذير وبشير﴾ [هود:١-٢]، وقال تعالى: ﴿ولقد بعثنا في كل أمة رسولا
أعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت﴾ [النحل:٣٦]. وقال سبحانه: ﴿وما أرسلنا من قبلك ،
رسول إلا نوحي إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون﴾ [الأنبياء:٢٥]، فهذه الآيات، وأمثا
كلها تدل على أن الله عز وجل إنما خلق الثقلين ليعبد وحده لا شريك له، وأن ذلك
الحكمة في خلقهما، كما تدل على أنه عز وجل إنما أنزل الكتب، وأرسل الرسل، لـ
الحكمة نفسها.

والعبادة هي الخضوع له، والتذلل لعظمته، بفعل ما أمر به، وترك ما نهى عنه، ،
إيمان به سبحانه، وإيمان برسله، وإخلاص له في العمل، وتصديق بكل ما أخبر به رسـ
محمد ﷺ وهذا هو أصل الدين وأساس الملة،وهو معنى لا إله إلا الله؛ فإن معناها لا معبـ
بحق إلا الله.

فجميع العبادات، من دعاء، وخوف، ورجاء، وصلاة، وصوم، وذبح، ونذر، و
ذلك يجب أن يكون لله وحده، وأن لا يصرف من ذلك شيء لسواه للآيات السابقا
ولقوله عز وجل: ﴿وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين﴾ [البينة:٢٥]، وقوله ،
وجل: ﴿وأن المساجد لله فلا تدعوا مع الله أحدا﴾ [الجن:١٨]، وقوله سبحانه: ﴿ذلك
الله ربكم له الملك والذين تدعون من دونه ما يملكون من قطمير، إن تدعوهم لا يسم
دعاءكم ولو سمعوا ما استجابوا لكم ويوم القيامة يكفرون بشرككم ولا ينبئك مـ
خبير﴾ [فاطر:١٣-١٤]، وقال تعالى: ﴿ومن أضل ممن يدعو من دون الله من
يستجيب له إلى يوم القيامة وهم عن دعائهم غافلون، وإذا حشر الناس كانوا لهم أعـ
وكانوا بعبادتهم كافرين﴾ [الأحقاف:٥-٦], وقال عز وجل: ﴿ومن يدع مع الله إ
آخر لا برهان له به فإنما حسابه عند ربه إنه لا يفلح الكافرون﴾ [المؤمنون:١١٧].

فأبان سبحانه في هذه الآيات أنه المالك لكل شيء، وأن العبادة حقه سبحانه، وأن جمي
المعبودين من دونه من أنبياء، وأولياء، وأصنام، وأشجار، وأحجار، وغيرهم، لا يملكـ

شيئا ، ولا يسمعون دعاء من دعاهم، ولو سمعوا دعاءه، لم يستجيبوا لـه، وأخبر أن ذلك شرك به عز وجل، ونفي الفلاح عن أهله.

كما أخبر سبحانه أنه لا أضل ممن دعا غيره، وأن ذلك المدعو من دون الله لا يستجيب لداعيه إلى يوم القيامة، وأنه غافل عن دعائه إياه، وأنه يوم القيامة ينكر عبادته إياه، ويتبرأ منها، ويعاديه عليها، فكفى بهذا تنفيراً من الشرك، وتحذيراً منه، وبياناً لخسران أهله، وسوء عاقبتهم. وترشد الآيات كلها إلى أن عبادة ما سواه باطلة، وأن العبادة بحق لله وحده. ويؤيد ذلك صريحاً قوله عز وجل: ﴿ذلك بأن الله هو الحق وأن ما يدعون من دونه هو الباطل﴾ [الحج:٦٢].

وذكر سبحانه في مواضع أخرى من كتابه أن من الحكمة في خلق الخليقة أن يعرف سبحانه بعلمه الشامل وقدرته الكاملة، وأنه عز وجل سيجزي عباده في الآخرة بأعمالهم، كما قال عز وجل: ﴿ا لله الذي خلق سبع سموات ومن الأرض مثلهن يتنز ل الأمر بينهن لتعلموا أن الله على كل شيء قدير، وأن الله قد أحاط بكل شيء علماً﴾ [الطلاق:١٢]، قال تعالى: ﴿أم حسب الذين اجترحوا السيئات أن نجعلهم كالذين آمنوا وعملوا الصالحات سواء محياهم ومماتهم ساء ما يحكمون، وخلق الله السموات والأرض بالحق ولتجزى كل نفس بما كسبت وهم لا يظلمون﴾ [الجاثية:٢١-٢٢].

فالواجب على كل ذي لب أن ينظر فيما خلق له، وأن يحاسب نفسه ويجاهدها لله، حتى يؤدي حقه وحق عباده، وحتى يحذر ما نهاه الله عنه؛ ليفوز بالسعادة والعاقبة الحميدة في الدنيا والآخرة، وهذا العلم هو أنفع العلوم، وأهمها، وأفضلها، وأعظمها؛ لأنه أساس الملّة، وزبدة ما جاءت به الرسل عليهم الصلاة والسلام، وخلاصة دعوتهم، ولا يتم ذلك، ولا يحصل به النجاة إلا بعد أن يضاف إليه الإيمان بالرسل عليهم الصلاة والسلام، وعلى رأسهم إمامهم وسيدهم وخاتمهم نبينا محمد ﷺ. ومقتضى هذا الإيمان تصديقه ﷺ في أخباره، وطاعة أوامره، وترك نواهيه، وأن لا يعبد الله سبحانه إلا بالشريعة، التي جاء بها

عليه الصلاة والسلام...

وهكذا كل أمة بعث الله إليها رسولاً، لا يصح إسلامها، ولا يتم إيمانها، ولا تحصل السعادة والنجاة، إلا بتوحيدها لله، وإخلاص العبادة له عز وجل، ومتابعة رسولها ﷺ وعدم الخروج عن شريعته، وهذا هو الإسلام الذي رضيه الله لعباده، وأخبر أنه هو دينه كما في قوله عز وجل: ﴿اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام دينا﴾ [المائدة:٣]، وقوله عز وجل: ﴿إن الدين عند الله الإسلام﴾ [آل عمران:١٩].

وبهذا يتضح لذوي البصائر أن أصل دين الإسلام وقاعدته أمران:

أحدهما: أن لا يعبد إلا الله وحده، وهو معنى شهادة أن لا إله إلا الله.

الثاني: أن لا يعبد إلا بشريعة نبيه محمد ﷺ.

فالأول يبطل جميع الآلهة المعبودة من دون الله، ويعلم به أن المعبود بحق هو الله وحده، والثاني يبطل التعبد بالآراء والبدع التي ما أنزل الله بها من سلطان، كما يتضح به بطلان تحكيم القوانين الوضعية، والآراء البشرية، ويعلم به أن الواجب هو تحكيم شريعة الله في كل شيء.

ولا يكون العبد مسلماً إلا بالأمرين جميعاً، كما قال الله عز وجل: ﴿ثم جعلناك على شريعة من الأمر فاتبعها ولا تتبع أهواء الذين لا يعلمون، إنهم لن يغنوا عنك من الله شيئاً﴾ [الجاثية:١٨-١٩]، وقال سبحانه: ﴿فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجاً مما قضيت ويسلموا تسليماً﴾ [النساء:٦٥]، وقال تعالى: ﴿أفحكم الجاهلية يبغون ومن أحسن من الله حكما لقوم يوقنون﴾ [المائدة:٥٠]، وقال عز وجل: ﴿ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون﴾ [المائدة:٤٤]، ﴿ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الظالمون﴾ [المائدة:٤٥]، ﴿ومن

يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الفاسقون﴾ [المائدة:٤٧].

وهذه الآيات تتضمن غاية التحذير والتنفير من الحكم بغير ما أنزل الله، وترشد الأمة، حكومةً وشعباً، إلى أن الواجب على الجميع هو الحكم بما أنزل الله والخضوع له والرضا به، والحذر مما يخالفه.

كما تدل أوضح دلالة على أن حكم الله سبحانه هو أحسن الأحكام وأعدلها، وأن الحكم بغيره كفر وظلم وفسق، وأنه هو حكم الجاهلية، الذي جاء شرع الله بإبطاله والنهي عنه.

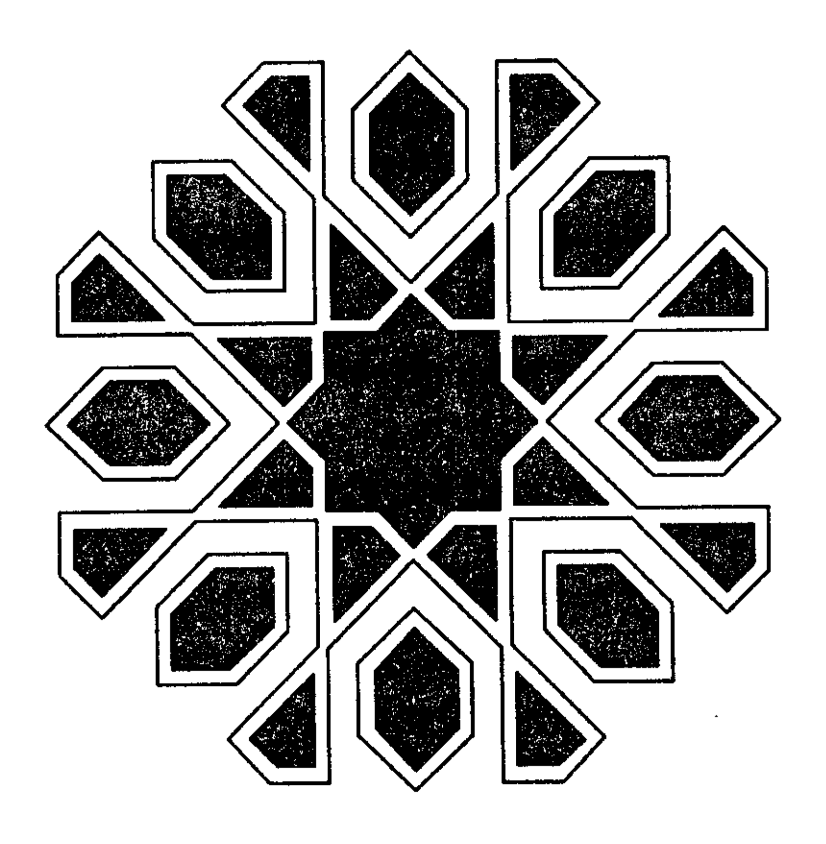
ولا صلاح للمجتمعات، ولا سعادة لها، ولا أمن، ولا استقرار، إلا بأن يحكم قادتها بشريعة الله، وينفذوا حكمه في عباده، ويخلصوا له القول والعمل، ويقفوا عند حدوده التي حدها لعباده، وبذلك يفوز الجميع بالنجاة والعز في الدنيا والآخرة، كما يفوزون بالنصر على الأعداء، والسلامة من كيدهم، واستعادة المجد السليب، والعز الغابر، كما قال سبحانه: ﴿يا أيها الذين آمنوا إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم﴾ [محمد:٧], وقال عز وجل: ﴿يا أيها الذين آمنوا إن تتقوا الله يجعل لكم فرقانا ويكفر عنكم سيئاتكم ويغفر لكم﴾ [الأنفال:٢٩]، وقال سبحانه: ﴿ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوي عزيز، الذين إن مكناهم في الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر﴾ [الحج:٤٥-٤٦].

ولما حذر سبحانه من اتخاذ الكفار بطانة من دون المؤمنين، وأخبر أن الكفار لا يألون المسلمين خبالاً، وأنهم يودون عنتهم، قال بعد ذلك: ﴿وإن تصبروا وتتقوا لا يضركم كيدهم شيئا إن الله بما يعملون محيط﴾ [ال عمران:١٢٠].

وهذا الأصل الأصيل، والفقه الأكبر، أولى ما كتب فيه الكاتبون، وعني به دعاة الهدى وأنصار الحق، وهو أحق العلوم أن يعض عليه بالنواجذ، وينشر بين جميع الطبقات، حتى

يعلموا حقيقته، ويبتعدوا عما يخالفه.

فنسأل الله أن يرد المسلمين إليه رداً حميداً، وأن يصلح قادتهم، وأن يوفق الجميع للتمسك بشريعة الله، والسير عليها، والحكم بها، والتحاكم إليها، والتسليم لذلك والرضا به، والحذر مما خالفه، إنه ولي ذلك، والقادر عليه، وصلى الله وسلم على عبد ورسوله، نبينا محمد وآله وأصحابه، ومن سار على طريقه، واهتدى بهداه إلى يوم الدين.



منظومة في أصول الفقه

لفضيلة الشيخ محمد بن صالح العثيمين

١ - الحمدُ للهِ المُعيدِ المُبدي ... مُعطي النوال كل من يَستجدي

٢ - مُثبِّتِ الأحكام بالأصُولِ ... مُعين من يصبو إلى الوُصُولِ

٣ - ثمَّ الصلاة مَع سلام قد أتم ... على الذي أعطي جوامعَ الكلِم

٤ - مُحمدِ المبعوثِ رحمةَ الورىَ ... وخير هادٍ لجميع من دَرَى

٥ - وبعدُ فالعلمُ بُحورٌ زاخرة ... لن يبلغَ الكادحُ فيه آخِرَه

٦ - لكنَّ في أصولِه تَسهيلا ... لنيلهِ فاحرص تجدْ سَبيلا

٧ - اغتنم القواعدَ الأصولا ... فمن تفته يُحرم الوُصولا

٨ - وهَاكَ من هذي الأصول جُملاً ... أرجُو بها عالِ الجِنان نُزلا

٩ - قواعِد مِنْ قول أهل العِلم ... وليس لي فيها سِوَى ذا النظم

القواعد والأصول

١٠ - الدينُ جاء لسعادَة البشرِ ... ولانتِفاءِ الشرِّ عَنْهُم والضَّرر

١١ - فكل أمرٍ نافع قد شَرَعَه ... وكُلُّ ما يضرُّنا قدْ مَنَعَه

١٢ - ومع تَساوي ضَرَرٍ ومنْفَعه ... يكونُ ممنوعاً لدرءِ المفْسَدَه

١٣ - وكلُّ ما كلفَه قد يُسِّرا ... من أصلِهِ وعندَ عارضٍ طرَا

١٤ - فاجْلِبْ لتيسير بِكُلِّ ذي شطط ... فليسَ في الدِّين الحنيفِ من شَطط

١٥ - وما استطَعت افعل من المأمورِ ... واجتَنبِ الكُلَّ مِنَ المحظورِ

١٦ - والشرعُ لا يَلزمُ قَبلَ العِلم ... دليلهُ فِعلَ المسيء فافْهَم

١٧ - لكن إذا فرَّط في التَّعلم ... فذا محلُّ نظرٍ فلتعلم

١٨ - وكــلُّ ممنــوع فللضــرورة يُبــاحُ والمكــروهُ عنــدَ الحاجــةِ
١٩ - لكــنّ مــا حُــرِّمَ للذّريعــة يجــوزُ للحاجــةِ كالعَريّــةِ
٢٠ - ومــا نُهــي عنــه مــن التّعبُّــدِ أو غــيرِهِ أفسِــدْه لا تَــرَدَّدِ
٢١ - فكــلُّ نهــي عــادَ للــذّواتِ أو للشُّــروطِ مفســداً ســياتي
٢٢ - وإن يعــد لخــارج كالعِمَّــةِ فَلــنْ يضــيرَ فــافهمنَّ العِلــةِ
٢٣ - والأصلُ في الأشياء حلٌّ وامنَع عبــادةً إلا بــإذنِ الشّــارع
٢٤ - فإنْ يَقَع في الحُكم شَكٌّ فارجع للأصــل في النّوعــين ثــم اتّبــع
٢٥ والأصــلُ أنَّ الأمــر والنّهــي حُتِــمْ إلا إذا النّــدبُ أو الكُــرهُ عُلِــمْ
٢٦ - وكــل مــا رُتّــب فيــه الفَضْــلُ مِــنْ غــيرِ أمــرٍ فَهــوَ نَــدبٌ يجلــو
٢٧ - وكــلُّ فِعــلٍ للنــبيِّ جُــرّدا عــن أمــرِهِ فغــيرُ واجــبٍ بَــدَا
٢٨ - وإن يكــن مُبينــاً لأمــر فــالحُكم فيــه حُكــمُ ذاك الأمــرِ
٢٩ - وقــدِّم الأعلــى لــدى التزاحُم في صَــالح والعَكــسُ في المظــالِم
٣٠ - وادفعْ خَفيفَ الضررين بالأخَفّ وخُــذْ بِعَــالي الفَــاضِلين لا تَخَــفْ
٣١ - إن يجتمع مع مُبيح مــا منَــع فَقَدِّمَــن تغليبــاً الــذي منــع
٣٢ - وكــلُّ حكــم فلِعِــةٍ تبــع إن وُجِــدَت يُوجَــد وإلا يمتنــع
٣٣ -وألــغ كــلَّ ســابقٍ لســببَه لا شَــرطِهِ فــاذْرِ الفــروق وانتبــه
٣٤ - والشــيءُ لا يَتِــمُّ إلا أن تُتــم شُــروطه ومَــانعٌ منــه عُــدِمِ
٣٥ - والظــن في العبــادةِ المعتــبرُ ونفــسَ الأمــر في العُقُــودِ اعتَــبروا
٣٦ - لكــن إذا تبّــين الظّــنّ خَطــا فــابرئ الذّمــة صَحّــح الخَطــأ
٣٧ - كرجُــل صلــى قُبيــل الوقْــتِ فليُعُــدِ الصّــلاة بعــدَ الوقــتِ
٣٨ - والشّــكّ بعــدَ الفِعــل لا يُؤثــرُ وهكــذا إذا الشُّــكُوكُ تكــثُرُ
٣٩ - أوتَــكُ وهمــاً مثل وَسْواس فَدَعَ لكــلّ وسْــوَاس يجــي بــه لكَــع

٤٠ - ثـم حديـثُ النفـسِ معفـوٌّ فـلا	حُكـم لـه مـا لم يؤثّـر عَمَـلا
٤١ - والأمـرُ للفـور فبـادِر الزّمـن	إلا إذا دلَّ دليـلٌ فـاسْمَعَنْ
٤٢ - والأمـرُ إن رُوعـي فيـه الفـاعلُ	فـذَاكَ ذُو عَيـن وذاك الفـاضلُ
٤٣ - وإن يُراعَ الفعلُ مع قطع النّظر	عـن فـاعِل فـذو كِفايـة أثِـر
٤٤ - والأمـرُ بعـد النّهـي للحِـلّ وفي	قـول لرفـع النهـي خُـذْ بـه تَفـي
٤٥ - وافْعَـل عبـادةً إذا تنوّعَـتْ	وُجُوهُهـا بكـلِّ مـا قَـدْ وَرَدَتْ
٤٦ - لتفعـلَ السُّـنّة في الوَجهَـين	وتحفـظِ الشّـرْعَ بـذِي النّوعَـينِ
٤٧ - والـزَمْ طرِيقـةَ النـبيِّ المصطفـى	وَخُـذ بِقَـولِ الراشـدينَ الخُلفـا
٤٨ - قول الصحابي حُجَّةٌ على الأصحْ	مـا لم يُخـالِفْ مِثلـهُ فَمَـا رَجَـح
٤٩ - وحجَّـةُ التكْليـف خُذهـا أربَعَـة	قرآنُنـا وسُـنّةٌ مُثَبّتـه
٥٠ - مِنْ بَعْدِهـا إجمـاع هـذي الأمَّـة	والرَّابـعُ القيـاسُ فافهَمنّـه
٥١ - واحْكُـم لكـلِّ عـامل بنيتـه	واسْـدُدْ علـى المحتَـالِ بـابَ حيلتـه
٥٢ - فإنّمـا الأعمـالُ بالنِّيَّـاتِ	كمـا أتـى في خـبر الثّقـات
٥٣ - ويحـرُمُ المضـيُّ فيمـا فسـدا	إلا بحـجٍّ واعتمـارٍ أبـدا
٥٤ - والنّفـلُ جـوِّز قطعَـهُ مـا لم يَقَـعْ	حَجّـاً وعُمْـرةً فقطعُـه امتَنَـع
٥٥ - والإثـمُ والضمـانُ يَسْـقُطان	بـالجَهل والإكـراهِ والنسـيانِ
٥٦ - إنْ كـانَ ذا في حـقِّ مولانـا ولا	تُسـقِط ضمانـاً في حقـوقٍ للمَـلا
٥٧ - وكـلُّ مُتلـفٍ فمضمـونٌ إذا	لم يكـن الإتـلافُ مِـن دَفـع الأذى
٥٨ - ويضمـنُ المثلـيُّ بـالمثْل ومـا	ليـسَ بمثلـي بمـا قـد قوّمـا
٥٩ - وكُـلُّ مـا يحصُـلُ ممـا قـد أذنْ	فليـسَ مضمونـاً وعكسُـهُ ضمُـنُ
٦٠ - ومـا علـى المُحسـن مـن سـبيلِ	وعكسُـهُ الظـالمُ فـاسمعَ قيلـي
٦١ - ثـم العُقـودُ إن تكُـن معاوضـة	فحرِّرَنْهـا ودَع المخـاطرَة

٦٢ - وإن تكُن تبرعاً أو توثقه فأمرُها أخفُّ فادر التفرقة
٦٣ - لأن ذي إن حَصَلت فَمَغْنَمٌ وإن تفُتْ فليس فيها مَغْرَمُ
٦٤ - وكُلُّ ما أتى ولم يُحدَّد بالشَّرع كالحَرز فبالعُرفِ احدُدِ
٦٥ - مِنْ ذاك صيغاتُ العُقُود مُطلقا ونحوها في قَول من قد حَقّقَا
٦٦ - واجعَل كلفظٍ كل عُرفٍ مُطرد فَشَرطنا العُرفيُّ كاللفظي يَرِد
٦٧ - وشَرْط عقْدٍ كونهُ من مَالكِ وكلُّ ذي ولايةٍ كالمالكِ
٦٨ - وكل من رضاه غيرَ مُعْتَبر كمُبرإ فعِلمهُ لا يُعتَبَر
٦٩ - وكلُّ دَعوى لفسادِ العَقدِ مَعَ ادِّعاء صِحّةٍ لا تُجدِي
٧٠ - وكل ما يُنْكِرهُ الحِسّ امنعَا سَمَاعَ دَعْوَاهُ وضِدَّه اسمعَا
٧١ - بينة الزَمْ لكلِّ مُدّعي ومُنكِراً الزمْ يميناً تُطِع
٧٢ - كلُّ أمينٍ يدّعي الرّدَّ قُبلْ ما لَمْ يكُن فيما لهُ حَظ حَصَل
٧٣ - وأطلِقِ القَبُول في دَعْوى التّلَف وكلُّ من يُقبَلُ قولهُ حلف
٧٤ - أدِّ الأمان للذي قد أمنَّكْ ولا تخُنْ من خَان فهو قَد هَلك
٧٥ - وجائزٌ أخذُك ما لا يُستحق شَرعاً ولو سِراً كضيف فهو حَقّ
٧٦ - قَدْ يَثبُتُ الشَّيءُ لغيرِهِ تَبَع وإن يكُن لو استقلَّ لا مُتَنَعْ
٧٧ - كحامِلٍ إن بِيعَ حَمْلها امتَنَع ولو تُباعُ حَامِلاً لم يَمتَنِع
٧٨ - وكُلُّ شَرطٍ مُفْسِدٍ للعقْد بذِكرهِ يُفسِدُهُ بالقصْدِ
٧٩ - مِثلُ نِكَاح قاصِدِ التّحليلِ ومَنْ نوى الطلاقَ للرَّحيل
٨٠ - لكنَّ مَنْ يَجْهل قَصدَ صاحِبه فالعقدُ غيرُ فاسدٍ مِنْ جانبه
٨١ - لأنّه لا يَعلمُ الذي أسَرّ فأجْرى العَقدَ على ما قدْ ظَهَر
٨٢ - والشّرط والصُّلحُ إذا ما حللا مُحرَّماً أو عكسُه لن يُقبَلا
٨٣ - وكلُّ مشغُولٍ فليس يُشْغلُ بمُسقِطٍ لما به يَنشغِلُ

٨٤ - كمُبدلٍ في حُكمِهِ اجعل بَدَلا ورُبَّ مفضول يكونُ أفضلا

٨٥ - كلُّ استدامةٍ فأقوى مَنْ بدا في مثل طيب مُحرم ذا قد بدا

٨٦ - وكلُّ معلوم وجُوداً أو عدَم فالأصلُ أن يبقى على ما قد عُلِم

٨٧ - والنَّفي للوجُودِ ثُمّ الصِّحة ثمَّ الكَمَالُ فارْعَيَنَّ الرُّتبة

٨٨ - والأصلُ في القَيد احترازٌ ويَقل لِغيرِهِ ككشفِ تَعْليل جُهِل

٨٩ - وإن تعذَّر اليَقينُ فارجعا لغالِبِ الظنِّ تكنْ مُتبعا

٩٠ - وكلُّ ما الأمرُ به يشتبه مِنْ غير مَيْزٍ قرعَةٌ توضحه

٩١- وكلُّ من تعجَّل الشيء على وجه مُحَرَّم فمنعُه جَلا

٩٢ - وضَاعِف الغُرمَ على من ثَبت عُقُوبةٌ عليه ثُمَّ سَقَطتْ

٩٣ - لمانع كسارقٍ من غيْر ما مُحرز وَمَنْ لضالّ كَتما

٩٤ - وكلُّ ما أبينَ من حيٍّ جُعِل كمِيتَة في حكمِه طهْراً وَحِلّ

٩٥ - وكان تأتي للدَّوام غالباً وليس ذا بلازمٍ مُصاحَبا

٩٦ - وإن يضَفْ جَمعٌ ومفردٌ يَعُمْ والشَّرط والموصُول ذا لهُ الحتم

٩٧ - مُنكّرٌ إن بَعدَ إثباتٍ يَرِد فمُطلقٌ وللعُموم إنْ يَرِد

٩٨ - مِنْ بَعدِ نفيٍ نهيٍ استفهام شَرطٍ وفي الإثبات للإنعام

٩٩ - واعتبرِ العمومَ في نصّ أثِر أمّا خُصُوصُ سَبَبٍ فمَا اعتُبر

١٠٠ - مالم يَكنْ مُتّصِفاً بوصفِ يُفيدُ عِلةً فخُذْ بالوَصفِ

١٠١ - وخصِّصِ العامَّ بخاصٍّ وَرَدَا كقَيدِ مُطلقٍ بما قد قُيِّدا

١٠٢ - ما لَمْ يكُ التَّخْصيصُ ذِكرُ البعـ ـضِ مِنَ العُمُوم فالعُمُومَ أمْضِي





(الجزء الأول)[1]

د. عمر سليمان عبدالله الأشقر

الأستاذ المشارك في قسم الفقه في كلية الشريعة بالجامعة الأردنية

مقدمة

الحمد لله الهادي إلى الصراط المستقيم، الذي ألف قلوب عباده بالإسلام وشريعته، الآمر لهذه الأمة بالاجتماع والائتلاف على كتابه المنزل، المحذر لها من الفرقة والاختلاف حتى لا تفشل وتذهب ريحها، والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للعالمين، الذي أنار الله به القلوب بعد إظلامها، وهدى به النفوس بعد ضلالها، وعلى آله وصحبه الذين اهتدوا بهدى الله، واقتفوا أثر رسول الله ﷺ، وعلى من سلك سبيلهم، وسار مسارهم إلى يوم الدين وبعد:

فإن كتاب ربنا حدثنا عن الباطل الذي يضاد الحق ويخالفه، وحاور أهل الكفر والشرك الذين ضلوا عن سواء السبيل، وكشف عن معتقداتهم الزائفة، وأصولهم التي بنوا عليها ضلالهم، وتجد هذا النهج القرآني واضحاً في أحاديث الرسول ﷺ، ومن اطلع على سيرته

(١) يكتمل هذا البحث في جزئين، وسننشر الجزء الثاني في العدد الثاني إن شاء الله تعالى.

ﷺ، رأى سعة علم الرسول ﷺ بضلال أصحاب الملل، وحرصه على تعريف أصحاب باطلهم، وحثه إياهم على مخالفة أهل الضلال فيما ضلوا فيه.

وقد فقه أهل العلم عن ربهم وعن رسولهم هذا النهج، فبذلوا جهدهم في التعرف على الحق والاستمساك به، ومخالفة أهل الباطل في ضلالهم، وقد ألفوا المؤلفات التي ترد على أهل الكفر والشرك من الملحدين والمشركين والمجوس واليهود والنصارى.

ولذا فإن بغض الكفار، وبغض عقائدهم وباطلهم، والحرص على مخالفتهم في الباطل الذي تلبسوا به، أصل من أصول هذا الدين.

وفي دائرة أهل الإسلام انحرف المسار ببعض المنتسبين إلى الإسلام، فاختطوا خطة تخالف الرعيل الأول من الصحابة في أسماء الله وصفاته، وفي القدر، وفي تحديد دائرة الإيمان، ونحو ذلك.

وقد اختص الذين استقاموا على نهج الصحابة باسم أهل السنة والجماعة, أو باسم السلف الصالح، وكان علماؤهم ولا يزالون يبذلون جهودهم في تعريف الحق والحث على التمسك به، والتعريف بباطل الفرق والتحذير منه، نصحاً لله ورسوله، وتحذيرا لأهل السنة، وتوضيحاً للحق، وتزييفاً للباطل.

ومخالفة أهل الفرق التي ضلت في باب الاعتقاد والإيمان محمودة، كمخالفة أهل الملل فيما ضلت فيه.

واختلف أهل السنة فيما بينهم في بعض الأحكام العملية، وهذا الاختلاف وقع بين الصحابة في حياة الرسول ﷺ، ولكن الرسول ﷺ كان يحسمه بكلمة منه، ذلك أن قول الرسول ﷺ حكم فاصل يجب التسليم والإذعان له.

واختلف الصحابة من بعد الرسول ﷺ، وكان علماء الصحابة يحسمون كثيرا من الاختلاف، ويصير اختلافهم إلى اتفاق بفضل علمهم الواسع، وثقة الناس بهم وبفقههم، وباتباعهم للمنهج القويم في طريقة تلقي التشريع والعمل به.

إلا أن بعض المسائل وجِدَ للصحابة فيها قولان أو ثلاثة، ولم يحسم الخلاف فيها، وكثر الخلاف بعد عصر الصحابة، وعانت الأمة الإسلامية من الاختلاف كثيراً، ووقف المسلمون من هذا الاختلاف مواقف شتى، فبعضهم يؤصله ويسعى إليه، وبعضهم يريد إزالته ويسعى إلى اقتلاع أسبابه وبواعثه، ويسلك إلى تحقيق هذا سبلاً مشروعة وسبلاً غير مشروعة، وبعضهم يتقوقع على نفسه لا يدري كيف يتصرف.

لقد كتب علماء كثيرون في الاختلاف قديما وحديثا، وعرَّفوه وبينوا أنواعه ودوائره وأسبابه، وطرق تقريب وجهات النظر.

ولا غنى لطالب العلم عن الإلمام بموضوع اختلاف أهل العلم، كي لا ينحرف به المسار، ولا يحمل الأمر على غير وجهه.

إن الذي يطالع ما دوِّن في فقه الاختلاف بين علماء السنة في الفروع يعلم أن إنهاء الخلاف في مجال الأحكام الفقهية والقضاء عليه قضاء مبرما غير ممكن، والجهود التي تبذل في مجال إنهاء الخلاف جهود لا يمكن أن تحقق الهدف الذي يسعى العالم لتحقيقه.

والسبب في ذلك أن من الخلاف ما يعود إلى طبيعة تكوين الإنسان وتفاوت قدراته العقلية في الفقه والفهم، فأنى يصار إلى اتفاق في هذا المجال!!

وبعض الخلاف يمكن القضاء عليه وإزالته، وقد اتفق أهل السنة على مئات ومئات من الأحكام في أبواب الطهارة والصلاة والصيام والحج والبيع والشراء وغير ذلك، وقد لا يدرك كثير من طلبة العلم حجم الأحكام التي اتفقت الأمة عليها، وذلك بسبب عناية العلماء ومدارس العلم بتعريف طلبة العلم بمسائل الاختلاف، ومرورهم مروراً عابراً على مسائل الاتفاق.

ومن طالع مسائل الاتفاق يعلم أنه لا توجد أمة من الأمم اتفقت فيما بينها على هذا الكم الهائل من الأحكام كما اتفقت الأمة الإسلامية، وخاصة أهل السنة فيما بينهم.

إن بعض الكتاب والمنتسبين إلى العلم يريد أن يجعل المتفق عليه مدار بحث وخلاف
حرية البحث والنظر، وهـذا بـاب شـر، فالأحكـام الـتي أدلتهـا قاطعـة في الدلالـة عا
وثبوتها قطعي لا مجال للاختلاف فيها.

وقد كانت جهود الأئمة من الصحابة والتابعين وفقهاء الأمصار تجري باتجاه واحد،
بلورة الأحكام المختلف فيها، إما بالبحث عن الأدلة التي تدل علـى تلـك الأحكـام،
بالبحث في طريقة دلالتها عليها، والمتتبع لتلك البحوث يعلم أن كثيراً من الأحكام تنا
الفقهاء قديما، ونضج القول فيها، وكـاد الأمـر أن يحسـم فيهـا في قـول واحـد، وهج
الأقوال المخالفة.

ولو بقي الأمر سائراً على هذا النحو، لقربت شقة الاختلاف بين الفقهاء بنسبة أكب
هي عليه اليوم، لكن كثيراً من الفقهاء اختطوا مساراً أضرّ بالفقه وأهله, فقد تعصب
مـن أهـل العلـم لعـالم واحـد مـن أئمـة المسـلمين، وأصبـح همهـم تقعيـد فقهــه وتأ
والاستدلال له، ثم أغرق المتـأخرون في التعصـب، بحيـث أصبـح همهـم معرفـة فقـه
الإمام وفقه أتباعه فقها مجردا عن الدليل. ومن طالع كتب الفقه والجهود المبذولة فيه
وتأصيلا، فإنه يعلم مقدار الجهود الهائلة التي تخالف نهج الأئمة، ولو اطلع الأئمة رض
ا الله عليهم على هذا المسار، الذي اختطه كثير من أتبـاعهم، لأنكـروا عليهـم، يدلنـا
هذا أن الأئمة لم يكونوا يقبلون مثل هذا في حياتهم، وقالوا أقوالا حفظـت عنهـم يحذ
من هذا المسلك والسبيل.

لقد كان فقه الأئمة جميعا يسير مسارا واحدا، فقد كـان فقهـا للكتـاب والسـنة، و
همهم جميعاً هو معرفة حكم الله ورسوله فيما يعرض لهـم مـن أحكـام، وكـانوا يستع
على معرفة الحق بأقوال العلماء مـن قبلهـم. وأحببـت أن أدوّن في فقـه الاختـلاف مؤ
أعرف فيه بالاختلاف، وأبين أنواعه وأسبابه، وما يجري فيه الخلاف، وما لا يصـح أن
فيه، وأوجه فيه الأنظار إلى الاختلاف الممدوح، والاختلاف المذموم، وهذا مـا سننشـ
الحلقة الأولى في مجلة «الحكمة» الغراء.

وأهم ما في هذا المؤلف تلك المعالم الأربعة عشر التي استغرقت القسم الأعظم من الكتاب، التي تدلنا على طريقة تلقي التشريع والعمل به، ومراعاة هذه المعالم من شأنه أن يقرب شقة الخلاف، ويقلص دائرته، وهي تحدد خطوطاً رئيسة لمنهج أفضل ينبغي أن يتجه إليه في دراسة علم الفقه تعلما وتعليما، وهذه المعالم الأربعة عشر هي موضوع الحلقة الثانية.

الاختلاف في الفروع الفقهية

تمهيد: تعريف الاختلاف

الاختلاف في اللغة يعنى عدم الاتفاق على الشيء، يقول الفيروزآبادي: «الاختلاف والمخالفة: أن يأخذ كل واحد طريقا غير طريق الآخر في حاله أو فعله، والخلاف أعم من الضد؛ لأن كلّ ضدين مختلفان، وليس كل مختلفين ضدين»[١].

والخلاف في اصطلاح الفقهاء: «أن يذهب كل عالم إلى خلاف ما ذهب إليه الآخر، وهو ضد الاتفاق»[٢].

الفصل الأول

أمر الله بالاتفاق ونهيه عن الفرقة والاختلاف

أمرنا الله بالوفاق وحذرنا من الخلاف في آيات كثيرة من كتابه، فقد أخبر أننا أمة واحدة ﴿إن هذه أمتكم أمة واحدة﴾ [الأنبياء:٩٢]، وذم الذين اختلفوا من الأمم السابقة، وحذر من سلوك السبيل التي سلكوها ﴿ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا من

---

(١) بصائر ذوي التمييز: (٢/٥٦٢).

(٢) المصباح المنير للفيومي: (ص١٧٩) بتصرف يسير.

بعد ما جاءهم البينات﴾ [آل عمران:١٠٥].

والوحدة والاتفاق اللذان أمرنا الله بهما إنما يتحققان بالاعتصام بالدين الذي أنزله الله تعالى، وقوام هذا الدين كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، ﴿واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا﴾ [آل عمران:١٠٣]، ويقول الرسول ﷺ: (تركت فيكم أمرين لن تضلوا ما تمسكتم بهما: كتاب الله وسنة رسوله) أخرجه مالك في الموطأ[١].

وروى أبو داود في سننه عن العرباض بن سارية: أن الرسول ﷺ صلى بأصحابه ذات يوم، ثم أقبل عليهم بوجهه، فوعظهم موعظة بليغة، ذرفت منها العيون، ووجلت منها القلوب، فقال رجل: يا رسول الله, كأن هذه موعظة مودع، فماذا تعهد إلينا؟ فقال «أوصيكم بتقوى الله، والسمع والطاعة، وإن عبدا حبشياً، فإنه من يعش منكم بعدي فسيرى اختلافا كثيرا، فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي، تمسكوا بها, وعضوا عليها بالنواجذ، وإياكم ومحدثات الأمور، فإن كل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة»[٢].

إن ما جاء به القرآن الكريم، وما جاءت به السنة النبوية، يمثل الصراط المستقيم الذي يرضاه الله، والسائرون على هذا الصراط هم المهتدون، ولا شك أنهم متفقون غير مختلفين، فآيات الكتاب وأحاديث الرسول ﷺ توحدهم وتجمعهم، وإنما يحدث التفرق بالخروج عن الصراط المستقيم، وذلك بمخالفة أحكام الكتاب والسنة ﴿وأنّ هذا صراطي مُستقيماً فاتبعوه، ولا تتبعوا السُبل فتفرق بكم عن سبيله﴾ [الأنعام:١٥٣]، فسبيل الوحدة التعرف على أحكام الله من كتابه وسنة رسوله ﷺ، ثم اتباعها وإن خالفت آراء البشر وأهواءهم،، وإن والمتفقون مع أحكام الشريعة المنزلة هم الجماعةخالفهم أكثر الناس.

---

(١) جامع الأصول: (١/٢٧٧) والحديث صحيح، [المجلة].

(٢) جامع الأصول: (١/٢٧٨) والحديث صحيح، [المجلة].

الفصل الثاني

الاختلاف في الفروع ليس بممدوح

الاختلاف في الأصول كالكفر ببعض أصول الاعتقاد، والمخالفة لما علم من الدين بالضرورة، الابتداع في الدين - متفق على أنه من الاختلاف المذموم، ولكن بعض المسلمين يظنون أن الاختلاف في الفروع العملية التي لم يأت بها نص قطعي -أمر ممدوح، ويحتجون على ذلك بحديث: «اختلاف أمتي رحمة»، وهذا حديث لا أصل له، يقول ابن حزم فيه: باطل مكذوب[1]، وممن أشار إلى ضعفه الحافظ السخاوي، وابن الديبع، وقال السبكي: ليس معروفاً عند المحدثين، ولم أقف له على سند صحيح ولا ضعيف ولا موضوع, ولا أظن أن له أصلاً، إلا أن يكون من كلام الناس[2].

وإذا كان حال الحديث كذلك، فلا يجوز الاحتجاج به على أمر مخالف لآيات الكتاب الناهية عن الاختلاف، وأحاديث الرسول ﷺ الكثيرة الصحيحة المحذرة من الاختلاف، ولا يجوز أن يجعل هذا الحديث الباطل قاعدة عامة تخالف الأصول.

الفصل الثالث

ما يجري فيه الخلاف

نصوص الشارع منها ما هو قطعي الثبوت كالقرآن والمتواتر من السنة، ومنها ما هو ظني الثبوت ككثير من أخبار الآحاد، والقطعي الثبوت منه ما هو قطعي في دلالته كقوله

---

(١) سلسلة الأحاديث الضعيفة: (١/٧٦).

(٢) لمعرفة حال الحديث راجع: المقاصد الحسنة للسخاوي: (٢٦-٢٧)، وتمييز الطيب من الخبيث لابن ديبع، وتفسير الألوسي: (٤/٢٤)، وفيض القدير للمناوي: (١/٢١٢).

تعالى: ﴿فمن تمتع بالعمرة إلى الحج فما استيسر من الهدي فمن لم يجد فصيام ثلاثة أيام في الحج وسبعة إذا رجعتم تلك عشرة كاملة﴾ [البقرة:١٩٦-]، فدلالة الآية على وجوب صيام عشرة أيام لمن تمتع بالعمرة إلى الحج ثم لم يجد الهدي -قطعية، لقوله: ﴿تلك عشرة كاملة﴾ [البقرة:٢٣٧].

ومنه ما هو ظني كقوله تعالى: ﴿وإن طلقتموهن من قبل أن تمسوهن وقد فرضتم لهن فريضة فنصف ما فرضتم إلا أن يعفون أو يعفو الذي بيده عقدة النكاح﴾، فالذي بيده عقد النكاح قد يكون هو الزوج، وقد يكون هو ولي الأمر، فالدلالة هنا ظنية، وليست قطعية.

فالقطعي ليس من مواضع الاجتهاد، والظني هو مجال الاجتهاد، سواء أكان في ثبوت النص أم دلالته أم ما ألحق به. ومراتب الظنون تختلف في القوة والضعف حسب قوة الاحتمال وضعفه، وإذا كانت النصوص القطعية فيها مجال للاختلاف، فإن الأمور التي لم ينص على حكمها أحرى بأن تختلف الأفهام فى أحكامها.

الفصل الرابع

أنواع الاختلاف وأسبابه

الاختلاف الفقهى أنواع، فمنه الخلاف المقبول، ومنه الخلاف المذموم، ومنه الخلاف السائغ المعقول.

المبحث الأول: الخلاف المقبول

وهذا النوع يكون في الأمور التي شرعت متنوعة فيختلف العلماء في استحباب واحد منها، وتقديمه على غيره، ويمثل ابن تيمية لهذا بأنواع الحج، فإن من حج قارناً أو متمتعاً أو مفرداً أجزأه عند علماء المسلمين، وإن تنازعوا في الأفضل من ذلك، وكذلك الأذان

يعتبر أذاناً صحيحاً إذا رجع فيه أو لم يرجع، وسواء ربع التكبير في أوله أو ثناه، وكذلك الإقامة يصح فيها الإفراد والتثنية، بأيتها أقام صحت إقامته عند علماء المسلمين، إلا تنازع فيه شذوذ الناس.

وكذلك الجهر بالبسملة والمخافتة فيها كلاهما جائز لا يبطل الصلاة، وإن كان من العلماء من يستحب أحدهما أو يكره الآخر، أو يختار أن لا يقرأ بها، فالمنازعة بينهم في المستحب، وإلا فالصلاة بأحدهما جائزة عند عامة العلماء، فإنهم تنازعوا بالجهر والمخافتة في موضعهما هل هما واجبان أم لا؟ وفيه نزاع معروف في مذهب مالك وأحمد وغيرهما، فهذا في الجهر الطويل بالقدر الكثير مثل المخافتة بقرآن الفجر، والجهر بصلاة الظهر، فأما الجهر اليسير أو المخافتة به، فما ينبغي لأحد أن يبطل الصلاة بذلك.

وكذلك القنوت في الفجر، إنما النزاع في استحبابه أو كراهيته، وسجود السهو لتركه أو فعله، وإلا فعامتهم متفقون على صحة صلاة من ترك القنوت، وأنه ليس بواجب، وكذلك من فعله؛ إذ هو تطويل يسير للاعتدال، ودعاء لله في هذا الموضع، ولو فعل ذلك في غير الفجر، لم تبطل صلاته باتفاق العلماء.

وكذلك تكبيرات العيد الزوائد إنما النزاع في المستحب منها، وإلا فلا نزاع في أنه يجزئ ذلك كله، وكذلك أنواع التشهدات كلها جائزة، وإنما النزاع في المستحب.

وكذلك أنواع الاستفتاح في الصلاة، وأصل الاستفتاح إنما النزاع في استحبابه، في أي الأنواع أفضل، والخلاف في وجوبه خلاف قليل, يذكر قولا في مذهب أحمد[1].

فهذا النوع من الخلاف بين الأمة أمره سهل يسير، يقول ابن تيمية: «ولا يجوز التفرق بذلك بين الأمة، ولا أن يعطى المستحب فوق حقه، فإنه قد يكون من أتى بغير ذلك من

(١) راجع: خلاف الأمة في العبادات لابن تيمية: «مجموعة الرسائل المنيرية»: (٤١٢٣/١).

المستحب من أمور أخرى واجبة أو مستحبة أفضل بكثير، ولا يجوز أن تجعل المستحبا
بمنزلة الواجبات بحيث يمتنع الرجل من تركها، ويرى أنه قد خرج من دينه أو عصى ا
ورسوله، بل يكون ترك المستحبات لمعارض راجح أفضل من فعلها، بل الواجبا
كذلك».

ومعلوم أن ائتلاف قلوب الأمة أعظم في الدين من بعض المستحبات، فلو تركها المـ
لائتلاف القلوب كان ذلك حسنا، وذلك أفضل إذا كان مصلحة ائتلاف القلوب دو
مصلحة ذلك المستحب، وقد أخرجا في الصحيحين عن عائشة أن النبي ﷺ قال لها: (لو
أن قومك حديثو عهد بجاهلية لنقضت الكعبة، ولألصقتها بالأرض، وجعلت لها باباً يدخـ
الناس منه ويخرجون منه).

وقد احتج بهذا الحديث البخارى وغيره على أن الإمام قد يترك بعض الأمور المختار
لأجل تأليف القلوب، ودفعا لنفرتها، ولهذا نص الإمام أحمد على أنه يجهر بالبسملة عنـ
المعارض الراجح، فقال: يجهر بها إذا كان بالمدينة، قال القاضي: «لأن أهلها إذ ذاك كا
يجهرون، فيجهر بها للتأليف، وليعلمهم أنه يقرأ بها، وقال غيره: بل لأنهم كا
لايقرؤونها بحال، فيجهر بها ليعلمهم أنه يقرأ بها، وأن قراءتها سنة. فهذا أصل عظيـ
ينبغي مراعاته، وبهذا يزول الشك والطعن، فإن الاتفاق إذا حصل على جواز الجميـ
وإجزائه علم أنه داخل في المشروع، فالتنازع في الرجحان لا يضر، كالتنازع في رجحـ
بعض القراءات، وبعض العبادات»[1].

المبحث الثاني: الخلاف المذموم وأسبابه

من الاختلاف الفقهي ما يكون قبيحا مذموما, وأسباب هذا النوع من الخلاف ثلاثة:

---

(١) المصدر السابق: (١٢٤/١).

١- الجهل:

فكثير من الناس يجهلون الأمر المشروع المسنون الذي يحبه الله ورسوله، والذي سنه الرسول ﷺ لأمته وأمرهم به.

وقد كان الجهل هو الداء الذي أصاب الخوارج، فإن اختلافهم مع الصحابة كان بسبب جهلهم بدلالة النصوص، وبأحاديث الرسول ﷺ، وقد وصفهم الرسول ﷺ بقوله: (يقرؤون القرآن لا يجاوز حناجرهم, يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية)[1]، وعندما ذهب إليهم حبر هذه الأمة ابن عباس بين لهم ما هم فيه من باطل، وكشف الشبهات التي تمسكوا بها، فرجع منهم ألفان. وقد كان الجهل هو الداء الذي أصاب النصارى، فإنهم كانوا يعبدون الله عن جهل، ولذلك سماهم الله بالضالين، وبجهلهم ابتدعوا كثيرا من العبادات والقربات، وحرموا على أنفسهم الطيبات.

ومن الخلاف المذموم تتبع ما ترخص به علماء شاذين في ترخصهم عن بقية أهل العلم، قال صاحب عمدة التحقيق: «الأقوال الشاذة التي تدعى بزلات العلماء، كما نقلنا فيما سلف، من جواز إعارة الجواري للوطء، وجواز الأكل للصائم في رمضان ما بين الفجر والإسفار. فأمثال هذه الأقوال, على فرض صحة نسبتها إلى أصحابها، لا يجوز الأخذ بها البتة; لأنها من الشواذ المخالفة لأصول الشريعة وقواعدها، ولعل هذا هو المراد مما نقل عن الإمام الأوزاعي: من أخذ بنوادر العلماء خرج عن الإسلام».

حكى البيهقي عن إسماعيل القاضي أنه قال: «دخلت على المعتضد ورفع إلي كتابا نظرت فيه، وقد جمع فيه الرخص من زلل العلماء. فقلت: مصنف هذا زنديق، فإن من أباح النبيذ لم يبح المتعة، ومن أباح المتعة لم يبح الغناء، وما من عالم إلا وله زلة، ومن جمع زلل العلماء ثم أخذ به ذهب دينه، فأمر المعتضد بإحراقه».

(١) الحديث صحيح، [المجلة].

٢- الظلم والبغي:

قد يقع الاختلاف بسبب ظلم بعض هذه الأمة لبعض، وبغي بعضها على بعض، وبسبب الظلم والبغي يقع النهي عن أمور شرعها الله على سبيل الوجوب أو الاستحباب، وقد يأمرون بما نهى الله، وقد وقع أهل الكتاب في هذا المرض الخبيث، وذمهم الله بذلك، فقال: ﴿إن الدين عند الله الإسلام وما اختلف الذين أوتوا الكتاب إلا من بعد ما جاء هم العلم بغياً بينهم﴾ [آل عمران:١٩]، وهذا الاختلاف يكون بسبب التباغض والتدابر والتحاسد، فيحمل ذلك فريقا على مخالفة الفريق الآخر في أقواله وأفعاله، وإن كانت حقاً.

٣- الهوى واتباع الظن:

الهوى ما تهواه النفس، والهوى إن لم يكن محكوما بالكتاب والسنة يوقع في المذموم، وكثير من الفرق الضالة كالخوارج والمعتزلة ضلت بسبب اتباع الهوى، وقد حذر الله رسوله من اتباع الهوى فقال: ﴿ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله﴾ [ص:٢٦]، وحذرنا من اتباع أهواء أهل الضلال: ﴿ولا تتبعوا أهواء قوم قد ضلوا من قبل، وأضلوا كثيرا، وضلوا عن سواء السبيل﴾ [المائدة:٧٧].

وقد حمل الهوى اليهود على الكفر بالرسول ﷺ والقرآن الكريم مع علمهم بأن الرسول مرسل من ربه، والقرآن منزل من عند الله، ﴿فلما جاء هم ما عرفوا كفروا به﴾ [البقرة:٨٩]، ﴿الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم﴾ [الأنعام:٢٠]، فقد كان هواهم في أن يكون الرسول منهم لا من بنى إسماعيل.

٤- مخالفة المنهج النبوي في تلقي التشريع والعمل:

من أسباب الاختلاف تجاوز المنهج النبوي في تلقي التشريع والعمل به، يقول ولي الله الدهلوي رحمه الله تعالى: «اعلم أن رسول الله ﷺ لم يكن الفقه في زمانه الشريف مدونا،

ولم يكن البحث في الأحكام يومئذ مثل بحث هؤلاء الفقهاء، حيث يبينون بأقصى جهودهم الأركان والشروط والآداب، كل شيء ممتاز[1]لي عن الآخر بدليله، ويفرضون الصور من صنائعهم[2]، ويتكلمون على تلك الصور المفروضة، ويحدون ما يقبل الحد، ويحصرون ما يقبل الحصر، إلى غير ذلك.

أما رسول الله ﷺ فكان يتوضأ فيرى أصحابه وضوءه، فيأخذون به من غير أن يبين أن هذا ركن، وذلك أدب، وكان يصلي فيرون صلاته، فيصلون كما رأوه يصلي، وحج فرمق الناس حجه، ففعلوا كما فعل، وهذا كان غالب حاله ﷺ، ولم يبين أن فروض الوضوء ستة أو أربعة، ولم يفرض أنه يحتمل أن يتوضأ إنسان بغير موالاة حتى يحكم عليه بالصحة والفساد، إلا ما شاء الله، وقلما كانوا يسألونه عن هذه الأشياء..»[3].

المبحث الثالث: الاختلاف السائغ المقبول

وهذا هو اختلاف المجتهدين من فقهاء ومفتين وحكام في المسائل الاجتهادية، وهي التي لا يوجد فيها نص قطعي، ويشترط لهذا النوع من الاختلاف شروط:

١- أن يكون هذا الاختلاف من أهل الفقه والبصيرة في الدين.

٢- أن يكون اجتهادهم واختلافهم في المسائل الفرعية التى لم يدل دليل قطعي على حكمها.

٣- أن يكون القصد الوصول إلى الحق والصواب.

---

(١) أي مميزاً.

(٢) أي يفترضون وقوع حادثة أو حصول أمر، ويبينون الحكم فيه فيما لو حصل وقوعه.

(٣) الإنصاف في بيان أسباب الاختلاف، لولي الله الدهلوي.

٤- أن يبذل الفقيه أقصى جهده في الوصول إلى الحق، فإذا قصر ذم بتقصيره، وم
التقصير عدم طلبه للدليل من الكتاب والسنة.

وهذا النوع من الاختلاف وقع من الصحابة والتابعين، ولا يذم أحد من الصحابة أ
العلماء الأعلام من التابعين والأئمة الفقهاء بسبب الخلاف الذي وقع منهم، فكله
طلاب حق، فإذا وقعوا في الخطأ في طلبهم للحق فهم معذورون، وفي الحديث: (إذا حك
الحاكم فأصاب فله أجران، وإذا حكم فاجتهد فأخطأ فله أجر)[1].

المبحث الرابع: أسباب الاختلاف السائغ المقبول

الأئمة المجتهدون مع اختلافهم فيما بينهم كان يخطئ بعضهم بعضا، ويوضح كل منه
وجهة نظره، وقد يرجع بعضهم إلى قول بعض، ولكن اختلافهم لم يؤد إلى التهاج
والتباغض والتفرق، ولم يكونوا يجيزون لغيرهم أن يتابعوهم في اجتهادهم من غير معرف
أدلتهم.

ومرادنا هنا بيان الأسباب التي أدت إلى هذا النوع من الاختلاف.

الأول: التفاوت في العقل والفهم والقدرة على تحصيل العلم:

البشر متفاوتون في صورهم وأشكالهم، وهم أشد اختلافا في مواهبهم واستعداداتهم
وميولهم واتجاهاتهم، وعقولهم وذكائهم ومداركهم، وطبائعهم وغرائزهم، وقد كان لهذ
التفاوت تأثير كبير في اختلاف الفقهاء.

فبعض الفقهاء كان ذا قدرة عظيمة على الحفظ والفهم، وآخرون كان حفظهم أجو
من فقههم، وآخرون فقههم أجود من حفظهم.

---

(١) الحديث صحيح، [المجلة].

وقد ضرب الله مثالا في كتابه لهذا النوع من التفاوت في العقل والحفظ، قال تعالى: ﴿أنزل من السماء ماءً فسالت أودية بقدرها﴾ [الرعد:١٧].

يقول ابن كثير في تفسير هذه الآية: ﴿أنزل من السماء ماءً﴾ أي مطراً، ﴿فسالت أودية بقدرها﴾ أي أخذ كل واد بحسبه، فهذا كبير وسع كثيرا من الماء، وهذا صغير وسع بقدره، وهو إشارة إلى القلوب وتفاوتها، فمنها ما يسع علما كثيرا، ومنها ما لا يتسع لكثير من العلوم, بل يضيق عنها[١].

وقد ضرب الرسول ﷺ لتفاوت الناس في هذا مثلاً، ففي الحديث الذي يرويه البخاري ومسلم عن أبي موسي الأشعرى رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: (إن مثل ما بعثني الله من الهدى والعلم، كمثل غيث أصاب أرضاً، فكان منها طائفة قبلت الماء، فأنبتت الكلأ والعشب الكثير، وكانت منها أجادب أمسكت الماء، فنفع الله به الناس، فشربوا ورعوا، وسقوا وزرعوا، وأصاب طائفة أخرى، إنما هي قيعان، لا تمسك ماءً، ولا تنبت كلأً، فذلك مثل من فقه في دين الله، ونفعه الله بما بعثنى به، فعلم وعلم، ومثل من لم يرفع بذلك رأساً، ولم يقبل هدى الله الذي أرسلت به)[٢].

فقد شبه الرسول ﷺ الهدى والعلم بالمطر، والناس بالأرض، والناس يتفاوتون في قبول الهدى والعلم كالأرض، فالأرض الخصبة تقبل الغيث وتنتفع به، فيخرج نباتها بإذن ربها، وبعض الأرض تمسك الماء وتحتفظ به، فيستفيد منه الناس، وقسم ثالث لا تنتفع به ولا تمسكه، وهكذا الناس.

فالقسم الأول من الأرض مضروب للمؤمنين العلماء الفقهاء، الذين يستفيدون من

---

(١) تفسير ابن كثير: (٨١/٤).

(٢) تفسير ابن كثير: (٨٢/٤، وانظر البخاري بشرحه فتح الباري: (١٧٥/١).

علمهم فينفعون أنفسهم وينفعون الناس، والقسم الثاني مضروب للمؤمنين المهتدين الحفظة للدين وفقههم قليل، والقسم الثالث مضروب للذين رفضوا الهدى والعلم.

وقد ثبت في الحديث قول الرسول ﷺ: ((ربَّ حامل فقه إلى من هو أفقه منه، وربَّ حامل فقه ليس بفقيه))[1].

ويقع التفاوت في العلم والفقه بين العلماء الكبار كما يقع بين الأنبياء، قال تعالى: ﴿وداود وسليمان إذ يحكمان في الحرث إذ نفشت فيه غنم القوم وكنا لحكمهم شاهدين، ففهمناها سليمان وكلا آتينا حكما وعلما﴾ [الأنبياء:٧٨-٧٩]، وخلاصة ما قاله أهل التفسير في الآية أن نبي الله داود قضى لأصحاب بستان رعته أغنام قوم ليلا في وقت نضج عناقيده وثماره، فأفسدته وأذهبت ثمره، قضى بالغنم لأصحاب البستان.

فلما علم سليمان قال: لو كان الأمر إلي لقضيت بغير هذا، فدعاه داود لما علم بقوله، وقال له: كيف تقضي؟ فقال: ادفع الغنم إلى صاحب الحرث، فيكون له أولادها وألبانها وسلاؤها ومنافعها، ويبذر أصحاب الغنم لأهل الحرث مثل حرثهم، فإذا بلغ الحرث الذي كان عليه، أخذه أصحاب الحرث، وردوا الغنم إلى أصحابها[2].

وقد يفقه صغار الفقهاء مالا يفقهه كبارهم، ففي صحيح البخاري عن عبد الله بن عمر بن الخطاب قال: قال رسول الله ﷺ: (إن من الشجر شجرة لا يسقط ورقها، وهي مثل المسلم, حدثوني ما هي؟)، فوقع الناس في شجر البادية، ووقع في نفسي أنها النخلة، فأردت أن أقول هي النخلة، فإذا أنا أصغر القوم فسكت، قال النبي ﷺ: (هي النخلة)،

---

(١) رواه أبوداود والترمذي والنسائي، وقال النسائي: حديث حسن صحيح، انظر مشكاة المصابيح: (٧٨/١).
(٢) تفسير ابن كثير: (٥٧٨/٤).

فحدثت أبي بما وقع في نفسي، فقال: لأن تكون قلته أحب إلي من أن يكون لي كذا وكذا[1].

وقد تأتي سعة العلم وكثرة الفقه من التفرغ لطلب العلم وتحصيله، والنظر في كتب العلماء وأهل الفقه ومصاحبة العلماء ومخالطتهم، ففي الحديث: ((إنما العلم بالتعلم، والفقه بالتفقه))[2]، وقد خرج نبي الله موسى في طلب الخضر لما أعلمه الله أنه أعلم منه، وقد أخبرنا الله برحلة موسى في سورة الكهف، وقد أخبرنا أبو هريرة عن السر في إكثاره من حفظ أحاديث الرسول ﷺ، قال: ((إن إخواننا من المهاجرين كان يشغلهم الصفق بالأسواق، وإن إخواننا من الأنصار كان يشغلهم العمل في أموالهم، وإن أبا هريرة كان يلزم رسول الله ﷺ بشبع بطنه، ويحضر ما لا يحضرون، ويحفظ مالا يحفظون))[3].

وقد علل عمر بن الخطاب عدم حفظه لسنة الاستئذان ثلاثا بقوله: ((ألهاني الصفق بالأسواق)).

ونتيجة للقدرات المتفاوتة في العقل والفهم يقع الاختلاف في توجيه الأحكام، وتعليلها واستنباط الأحكام منها، فمن الفقهاء من يستنبط من الآية الحكم والحكمي، ومنهم من يستنبط العشرة والعشرين، قال تعالى: ﴿ولو ردوه إلى الرسول وإلى أولي الأمر منهم لعلمه الذين يستنبطونه منهم﴾ [النساء:٨٣].

---

(١) صحيح البخاري فتح الباري: (١/١٦٥، ١/٢٢٩).

(٢) قال ابن حجر: اسناده حسن، إلا أن فيه مبهما اعتضد بمجيئه من وجه آخر، وروى البزار نحوه من حديث ابن مسعود موقوفاً، ورواه أبونعيم الأصبهاني مرفوعاً، ((فتح الباري)): (١/١٦١)، وقد ذكره البخاري في ترجمة باب انظر ((فتح الباري)): (١/١٦٠)).

(٣) صحيح البخاري: انظر فتح الباري: (١/٢١٣).

وبسبب التفاوت في الفهم اختلف الصحابة في علة النهي عن لحوم الحمر الأهلية، فقال بعضهم: نهى عنها الرسول ﷺ لأنها لم تخمس، وقال بعضهم: نهى عنها لكونها حمول القوم وظهرهم، وفهم آخرون أن النهي لكونها كانت جوالة القرية، وفهم علي بن أبي طالب وكبار الصحابة أن النهي للتحريم، وعلة النهي كونها رجسا[1].

ففي الحديث الذي يرويه البخاري ومسلم وأحمد عن ابن أبي أوفى قال: ((أصابتنا مجاعة -ليالي خيبر- فلما كان يوم خيبر وقعنا في الحمر الأهلية، فانتحرناها، فلما غلت بها القدور نادى منادي رسول الله ﷺ: ((أن اكفئوا القدور، ولا تأكلوا من لحوم الحمر شيئاً))، فقال ناس: إنما نهى عنها رسول الله ﷺ لأنها لم تخمس، وقال آخرون: نهى عنها ألبتة))[2].

ومن ذلك إشكال المراد بالكلالة في قوله تعالى: ﴿وإن كان رجل يورث كلالة﴾ [النساء:١٢]، وقد أشكلت هذه الآية على عمر بن الخطاب، وقد سأل عنها رسول الله ﷺ كثيرا، فأرشده الرسول ﷺ إلى الآية التي في آخر سورة النساء: ﴿يستفتونك قل الله يفتيكم في الكلالة﴾ [النساء:١٧٦]، ومع ذلك فإنها بقيت مشكلة على عمر بن الخطاب كما صرح بذلك أكثر من مرة، وقد فقه أبو بكر الصديق المراد بالكلالة، فالكلالة من لا والد له ولا ولد، والحكم يؤخذ من قرن الآية الأولى بالثانية[3].

ومن دقيق الفهم وجيده استدلال علي بن أبي طالب بآيتين من كتاب الله على أن أقل مدة الحمل ستة أشهر، الآية الأولى قوله تعالى: ﴿وحمله وفصاله ثلاثون شهراً﴾ [الأحقاف:١٥]، والآية الثانية قوله تعالى: ﴿وفصاله في عامين﴾ [لقمان:١٤].

---

(١) أعلام الموقعين: (١/٣٩٤).

(٢) المنتقى للمجد ابن تيمية:(٧٥٥).

(٣) راجع ((تفسير ابن كثير)): (٢/٤٦٤) و((أعلام الموقعين)): (١/٣٩٧).

ففي الآيـة الأولى جمع الحمـل و الفصـال في ثلاثين شـهرا، ثـم بـين في الآيـة الثانيـة أن الفصال يكون في عامين، فيطرح من الثلاثين شهراً أربعة وعشرين التي هي عامـاً الفصـال، فيبقى ستة أشهر، وهذا يسمى عند علمـاء الأصـول بدلالـة الإشـارة، وضابطـه أن يسـاق النص لمعنى مقصود، فيلزم ذلك المعنى المقصود أمـراً آخـر غـير مقصـود بـاللفظ لزومـاً لا ينفك.

وقـد نبـه العلامـة ابـن القيـم رحمـه الله تعـالى إلى أن دلالـة النصـوص نوعـان: حقيقيـة وإضافية, فالحقيقية تابعة لقصد المتكلم وإرادته، وهذه الدلالة لا تختلف.

والإضافية تابعة لفهم السامع وإدراكه وجودة فكـره وقريحتـه، وصفـاء ذهنـه، ومعرفتـه بالألفاظ ومراتبها، وهذه الدلالة تختلف اختلافا متباينـا بحسـب تبـاين السـامعين في ذلـك، وقد كان أبو هريرة وعبد الله بن عمرو أحفظ الصحابـة للحديـث، وأكـثرهم روايـة لـه، وكان الصديق وعمر وعلي وابن مسعود وزيد بن ثابت أفقه منهما، بل عبد الله بن عباس أفقه منهما ومن عبد الله بن عمر.

وقد أنكر الرسول ﷺ على عمر فهمه إتيان البيت الحرام عام الحديبية من إطلاق قولـه: (إنك ستأتيه وتطوف به)، فإنه لا دلالة في هذا اللفظ على تعيين العام الذي يأتونه فيه.

وأنكر على عدي بن حاتم فهمه من الخيط الأبيض والخيط الأسود نفس العقالين.

وأنكر على من فهم من قوله: (لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال حبة من خردل من كبر) شمول لفظه لحسن الثوب وحسن النعل، وأخبرهم أن الكبر بطر الحق وغمط الناس.

وأنكر على من فهم من قوله: (من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه، ومن كره لقـاء الله كره الله لقاءه) أنه كراهية الموت، وأخبرهم أن هذا للكافر إذا احتضر، وبشر بـالعذاب،

فإنه حينئذ يكره لقاء الله، ويكره الله لقاءه، وأن المؤمن إذا احتضر، وبشر بكرامة ا
أحب لقاء الله، وأحب الله لقاءه[1].

وأشكل على بعض الصحابة قوله تعالى: ﴿الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم أولـ
لهم الأمن وهم مهتدون﴾ [الأنعام:٨٢]، فقالوا: أينا لم يظلم نفسه؟ فقال النبي ﷺ: (ليـ
بالذي تعنون، ألم تسمعوا ما قال العبد الصالح: ﴿إن الشرك لظلم عظيم﴾ [لقمان:١٣
إنما هو الشرك)[2].

وأشكل على عائشة قوله تعالى: ﴿والذين يؤتون ما آتوا وقلوبهم وجلـ
[المؤمنون:٦٠]، فقالت: يا رسول الله، الذين يؤتون ما آتوا وقلوبهم وجلة هو الـ
يسرق ويزني ويشرب الخمر، وهو يخاف الله عزّ وجل؟ قال: (لا يا ابنة الصديق، ولكـ
الذي يصلي ويصوم ويتصدق، وهو يخاف الله عزّ جل)[3]، وبعد وفاة الرسول ﷺ احتـ
الصحابة إلى الاجتهاد في فقه ما أشكل عليهم من ذلك، فمما أشكل على بعض الصحـ
المراد بالكلالة فى قوله تعالى: ﴿يستفتونك قل الله يفتيكم في الكلالة﴾ [النساء:١٧٦
فكان أبو بكر يقول: ((الكلالة من لا والد له ولا ولد)) وكان عمر يقول: ((الكلالة من
ولد له))[4]. وكان عمر يقول: ((ثلاث لأن يكون الرسول بينهن لنا أحب إلي من الد
وما فيها: الخلافة، والكلالة، والربا))[5].

---

(١) أعلام الموقعين: (١٩٢/١)، وقد ذكر أمثلة كثيرة أخرى، وفيما نقلناه عنه كفاية لتوضيح المراد.
(٢) رواه البخاري، انظر تفسير ابن كثير: (٥٩/٣).
(٣) رواه أحمد في مسنده، والترمذي وابن أبي حاتم، تفسير ابن كثير: (٢٥/٥). والحديث صحيح، [المجلة
(٤) الحاكم، وقال صحيح على شرطهما، راجع ابن كثير: (٤٦٨/٢).
(٥) الحاكم، وقال صحيح على شرطهما، راجع ابن كثير: (٤٦٨/٢).

الثاني: التفاوت في الحصيلة العلمية

من أعظم أسباب اختلاف الفقهاء تفاضلهم في العلم، أعني علم الكتاب والسنة، فالفقيه كلما كان أعلم بالكتاب والسنة كان حكمه أقرب إلى الصواب، وإذا كانت آيات الكتاب معدودة محصورة يمكن الإ حاطة بها، فإن أحاديث الرسول ﷺ كثيرة يصعب الإحاطة بها وإحصاؤها، فقد كان الرسول ﷺ يقول القول أو يفعل الفعل، فيحضره الثلاثة والأربعة من أصحابه أو أكثر أو أقل، ولم يكن يسمع كل أصحابه أو يرون كل ما يفعل أو يقول، فلما توفي الرسول ﷺ كانت سنته محفوظة عند مجموع الصحابة، ولم يجمع فرد من الصحابة جميع السنة في صدره أو في كتاب.

وكان الصحابة يتفاوتون فى حفظ السنة، فمنهم الذي يحفظ الحديث والحديثين، ومنهم الذي يحفظ عدة ألوف، ومنهم بين ذلك.

وتفرق الصحابة في الأمصار، وبث كل صحابي محفوظه من السنة بين القوم الذين حل فيهم، فأصبح علم الرسول ﷺ متفرقاً في الأمصار، فعند أهل كل مصر جملة من السنة، فكان علماء كل مصر يفتون بما عندهم من الأحاديث، ويجتهدون في أمور أخرى لم يبلغهم فيها أحاديث الرسول ﷺ، وقد يوافقون الحديث في اجتهادهم وقد يخطئون، ثم قد يبلغهم الحديث بعد ذلك، وقد لا يبلغهم.

ثم هيأ الله لهذه الأمة رجالاً من أصحاب العزائم القوية، والهمم العالية، والنية الخالصة، فساروا في العالم الإسلامي مشرقين ومغربين، وجمعوا سنة رسول الله ﷺ، ودونوها في الصحاح والمسانيد والمعاجم, وبعض هذه المدونات مشهورة معروفة، وبعضها غير مشهور، وتيسر الاطلاع على سنة الرسول ﷺ تيسيرا كبيرا.

ولكن بقيت الإحاطة بالسنة عسيرة بل مستحيلة، فالمدونات كثيرة، ولو استطاع الفقيه جمعها، فلن يستطيع الاطلاع عليها، وإن استطاع الاطلاع عليها، فلن يكون على ذكر

لكل حديث فيها. أضف إلى هذا أن وجهات النظر تختلف في الحكم على بعض الأحاديث, فيصحح فريق من العلماء أحاديث، بينما يذهب آخرون إلى القول بضعفها,وهذا باب واسع أدى إلى اختلاف العلماء، كما هو معروف عند أهل العلم.

ومن التفاوت في العلم التفاوت في الضبط وتحقيق المسائل، فقد يقع الاختلاف بسبب عدم الضبط، وبسبب ظن المرء الأمر على غير ما هو عليه، وقد يكون ذلك بسبب الخطأ والنسيان، وكل ذلك راجع إلى التفاوت في العلم.

أمثله لهذا الضرب من الاختلاف

نسوق في هذا المبحث بعض الأمثلة ليتضح كيف كان التفاضل في العلم سبباً في الاختلاف.

١- كان أبو هريرة - رضي الله عنه - يفتي من أصبح جنبا ببطلان صومه،[١] ولم يبلغه حديث عائشة: أن رجلا قال يا رسول الله تدركني الصلاة وأنا جنب أفأصوم؟ فقال رسول الله ﷺ: (وأنا تدركني الصلاة وأنا جنب فأصوم)، فقال: لست مثلنا يا رسول الله، قد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر، فقال: (والله إني لأرجو أن أكون أخشاكم لله، وأعلمكم بما أتقي). رواه أحمد ومسلم وأبو داود[٢].

ولم يبلغه حديث عائشة وأم سلمة: «أن النبي ﷺ كان يصبح جنبا من جماع غير احتلام، ثم يصوم في رمضان»، متفق عليه[٣].

٢- كان عبدالله بن عمرو بن العاص يأمر النساء إذا اغتسلن من حيض أو نفاس أو

---

(١) المنتقى للمجد ابن تيمية: ٣٤٢.

(٢) المنتقى للمجد ابن تيمية: ٣٤٢.

(٣) المنتقى للمجد ابن تيمية: ٣٤٣.

جنابة أن ينقضن شعر رؤوسهن، حتى يصل الماء إلى أصوله، ولم يكن بلغه في ذلك سنة عن رسول الله ﷺ.

وقد أنكرت عائشة على ابن عمرو قوله، وردته بالحديث الذي يدل على خلاف قوله، ففي مسند أحمد وصحيح مسلم عن عبيد بن عمير قال: بلغ عائشة أن عبد الله بن عمرو يأمر النساء إذا اغتسلن أن ينقضن رؤوسهن، فقالت: «يا عجبا لابن عمرو، وهو يأمر النساء إذا اغتسلن بنقض رؤوسهن! ألا يأمرهن أن يحلقن رؤوسهن، لقد كنت أغتسل أنا ورسول الله ﷺ من إناء واحد، وما أزيد على أن أفرغ على رأسي ثلاث إفراغات»[1].

٣- كان عمر بن الخطاب -رضي الله عنه- يرى أن لابس الخف يمسح عليه إلى أن يخلعه، لا يوقت لذلك وقتا، واتبعه على ذلك طائفة من السلف[2]، ولم تبلغهم أحاديث التوقيت في ذلك.

فقد روى شريح بن هانئ قال: سألت عائشة عن المسح على الخفين فقالت: سل عليا، فإنه أعلم بهذا مني، كان يسافر مع رسول الله ﷺ، فسألته فقال: قال رسول الله ﷺ:«للمسافر ثلاثة أيام ولياليهن، وللمقيم يوم وليلة». رواه أحمد ومسلم والنسائي وابن ماجة[3].

وعند خزيمة بن ثابت عن النبي ﷺ: أنه سئل عن المسح على الخفين، فقال: «للمسافر ثلاثة أيام ولياليهن، وللمقيم يوم وليلة». رواه أحمد وأبوداود والترمذي وصححه[4].

٤- نقض الوضوء بلمس النساء باليد، فقد ساق الترمذي حديث عروة عن عائشة: أن

---

(١) المنتقى للمجد ابن تيمية: ٧٢.
(٢) رفع الملام عن الأئمة الأعلام: ١٩.
(٣) المنتقى: (٥٢).
(٤) المنتقى: (٥٢).

النبي ﷺ؛ قبل بعض نسائه، ثم خرج إلى الصلاة ولم يتوضأ»[1]، ثم قال الترمذي: «وقا روي هذا عن غير واحد من أهل العلم من أصحاب النبي ﷺ والتابعين، وهو قول سفيان الثوري وأهل الكوفة، قالوا: «ليس في القبلة وضوء».

وقال مالك بن أنس والأوزاعي والشافعي وإسحاق: «في القبلة وضوء، وهو قول غير واحد من أهل العلم من أصحاب النبي ﷺ والتابعين»[2].

ثم بين الترمذي أن السبب في ترك جمع من أهل الحديث القول بمقتضى الحديث إنما هو ضعف اسناده.

وقد أفاض محقق سنن الترمذي العلامة الشيخ أحمد محمد شاكر في بيان إسناد هذا الحديث بما لا يدع مجالا لإنكار صحة الحديث[3]، والشافعي -رحمه الله تعالى- لم يجزم بالقول إن اللمس ينقض الوضوء، بسبب تشككه في صحة الحديث، فقد قال رحمه الله في حديث عروه عن عائشة السابق: «إن ثبت حديث معبد بن نباتة في القبلة، لم أر فيها ولا في اللمس وضوءا»[4] وقال أيضا: «روى معبد بن نباتة عن محمد بن عمر بن عطاء عن عائشة عن النبي ﷺ: أنه كان يقبل، ولا يتوضأ، وقال: لا أعرف حال معبد, فإن كان ثقة فالحجة فيما روى عن النبي ﷺ»[5][6].

---

(١) السنن للترمذي: (١٣٣/١). ورواه أبوداود والنسائي، انظر المنتقى: (٥٥).

(٢) السنن للترمذي: (١٣٣/١).

(٣) انظر تعليقه على السنن: (١٣٥/١)، وما بعدها، وقد ذكر من صححه من العلماء، وهم ابن عبدالبر، وأبوداود والبيهقي.

(٤) بداية المجتهد لابن رشد: (٣٩/١).

(٥) تلخيص الحبير: (٤٤/١).

(٦) اكتفينا بهذه الأمثلة الأربعة، ومن أراد الاطلاع على المزيد من الأمثلة فليرجع إلى: «رفع الملام عن الأئمة الأعلام» لابن تيمية، «الإنصاف في مسائل الخلاف» للدهلوي، وغيرهما من الكتب التي تبين أسباب الاختلاف.

ومن الاختلاف في العلم الراجع إلى الوهم وعدم الضبط والسهو والنسيان أن الرسول ﷺ حج قارنا، فتوهم بعض الصحابة أنه حج متمتعا أو قارنا، وأهل الرسول ﷺ بالحج بعد فراغه من الصلاة من ذي الحليفة، فتوهم بعض الصحابة أنه أهل بالحج حينما استقل ناقته، أو عندما علا شرف البيداء.

ومن الاختلاف بسبب السهو والنسيان ماروى ابن عمر: أن الرسول ﷺ اعتمر في رجب، سهواً أو نسياناً؛ لأنه لم يعتمر في رجب أبدا، وقد خطأت عائشة قول من نسب إلى رسول الله ﷺ أنه قال: (إن الميت يعذب ببكاء أهله عليه) ووصفته بعدم الضبط[1].

الثالث: التفاوت في الإحاطة بعلوم اللغة العربية:

أنزل الله القرآن الكريم باللغة العربية، ﴿وكذلك أنزلناه قرآناً عربياً﴾ [طه:١١٣-]، واختار الرسول الخاتم عربياً، بل هو أفصح العرب، ولا يستطيع العلماء أن يفقهوا القرآن الكريم وأقوال الرسول ﷺ ما لم يتعلموا لغة العرب، ويتفاوت العلماء في الوقوف على الأحكام الشرعية تفاوتا بينا بسبب تفاوتهم في معرفة لسان العرب، وبسبب إدراكهم لأسرار اللغة العربية، ومن هنا يحصل الاختلاف بين العلماء بسبب هذا التفاوت.

الرابع: الاختلاف في مدى حجية بعض المصادر الفقهية:

اختلف العلماء في الفروع نتيجة لاختلافهم في حجية بعض الأصول التى تؤخذ منها الفروع، فقد اختلف الفقهاء في حجية القراءات الشاذة، والحديث المرسل، والقياس، والإجماع، والعرف، والمصالح المرسلة, والاستحسان، وشرع من قبلنا، فكل من يرى أن واحدا من هذه الأصول حجة فإنه يعمله في إثبات بعض الأحكام الشرعية، والفريق الذي لا يعتبر ذلك حجة يرد ذلك ويبطله، ويبطل ما يبنى عليه، ما لم يدل عليه دليل آخر.

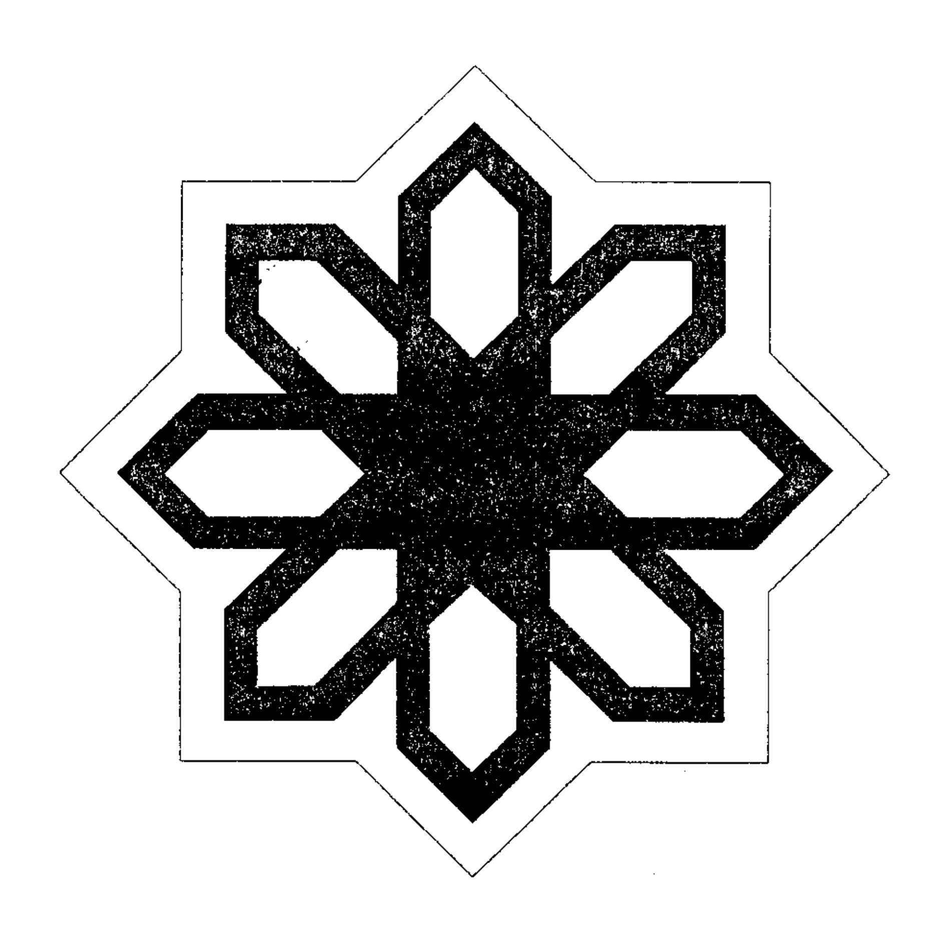
---

(١) راجع الانصاف في مسائل الخلاف: (٢٩-٢٨).

الخامس: الاختلاف في القواعد الأصولية:

والمراد بالقواعد الأصولية الأسس والخطط والمناهج التي يضعها المجتهد نصب عينيه عنا البدء والشروع في الاستنباط؛ لكي يشيد عليها صرح مذهبه، ويكون ما يتوصل إليه ثمـرا ونتيجة لها.

وهذا الاختلاف فى القواعدالأصولية من أهم أسباب الاختلاف .



شهادة الإنجيل

على أن عيسى عليه السلام عبدالله ورسوله، وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه

(الجزء الأول)

بقلم : الشيخ عبدالرحمن عبدالخالق
رئيس لجنة البحث العلمي في جمعية إحياء التراث الإسلامي الكويتية

طبيعة هذه الدراسة :

هذه دراسة تفسيرية لنصوص الإنجيل لإثبات أن عيسى عبدالله ورسوله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه كما جاء في القرآن والسنة.

بين المؤلف فيها تناقض النصارى في حقيقة المسيح وبين بالأدلة العقلية فساد الذي ابتدعوه، وأن عيسى عليه السلام لم يدع إلا إلى التوحيد الذي دعا إليه جميع الأنبياء عليهم السلام[1].

(١) ويأتي هذا البحث في جزئين، وفي هذا العدد ننشر الجزء الأول، وننشر الجزء الثاني في العدد القادم بإذن الله تعالى.

المقدمة

لا شك، ولا ريب عند كل مسلم أن الله سبحانه وتعالى أنزل كتاباً مقدساً على عبده ورسوله عيسى بن مريم عليه السلام، وقد سمى الله هذا الكتاب «الإنجيل»، كما قال تعالى في سورة المائدة في القرآن الكريم: ﴿وقفينا على آثارهم بعيسى ابن مريم مصدقاً لما بين يديه من التوراة وآتيناه الإنجيل فيه هدى ونور ومصدقاً لما بين يديه من التوراة وهدى وموعظة للمتقين. وليحكم أهل الإنجيل بما أنزل الله فيه ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الفاسقون﴾ [المائدة:٤٦-٤٧].

في هاتين الآيتين دليل واضح على أن الله أنزل كتابه الإنجيل على عيسى ابن مريم، مصدقاً لما سبقه من التوراة، وأن عيسى عليه السلام جاء مصدقاً لما في التوراة. وأنزل الله عليه الإنجيل كذلك مصدقاً لما جاء في التوراة، ثم إن الإنجيل نزل من الله هدى ونوراً وموعظة للمتقين، وقد أمر الله النصارى أن يحكموا بما أنزل الله فيه، ولا شك أنهم لو حكموا بما أنزل فيه لآمنوا بمحمد ﷺ، واتبعوه، وذلك أن محمداً ﷺ قد جاء بكتاب مصدق لما سبقه من التوراة، والإنجيل. فالكتب الثلاثة: التوراة، والإنجيل، والقرآن كلها من الله، وكل كتاب يصدق الكتاب الذي جاء قبله.

والقرآن -بحمد الله- قد تهيأ له من أسباب الحفظ ما لم يتهيأ للتوراة، والإنجيل، ثم هو الكتاب الخاتم، لذلك كان ما فيه مهيمنا على ما سبقه؛ فهو المرجع عند الخلاف، وهو الحكم الفصل؛ لأنه كلمة الله الختامية إلى الناس، كما قال تعالى: ﴿وأنزلنا إليك الكتاب بالحق مصدقاً لما بين يديه من الكتاب ومهيمنا عليه فاحكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم﴾ [المائدة:٤٨].

ولا شك أن الإنجيل والتوراة قد نالهما كثير من التحريف والتبديل بقصد من منافقي الديانتين، أو بغير قصد منهم. والقرآن -بحمد الله- هو كلمة الفصل؛ فقد جاء مكذباً

اليهود فيما ادعوه وكتبوه في التوراة من أن الله استراح في اليوم السابع من عمله الذي عمل خالقاً... فقال تعالى في القرآن:

﴿ولقد خلقنا السموات والأرض وما بينهما في ستة أيام وما مسنا من لغوب﴾ [ق:٣٨]. وهذا هو الواجب لله سبحانه وتعالى أنه لا يصيبه تعب ولا نصب: ﴿إنما قولنا لشيء إذا أردناه أن نقول له كن فيكون﴾ [النحل:٤٠].

وكذلك كذب النصارى فيما ادعوه وكتبوه في الإنجيل من أن عيسى -عليه السلام- هو ابن الله نسباً وجزءاً، وأن اليهود قبضوا عليه، وصلبوه، وبصقوا في وجهه، وصفعوه على قفاه، وسمروا رجليه بالمسامير في خشبة الصليب، وسقوه خلا قبل أن يموت، وكتبوا كل ذلك في الإنجيل المقدس عندهم. ولا شك أن هذا كذب، وضلال محض فإن عيسى عبدالله ورسوله، ما كان الله ليسلمه إلى أعدائه، ليفعلوا به هكذا؛ لأن الرسل جميعاً؛ عدا الأنبياء ينجيهم الله جميعاً، ولا يوجد رسول واحد إلا أنجاه الله، ونصره، وأعزه، وعيسى من هؤلاء. وأما الأنبياء وخيار المؤمنين، فإنه قد يقع لهم التعذيب، والقتل، والصلب، ونحو ذلك، وهذا بلاء منه سبحانه وتعالى. وأما الرسل فلأنهم في موضع التحدي، فإن سنة الله الجارية أن ينجيهم، ولا يسلمهم لعدوه وعدوهم؛ لأنه لو مكن عدوهم منهم، تسقط حجتهم، وتهدم رسالتهم، ويكون حجة للناس للطعن في صدقهم بأنهم مرسلون من خالق السموات والأرض سبحانه وتعالى.

والشاهد هنا أن عيسى عليه السلام عبدالله، ورسوله، وكلمته، أنجاه الله، ورفعه إلى السماء حياً، ولم يمكن منه أعداءه اليهود، الذين سعوا في قتله، بل قال الله تعالى في القرآن الكريم، بياناً لإجرام اليهود، وتعديداً لظلمهم وفجورهم: ﴿وقولهم إنا قتلنا المسيح عيسى بن مريم رسول الله وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم﴾ [النساء:١٥٧].

وهذه الآية القرآنية قاضية أن ما زعمه النصارى في إنجيلهم من أن عيسى صلب كذب محض، وإضافة إلى الإنجيل المنزل بما ليس منه.

وهناك طريقان للتدليل على أن الأناجيل التي بأيدي النصارى اليوم فيها كثير من المحرف المكذوب، والخطأ الذي ربما وقع باجتهاد، وحسن قصد:

١- تناقض نصين بعضهما مع بعض تناقضاً كلياً، يستحيل معه الجمع بينهما.

٢- مخالفة صريح القرآن الكريم، وهو كتاب الله الحاكم على كل كتاب قبله.

ولا شك في أن الإنجيل الذي بيد النصارى اليوم فيه كثير من الهدى، والنور الذي يصدق القرآن الكريم، ولو أن النصارى أقاموا ما بقي في هذا الكتاب من الهدى والنور، لاهتدوا إلى الحق، وآمنوا بالرسول الخاتم ﷺ.

وعملنا في هذه الرسالة الموجهة لهم، ولكل مسلم، هو إبراز وإظهار الحق الموجود في الإنجيل، الذي لو أخذوا به لهدوا إلى الصراط المستقيم ومن ذلك أساس المعتقد: بشرية عيسى عليه السلام، وأنه حقاً عبد الله، ورسوله، وكلمته التي ألقاها إلى مريم، وروح منه، كما جاء بذلك الكتاب العزيز القرآن، ونطق بذلك سيد المرسلين، وإمام المتقين سيدنا ونبينا محمد ﷺ، أولى الناس بعيسى بن مريم، وأحق الناس بموالاته، ونصره وتأييده؛ لأن عيسى هو الرسول المبشر الأخير به، وليس بينه وبين نبينا محمد ﷺ نبي.

ثم تبيين ما في هذه الأناجيل من الاختلاف، والاضطراب، والتناقض لتبيين أن كل ما فيها ليس هو كلمة الله، وأنه المنزل المعصوم الذي لا يجوز خلافه، بل في الأناجيل التي بأيديهم ما هو ملفق مكذوب، أو منتحل قد أخطأ فيه من كتبه، وأضافه إلى كلام الله سبحانه وتعالى.

والخلاصة أن التوراة، والإنجيل، ما زال فيهما كثير من الهدى، والنور الذي بقي، لم تنله يد التحريف والتبديل، وقد أبقاه الله حجة على أهل الكتاب، ولو طبقوه، لاهتدى كل منهم إلى الحق؛ فاليهود لو طبقوا التوراة، وأقاموها، لآمنوا أولاً بعيسى بن مريم عليه الصلاة والسلام، الذي جاء مصدقاً لما في التوراة، عاملاً به، مؤيداً بالمعجزات من الله،

والبينات الدالة على صدقه، وأمانته، ولكنهم اختلفوا في شأنه، فمنهم من آمن بعيسى، ومنهم من كفر به، كما قال تعالى عنه:

﴿ورسولاً إلى بني إسرائيل أني قد جئتكم بآية من ربكم أني أخلق لكم من الطين كهيئة الطير فأنفخ فيه فيكون طيراً بإذن الله، وأبرئ الأكمه والأبرص وأحيي الموتى بإذن الله وأنبئكم بما تأكلون وما تدخرون في بيوتكم إن في ذلك لآية لكم إن كنتم مؤمنين. ومصدقاً لما بين يدي من التوراة ولأحل لكم بعض الذي حرم عليكم وجئتكم بآية من ربكم فاتقوا الله وأطيعون. إن الله ربي وربكم فاعبدوه هذا صراط مستقيم، فلما أحس عيسى منهم الكفر قال من أنصاري إلى الله﴾ [آل عمران:٤٩-٥٢].

وقال أيضا: ﴿يا أيها الذين آمنوا كونوا أنصار الله كما قال عيسى ابن مريم للحواريين من أنصاري إلى الله قال الحواريون نحن أنصار الله فآمنت طائفة من بني إسرائيل وكفرت طائفة فأيدنا الذين آمنوا على عدوهم فأصبحوا ظاهرين﴾ [الصف:١٤].

فاليهود الذين آمنوا بعيسى هم الذين اتبعوا الحق، وعملوا بما جاءهم في التوراة. وكذلك لو أن النصارى أقاموا الإنجيل، وما أوصاهم به عيسى بن مريم عليه الصلاة والسلام، لآمنوا بالقرآن، وبمحمد ﷺ، واتبعوه. ولكن كان منهم من عرف الحق وآمن، وكان منهم من كفر، فأيد الله عبده ورسوله محمدا ﷺ، وأمته من بعده، على أهل الكتاب، فغلبوهم، وهزموهم، وأزال الله دولتهم، كما قال سبحانه وتعالى:

﴿الذين آتيناهم الكتاب من قبله هم به يؤمنون. وإذا يتلى عليهم قالوا آمنا به إنه الحق من ربنا إنا كنا من قبله مسلمين. أولئك يؤتون أجرهم مرتين بما صبروا ويدرءون بالحسنة السيئة ومما رزقناهم ينفقون﴾ [القصص:٥٢-٥٤].

وقال سبحانه وتعالى أيضا: ﴿الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم وإن فريقاً منهم ليكتمون الحق وهم يعلمون﴾ [البقرة:١٤٦].

ولا شك أن معرفة اليهود والنصارى بالنبي محمد ﷺ قبل مبعثه إنما كانت بما عندهم في التوراة والإنجيل من صفة النبي محمد ﷺ، والبشارة به على لسان موسى، ولسان عيسى عليهما الصلاة والسلام، كما قال تعالى لموسى:

﴿ورحمتي وسعت كل شيء فسأكتبها للذين يتقون ويؤتون الزكاة والذين هم بآياتنا يؤمنون. الذين يتبعون الرسول النبي الأمي الذي يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث ويضع عنهم إصرهم والأغلال التي كانت عليهم﴾.. الآيات [الأعراف:١٥٦-١٥٧].

وكل ذلك يدل، بما لا شك فيه، على أن التوراة، والإنجيل، أو ما يسميه النصارى؛ بالعهد القديم، والعهد الجديد، قد بقي فيهما من الهدى، والنور، والحق، ما تقوم به الحجة على أتباعهما، وما لو طبقوه، لاتبعوا الحق كله، وآمنوا بالرسول محمد ﷺ، الذي جاء مصدقاً لما معهم، ومؤيداً بالبينات من ربه، وسائراً في طريق الأنبياء الذين أرسلوا إليهم.

وقد عقد شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله- فصلاً مطولاً في هذا الموضوع في كتابه العظيم «الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح» بيّن أقوال الناس في حقيقة التوراة والإنجيل، التي بأيدي الناس الآن، فقال:

«والصحيح أن هذه التوراة، والإنجيل الذي بأيدي أهل الكتاب، فيه ما هو حكم الله، وإن كان قد بدل، وغير بعض ألفاظهما لقوله تعالى:

﴿يا أيها الرسول لا يحزنك الذين يسارعون في الكفر من الذين قالوا آمنا بأفواههم ولم تؤمن قلوبهم ومن الذين هادوا، سماعون للكذب سماعون لقوم آخرين لم يأتوك يحرفون الكلم﴾[المائدة: ٤١] إلى قوله: ﴿ وكيف يحكمونك وعندهم التوراة فيها حكم الله﴾ [المائدة:٤٣].

فعلم أن التوراة التي كانت موجودة بعد خراب بيت المقدس، بعد مجيء «بختنصر»[1]، وبعد مبعث المسيح، وبعد مبعث محمد ﷺ، فيها حكم الله.

والتوراة التي كانت عند يهود المدينة، على عهد اليهود الذين كانوا في زمن رسول الله ﷺ، وإن قيل: إنه غير بعض ألفاظها بعد مبعثه، فلا نشهد على كل نسخة في العالم بمثل ذلك، فإن هذا غير معلوم لدينا، وهو أيضا متعذر، بل يمكن تغيير كثير من النسخ، وإشاعة ذلك عند الأتباع، حتى لا يوجد عند كثير من الناس إلا ما غير بعد ذلك، ومع هذا فكثير من نسخ التوراة والإنجيل متفقة في الغالب، إنما يختلف في اليسير من ألفاظها ؛ فتبديل ألفاظ اليسير من النسخ بعد مبعث الرسول ممكن، ولا يمكن أحدا أن يجزم بنفيه، ولا يقدر أحد من اليهود، أو النصارى أن يشهد بأن كل نسخة في العالم بالكتابين متفقة الألفاظ ؛ إذ هذا لا سبيل لأحد إلى علمه، والاختلاف اليسير في ألفاظ هذه الكتب موجود في المتواتر، لا يحتاج أن يحفظ في كتاب، كما قال تعالى:

﴿إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون﴾ [الحجر:٩]، وذلك أن اليهود قبل النبي ﷺ، وعلى عهده، وبعده، منتشرون في مشارق الأرض ومغاربها، وعندهم نسخ كثيرة من التوراة، وكذلك النصارى عندهم نسخ كثيرة من التوراة، ولم يتمكن أحد من جمع هذه النسخ، وتبديلها، ولو كان هذا ممكنا ، لكان ذلك من الوقائع العظيمة التي تتوفر الدواعي على نقلها، وكذلك في الإنجيل قال تعالى: ﴿وليحكم أهل الإنجيل بما أنزل الله فيه﴾ [المائدة:٤٧].

فعلم أن في هذا الإنجيل حكماً أنزله الله تعالى، لكن الحكم هو من باب الأمر والنهي، وذلك لا يمنع أن يكون التغيير في باب الإخبار، وهو الذي وقع فيه التبديل لفظاً. وأما

---

(١) رداً على من يقول: إن التوراة بقيت صحيحة إلى دخول بختنصر البيت المقدس وإحراقه.

الأحكام التي وردت في التوراة، فما يكاد أحد أن يعي التبديل في ألفاظها»[1]، وقد أ
ا الله سبحانه وتعالى أهل التوراة أن يحكموا بما أنزل الله فيها كما قال تعالى:

﴿إنا أنزلنا التوراة فيها هدى ونور يحكم بها النبيون الذين أسلموا للذين هاد
والربانيون والأحبار بما استحفظوا من كتاب الله وكانوا عليه شهداء فلا تخشوا النا
واخشون ولا تشتروا بآياتي ثمناً قليلاً ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون
[المائدة: ٤٤].

وكذلك قال سبحانه وتعالى:

﴿وليحكم أهل الإنجيل بما أنزل الله فيه ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هـ
الفاسقون﴾ [المائدة:٤٧].

وقال تعالى أيضا: ﴿قل يا أهل الكتاب لستم على شيء حتى تقيموا التوراة والإنجي
وما أنزل إليكم من ربكم...﴾ [المائدة:٦٨].

ولا شك أن أهل التوراة لو حكموا بالتوراة حقاً في العقيدة، والشريعة، لآمنوا بعيسـ
بن مريم -عليه السلام- مصدقاً، وعاملاً بما فيها، ثم ناسخاً لبعض أحكامها، والنسـ
موجود في كل الشرائع، حتى في شريعة النبي الواحد، الذي قد يبيح حكماً في وقت ما ه
رسالته، ثم ينزل نسخه بعد مدة. وكذلك لو أقام النصارى ما أنزل إليهم من ربهم
الإنجيل، وما أمروا أن يحكموا به من التوراة لأوصلهم ذلك إلى الإيمان بمحمد ﷺ
وتصديقه، واتباعه، فقد جاء مكملاً لما جاء به الأنبياء قبله، ومبشراً به منهم. ولا يتصو
أن يأمر الله أهل الكتابين أن يحكموا بما أنزل إليهم والتوراة وجميع ما فيها مكذوب، بل
بد أن يكون فيهما الحجة، والحق كما قال الله سبحانه وتعالى لما جاءت اليهود لتحكي

---

(١) الجواب الصحيح: (١/٣٦٨، ٣٦٩).

رسول الله ﷺ في شأن يهودية ويهودي زنيا، قال: ﴿وكيف يحكمونك وعندهم التوراة فيها حكم الله﴾ [المائدة:١٥-١٧]. فحكم الله بالرجم باقٍ في التوراة، وقد قرأه عبدالله بن سلام بمحضر من رسول الله.

وعلى الرغم من وقوع التحريف، إلا أن في بعض التوراة، والإنجيل -كما أسلفنا- إلا أنه ممكن الاستدلال عليه، ومعرفته، وذلك لأنه أولاً قليل بالنسبة إلى ما لم يبدل، ثم إن ما لم يبدل قد جاء بنصوص واضحة صريحة يؤيد بعضها بعضاً، ويكشف ما سواه مما دخله التحريف، والتغيير، ثم إن القرآن بحمد الله حاكم، وشاهد، ومهيمن، على ما جاء قبله من الكتب كما قال الله تعالى: ﴿يا أهل الكتاب قد جاءكم رسولنا يبين لكم كثيراً مما كنتم تخفون من الكتاب ويعفو عن كثير قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين، يهدي به الله من اتبع رضوانه سبل السلام، ويخرجهم من الظلمات إلى النور بإذنه ويهديهم إلى صراطٍ مستقيم. لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح ابن مريم قل فمن يملك من الله شيئاً إن أراد أن يهلك المسيح ابن مريم وأمه ومن في الأرض جميعاً ولله ملك السموات والأرض وما بينهما يخلق ما يشاء والله على كل شيء قدير﴾ [المائدة:٤٣].

وقال تعالى أيضاً: ﴿وأنزلنا إليك الكتاب بالحق مصدقاً لما بين يديه من الكتاب ومهيمناً عليه﴾ [المائدة:٤٨].

قول شيخ الإسلام ابن تيمية أن المحرف من التوراة والإنجيل قليل يمكن معرفته:

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله - جوابا لمن قال:

«إذا كان التبديل قد وقع في ألفاظ التوراة والإنجيل، قبل مبعث محمد ﷺ، لم يعلم الحق من الباطل، فسقط الاحتجاج بهما، ووجوب العمل بهما على أهل الكتاب، فلا يذمون حينئذ على ترك اتباعهما. والقرآن قد ذمهم على ترك الحكم بما فيهما، واستشهد بهما في مواضع؟.

يقول شيخ الإسلام: وجواب ذلك: «أن ما وقع من التبديل قليل، والأكثر لم يبدل، والذي لم يبدل فيه ألفاظ صريحة بينة بالمقصود، تبين غلط ما خالفها، ولها شواهد، ونظائر متعددة، يصدق بعضها بعضا، بخلاف المبدل فإنه ألفاظ قليلة، وسائر نصوص الكتب يناقضها، وصار هذا بمنزلة كتب الحديث المنقولة عن النبي ﷺ، فإنه إذا وقع في سنن أبي داود، والترمذي أو غيرهما أحاديث قليلة ضعيفة، وكان في الأحاديث الصحيحة الثابتة عن النبي ﷺ ما يبين ضعف تلك، بل كذلك صحيح مسلم فيه ألفاظ قليلة غلط، وفي نفس الأحاديث الصحيحة مع القرآن ما يبين غلطها»[1].

عملنا في هذه الرسالة:

والذي فعلناه في هذه الرسالة المباركة - إن شاء الله تعالى - هو استخراج النصوص الدالة على عقيدة التوحيد من الإنجيل، وأن عيسى - عليه الصلاة والسلام - لم يكن إلا عبد الله ورسوله، وأنه خلق بكلمة الله «كن»، كما كان شأن آدم، كما قال تعالى في القرآن الكريم: ﴿إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال كن فيكون﴾ [آل عمران:٥٩]، وأن هذه الكلمة حملها الملك «روح القدس» الذي ينزل على الأنبياء، وأنه نفخ في مريم فخلق الله من هذه النفخة عيسى -عليه السلام- كما قال تعالى:

﴿فأرسلنا إليها روحنا فتمثل لها بشراً سوياً. قالت إني أعوذ بالرحمن منك إن كنت تقياً. قال إنما أنا رسول ربك لأهب لك غلاماً زكياً...﴾ [مريم:١٧-١٩] الآيات.

ففي نصوص الإنجيل الموجودة الآن ما يؤيد هذه العقيدة الصحيحة، بل في نصوص الإنجيل هذه العقيدة الصحيحة، وأن عيسى ما هو إلا عبد أنعم الله عليه، وجعله مثلا لبني إسرائيل، كما قال تعالى: ﴿إن هو إلا عبد أنعمنا عليه وجعلناه مثلا لبني إسرائيل﴾ [الزخرف:٥٩].

---

(١) الجواب الصحيح: (١/٣٧٨).

وقد عنيت باستخراج هذه النصوص من الإنجيل الذي بأيدي النصارى الآن، وذكرت ما يؤيد ذلك من القرآن الكريم الذي جاء يصدق ما جاء في الإنجيل الحق.

هدفنا في هذه الرسالة:

١- أن نزداد إيمانا بأن الذي جاء به نبينا محمد ﷺ هو الحق من ربه، وأنه جاء بأخبار من أخبار الرسل، ما كان يقرؤها، ولا اطلع عليها، وقد جاء بها كما جاءت في الكتب السابقة تماماً. وهذا من أعظم الأدلة على أنه رسول الله حقاً وصدقاً، فإن هذا لا يعرف من رجل أمي لم يقرأ، ولم يكتب، فلم يبق طريق يعلم به إلا الوحي.

٢- دعوة أهل الكتاب أن يراجعوا الحق، ويقيموا التوراة، والإنجيل، وما جاءهم على لسان أنبيائهم الصادقين -عليهم السلام- ولا يحيدوا عنه، فيزداد غضب الله عليهم، ويستمروا في درب الغواية والضلال.

٣- تقديم سلاح وحجة بأيدي المؤمنين يدافعون به عن معتقدهم، ويقيمون به الحجة على من كفر من اليهود والنصارى. ويوقنون بأن ما جاءهم من الله في القرآن هو الحق الذي لم يشب، والذي تكفل الله بحفظه، وأنهم على الهدى الذي ارتضاه الله لعباده الصالحين، وأنهم أولى الناس بموسى، وعيسى، عليهما الصلاة والسلام، وأن أمتهم هي الأمة المهتدية التي أنعم الله عليها. وأن تمتلئ قلوبهم محبة لله، وإيماناً، واطمئناناً للإسلام، وهم يدعون في صلاتهم: ﴿اهدنا الصراط المستقيم، صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين﴾ [الفاتحة: ٦-٧].

اليهود مغضوب عليهم، والنصارى الضالون، وأهل الإسلام هم الذين أنعم الله عليهم.

والحمد لله أولاً وأخيراً

أولاً: عيسى يعلم إبليس أنه لا سجود إلا لله، وأن الله هو الرب وحده سبحانه وتعالى

في إنجيل متى الإصحاح الرابع:

«ثم صعد الروح بيسوع إلى البرية، ليُجَرَّب من قبل إبليس. وبعدما صام أربعين نهاراً، وأربعين ليلة، جاع أخيراً، فتقدم إليه المُجَرِّب وقال له: «إن كنت ابن الله، فقل لهذه الحجارة أن تتحول إلى خبز!» فأجابه قائلا: «قد كتب: ليس بالخبز وحده يحيا الإنسان، بل بكل كلمة تخرج من فم الله!»، ثم أخذه إبليس إلى المدينة المقدسة، وأوقفه على حافة سطح الهيكل، وقال له: «إن كنت ابن الله، فاطرح نفسك إلى أسفل، لأنه قد كتب: يوصي ملائكته بك، فيحملونك على أيديهم لكي لا تصطدم قدمك بحجر!» فقال له يسوع: «وقد كتب أيضاً: لا تجرب الرب إلهك!»».

ثم أخذه إبليس أيضاً إلى قمة جبل عالٍ جداً، وأراه جميع ممالك العالم وعظمتها، وقال له: «أعطيك هذه كلها إن جثوت وسجدت لي!» فقال له يسوع: «إذهب يا شيطان! فقد كتب: للرب إلهك تسجد وإياه تعبد!».

فتركه إبليس، وإذا بعض الملائكة جاءوا إليه وأخذوا يخدمونه».

وفي هذا النص من الأدلة على عبودية المسيح لله ما يلي:

١- أن روح القدس «وهو ملاك الرب الذي ينزل بالوحي من الله للأنبياء»؛ أصعد عيسى إلى البرية؛ ليمرنه ويجربه على عصيان إبليس والرد عليه، ويعرفه بأساليبه في الغواية ليحذرها. ويستحيل لو كان عيسى هو الله، أو أنه الله، كما تدعي النصارى، أن يأخذه الملاك ليعلمه!! كيف يتقي شر الشيطان. فهل يحتاج خالق للسموات والأرض إلى تعليم؟!

٢- صام عيسى أربعين يوماً وليلة وجاع... فهل الرب يصوم ويجوع!! أم أن الرب الإله لا بد أن يكون غنياً عن كل ما سواه؟ قال تعالى في القرآن في بيان بطلان كون عيسى وأمه إلهين: ﴿ما المسيح ابن مريم إلا رسول قد خلت من قبله الرسل وأمه صديقة كانا يأكلان الطعام انظر كيف نبين لهم الآيات ثم انظر أنى يؤفكون﴾ [المائدة:٧٥].

فمن يحتاج إلى الطعام لا يكون إلهاً ورباً وخالقاً؛ لأن الإله الرب لا بد أن يكون غنياً عن كل ما سواه. ولا شك أن من يأكل من البشر ويشرب يبول ويتغوط... فهل يوصف الإله بذلك؟ أليس لمن يقول بألوهية المسيح وربوبيته من عقل يميزون بين الرب الإله الخالق المنزه عن كل نقص وبين الإنسان المحتاج الفقير العاجز؟؟

٣- تقدم الشيطان إليه ليجربه بقوله له: إن كنت ابن الله اقلب هذه الأحجار إلى خبز.. أي لتأكل منها بعدما جعت، ورد عيسى عليه بأنه: «ليس بالخبز وحده يحيا الإنسان، بل بكل كلمة تخرج من فم الله».

ومعنى أنه ليس بالخبز وحده يحيا الإنسان؛ أي إن الحياة الحقيقية ليست بما يحيي الجسد فقط، وإنما الحياة الحقيقية بما يحيي الروح. فمن آمن بالله وعمل بكلماته فهو الحي حقيقة. وأما الكافر الذي يعيش لبطنه فقط، فهو ميت في ظاهر حي. كما قال تعالى في القرآن: ﴿أو من كان ميتا فأحييناه وجعلنا له نوراً يمشي به في الناس كمن مثله في الظلمات ليس بخارج منها﴾ [الأنعام:١٢٢]؛ أي لا يستوي هذا وهذا... فمن كان ميتاً أي بالكفر، فأحييناه أي بالإيمان، وجعلنا له نوراً؛ أي هداية وشريعة، يعرف بها الحلال من الحرام، والحق من الباطل، والهدى من الضلال، والشرك من التوحيد، والصلاح من الفساد. ليس يستوي هذا ومن هو ضال لا يهتدي، يعيش للدنيا فقط، ولا يميز بين شرك وتوحيد، وهدى وضلال، وخير وشر.

معنى ابن الله كما ورد في النص:

٤- ألفاظ ابن الله التي جاءت في الأناجيل والكتب المقدسة عند النصارى من المتشابه، الذي يجب رده إلى المحكم، فإن هذه اللفظة «ابن الله» استخدمت في عيسى، وفي أتباعه، وفي كل مؤمن بالله غير كافر به... وقد ادعاها كل من اليهود والنصارى جميعاً، كما قال تعالى في القرآن: ﴿وقالت اليهود والنصارى نحن أبناء الله وأحباؤه﴾ [المائدة:١٨].

وهذه الكلمة تحتمل معنيين: بنوة الهداية، والإيمان، والتشريف، وهو ما يسمونه بالبنوة الروحية. ويقال في مقابلها: أبناء الشيطان، وأبناء الأفاعي، كما جاء في الإنجيل في وصف اليهود: «يا أبناء الأفاعي». والكل يعلم أنهم ليسوا أبناء الأفاعي من النسب، ولا الشيطان من الصلب، وإنما نسبوا إلى الأفاعي لمكرهم وخطرهم، وسمومهم، وإلى الشيطان لتلبيسهم، وكذبهم.

والنسبة إلى الله بالأبناء للهداية، والتوفيق، والعمل بشريعة الله، والسير على هداه، والاستضاءة بنوره المنزل على عباده المرسلين.

والمعنى الثاني: بنوة النسب، والابن الذي هو قطعة من أبيه، وبضعة منه.

ولا شك عند كل ذي لب، وإيمان، وبصيرة، وتمييز بين الخالق والمخلوق، أن المعنى الثاني منتف عن الله سبحانه وتعالى، فليس بين الله وبين أحد من خلقه بنوة نسب قط، تعالى عن ذلك علواً كبيراً. وإذا كانت هذه اللفظة: «ابن الله» دائرة في المعنى بين بنوة التشريف، والإيمان، والتقديس، والمحبة... وبين بنوة النسب، والولادة، والجزئية، فتكون هذه اللفظة هنا من المتشابه الذي يجب أن يحمل على المحكم، الذي لا يتغير معناه. واللفظ المحكم هو ما لا يكون معناه إلا واحدا، ولا يختلف أهل اللسان فيه، ولا أهل العقل حول حقيقة معناه.

ونحن نورد هنا عشرات من الأدلة من الإنجيل نفسه أن لفظ «ابن الله» الوارد في

الأناجيل، وفي كتب رسل المسيح -عليه السلام- ما أريد بها إلا بنوة التشريف، والتقديس، والرفعة، والمحبة، وأنها لا تنتمي إلى بنوة النسب والولادة، بأي حال. تعالى الله عما يقول الجاهلون الضالون علواً كبيراً.

فقول إبليس المتكرر.. «إن كنت ابن الله» هو من هذا الباب. ومن ذلك قول عيسى لتلاميذه: «وصلوا لأجل الذين يسيئون إليكم، ويضطهدونكم لتكونوا أبناء أبيكم الذي في السموات»[1].

وقوله عليه السلام: «فعندما تصلي فادخل غرفتك، وأغلق عليك بابك، وصل إلى أبيك الذي في الخفاء، وأبوك الذي يرى في الخفاء هو يكافئك»[2].

ومثل هذا كثير جداً من الكلام المنسوب إلى السيد المسيح عليه السلام. وكله شاهد أنه كان يستعمل اسم «الأب» في التعبير عن الله بمعنى المربي، والذي يكلأ عباده المؤمنين، وليس بمعنى أبوة النسب. تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً.

٥- قول إبليس لعيسى: «إن كنت ابن الله فاطرح نفسك إلى أسفل لأنه قد كتب: يوصي ملائكته بك فيحملونك على أيديهم لكي لا تصطدم قدمك بحجر»!! فقال عيسى: «وقد كتب أيضاً: لا تجرب الرب إلهك»!!.

في هذا النص إقرار عيسى لإبليس على النص السابق من كلام الله، وأنه هو المقصود به. وإذا كان هو المقصود بذلك، فكيف يكون هو ابن الله أو الله كما يدعون ويزعمون أن صفاته وأعماله هي صفات الرب وأعماله، ثم يقال عنه: «يوصي ملائكته بك»!!.

فهل يحتاج الإله الرب أن يوصى عليه، وأن يكون للملائكة حفظ له وحماية له ألا

---

(١) متى: (٦/٤٥).
(٢) متى: (٦/٧).

يصطدم قدمه بحجر!!، وهل يكون من يحتاج أن تحميه الملائكة من السقوط إلا عبداً محتاجاً ذليلاً فقيراً؟!!

٦- قول عيسى -عليه السلام- رداً على إبليس وقد كتب أيضا: «لا تجرب الرب إلهك».

فهذا من أعظم الأدلة على أن عيسى يعتقد أن الله سبحانه وتعالى هو ربه، وهو إلهه، وأنه لا يحسن به أن يجربه، بمعنى أن يطلب منه شيئاً، لينظر أيقدر عليه أم لا؟.

فإذا كان عيسى -عليه السلام- هو الله كما يزعمون فمن يجرب؟! هل يجرب أبوه؟! فينظر أيحميه من الحجارة أم لا؟ أم يجرب نفسه، فينظر هل يستطيع، إذا قفز من فوق الهيكل، أن يحمي نفسه من السقوط أم لا ؟ تباً لعقول تقرأ ولا تفقه!!.

هل هناك أصرح من هذا الدليل في أن عيسى عليه السلام -يتبرأ من الحول والقوة ويجعل الله وحده هو صاحب الحول والقوة، وأنه هو وحده ربه وإلهه.

٧- دعوة إبليس للمسيح -عليه السلام- أن يسجد له! وقوله له بعد أن أراه من فوق جبل عالٍ جداً جميع ممالك العالم، وعظمتها: «أعطيك هذه كلها إذا جثوت، وسجدت لي!» وقول عيسى عليه السلام رداً عليه: «اذهب يا شيطان. وقد كتب: للرب إلهك تسجد، وإياه وحده تعبد» فيه من الأدلة على فساد معتقد النصارى في ألوهية المسيح، وربوبيته الشيء الكثير، فمن ذلك:

أ- عرض إبليس عليه ممالك الدنيا، وإيراءه إياها، وإطلاعه عليها، ولو كان عيسى هو الله، أو ابن الله، لقال له: أنا مالكها، وخالقها، وهي لي، وتحت تصرفي، بل ما كان لإبليس أن يتجرأ أصلاً ليقول للإله: أعطيك هذه إن سجدت لي!.

ب - عجباً أن يأمر إبليس خالق السموات والأرض أن يسجد له!! ألا يستحيي النصارى وهم يقرأون هذا الكلام!! ألا يستحيون أن من يعتقدون فيه الألوهية والربوبية

أن يصحبه إبليس، ويعرض عليه السجود له مقابل أن يملكه الدنيا.

ج - لو كان عيسى هو الله أو ابن الله، لما كان رده على عرض إبليس هذا أن يقول: لا، قد نزل في كتب الأنبياء السابقين: «للرب إلهك تسجد وإياه وحده تعبد».

هل هناك أصرح من هذا في أن عيسى دعا إلى عبادة الله خالق السموات، والأرض، وأن عيسى لا يعبد إلا الله، ولا يسجد إلا له، سبحانه وتعالى.

يكفي هذا الدليل لكل من يريد بصيرة في الدين أن عيسى عليه السلام جاء ليقول كما قال الله عنه: ﴿وقال المسيح يا بني إسرائيل: اعبدوا الله ربي وربكم إنه من يشرك بالله فقد حرم الله عليه الجنة ومأواه النار وما للظالمين من أنصار﴾ [المائدة: ٧٢].

د - يأس الشيطان من عيسى، وذهابه عنه، وعدم قدرته عليه حق لعصمة الله له، تحقيقا لقول امرأة عمران أم مريم عندما وضعت مريم: ﴿رب إني وضعتها أنثى والله أعلم بما وضعت وليس الذكر كالأنثى وإني سميتها مريم وإني أعيذها بك وذريتها من الشيطان الرجيم﴾ [آل عمران: ٣٦]، وليس من ذرية مريم إلا عيسى عبدالله ورسوله، وقد أعاذه الله من الشيطان الرجيم صغيراً وكبيراً.

٨- وقول الإنجيل: «فتركه إبليس، وإذا بعض الملائكة جاءوا إليه وأخذوا يخدمونه» دليل جديد على عبودية المسيح. فالذي يحتاج إلى الخدمة هو العبد الفقير المحتاج، وهم جاؤوه، ولم يستدعهم، وهذا مما يدل على أن الله أرسلهم إليه، وهم كانوا يخدمونه، ولم يأتوا ليعبدوه، والرب سبحانه وتعالى تعبده الملائكة، ولا تخدمه ؛ لأنه الحي القيوم القائم بنفسه المقيم لغيره. فالملائكة تحتاج إليه، وهي فقيرة إليه، وأما هو، فغني عن الجميع، سبحانه وتعالى.

ثانياً: عيسى عليه السلام يبشر في بلدته الناصرة التي تطرده وترفضه

ذكر إنجيل لوقا أن عيسى عليه الصلاة والسلام بدأ «معموديته» على يد يوحنا المعمدان «يحيى بن زكريا عليهما السلام»، وأنه بينما كان يصلي «هكذا» انفتحت السماء، وهبط عليه روح القدس، متخذاً هيئة جسمية مثل حمامة، وانطلق صوت من السماء يقول: «أنت ابني الحبيب، بك سررت كل سرور»[1].

وعلى الرغم من أن هذا كله حكاية، وليس كلاماً منزلاً من الله سبحانه وتعالى كما نرى، ولا هو مروي، أو منقول من قول عيسى -عليه السلام-، ومعلوم أن لوقا كاتب هذا الإنجيل لم يكن أيضا تلميذاً للمسيح عليه السلام،.. على الرغم من كل هذا إلا أن هذا النص يدل دلالة قطعية على أن عيسى لم يكن إلا رسولاً نزل عليه الوحي، وليس هو ابن الله نسباً، أو ذاتاً، أو أقنوماً، كما ادعت النصارى بعد ذلك، وهذه هي الأدلة:

١- ذكره أن عيسى تعمد... والرب لا يتعمد؛ أي يؤهل ليدخل في خدمة الله وعبادته. فكيف يتعمد الرب؟... ألعبادة نفسه؟!! أم لعبادة أبيه؟! أم لعبادة ذاته ؟!! تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً...

٢- قوله: «بينما كان يصلي»، والرب لا يصلي لأحد، لأنه هو المعبود سبحانه وتعالى.

٣- قوله: «هبط عليه روح القدس مثل حمامة» يدل على أن روح القدس هذا هو الملاك الذي ينزل على الأنبياء، وليس أقنوماً، ولا جزءاً من الله، كما ادعت النصارى. وهذا إبطال لقولهم «إن الله ثالث ثلاثة»؛ لأنه لو كان روح القدس، الذي كان مثل حمامة جزءاً

---

(١) لوقا: (٣/٢١).

من الله -تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً-، وكان المسيح جزءاً آخر، وكان الله في السموات جزءاً ثالثاً، كما تدعي النصارى، لكان هذا من أبطل الباطل؛ لأنه ليس إلا رب واحد، تعالى أن يكون له جزء، كما قال تعالى في القرآن الكريم: ﴿وجعلوا له من عباده جزءا إن الإنسان لكفور مبين﴾ [الزخرف:١٥].

فكيف يدعي النصارى - وهذه مقالتهم في الشرك والتثليث -أنهم يؤمنون بوحدانية الله سبحانه وتعالى؟!!

٥- فرضنا أن من روى هذا الإنجيل سمع النداء، الذي انطلق من السماء يقول: «أنت ابني الحبيب بك سررت كل سرور»، فإن هذا لا يعني بحال أن عيسى بن مريم -عليه السلام- جزء منه، تعالى الله سبحانه وتعالى عما يقول المبطلون علواً كبيراً. وإنما كما يطلقون على الله بأنه الأب فيقولون: «أبانا الذي في السموات»، وكما يذكرون أن عيسى قال لهم مراراً «أبي، وأبيكم»؛ فلماذا لا يكون معنى البنوة هنا بنوة الرحمة والتعليم والإرسال؟

وبعد هذا النص السابق ساق الإنجيل هذا النص تحت عنوان:

الناصرة ترفض يسوع:

«وعاد يسوع إلى منطقة الجليل بقدرة الروح؛ وذاع صيته في القرى المجاورة كلها. وكان يعلم في مجامع اليهود، والجميع يمجدونه. وجاء إلى الناصرة، حيث كان قد نشأ، ودخل المجمع كعادته يوم السبت، ووقف ليقرأ، فقدم إليه كتاب النبي أشعياء، فلما فتحه، وجد المكان الذي كتب فيه: «روح الرب علي، لأنه مسحني لأبشر الفقراء؛ أرسلني لأنادي للمأسورين بالإطلاق، وللعميان بالبصر، لأطلق المسجونين أحراراً، وأبشر بسنة القبول عند الرب». ثم طوى الكتاب وسلمه إلى الخادم، وجلس. وكانت جميع عيون الحاضرين في المجمع شاخصة إليه. فأخذ يخاطبهم قائلا: «اليوم تم ما سمعتم من آيات».

وشهد له جميع الحاضرين، متعجبين من كلام النعمة الخارج من فمه، وتساءلوا: «أليس هذا ابن يوسف؟»، فقال لهم: «لا شك أنكم تقولون لي هذا المثل: أيها الطبيب اشف نفسك! فاصنع هنا في بلدتك ما سمعنا أنه جرى في كفر ناحوم....».

ثم أضاف: «الحق أقول لكم: كان في إسرائيل أرامل كثيرات في زمان إيليا، حين أغلقت السماء ثلاث سنين وستة أشهر، حتى حدثت مجاعة عظيمة في الأرض كلها ؛ ولكن إيليا لم يرسل إلى أية واحدة منهن، بل إلى امرأة أرملة في صرفة صيدا، وكان في إسرائيل، في زمان النبي أليشع، كثيرون مصابون بالبرص؛ ولكن لم يطهر أي واحد منهم، بل نعمان السوري!». فامتلأ جميع من في المجمع غضبا لما سمعوا هذه الأمور، وقاموا يدفعونه إلى خارج المدينة، وساقوه إلى حافة الجبل، الذي بنيت عليه مدينتهم ليطرحوه إلى الأسفل. إلا أنه اجتاز من وسطهم، وانصرف».

وفي هذا النص من الأدلة على عبودية المسيح ما يأتي:

١- قوله: «وعاد يسوع إلى منطقة الجليل بقدرة الروح» فيه دليل أنه ليس الله أو ابن الله كما يدعون، وأن له قدرة إلهية من ذاته، وهنا يقول: إنه عاد إلى الجليل بقدرة الروح؛ أي إن الملك أعانه ليذهب إلى الجليل. ومن في حاجة إلى الملك لا يكون رباً، ولا إلها ، ولا خالقاً، ولا قادراً بنفسه.

٢- قول عيسى -عليه السلام- لمن كان يعلمهم ويعظهم في مجمع الناصرة: «اليوم تم ما قد سمعتم من آيات»، أي إنه تحقق وعد الله، الذي جاء على لسان النبي أشعياء، والنص هو: «روح الرب علي، لأنه مسحني لأبشر الفقراء، وأرسلني لأنادي للمأسورين بالإطلاق، وللعميان بالبصر، لأطلق المسجونين أحراراً، وأبشر بسنة القبول للرب»...

هل هناك ما هو أصرح من هذا النص في أن عيسى هو رسول الله، الذي بشرت به الأنبياء، فالنص يقول: «روح الرب علي: أي وحي الله إلى طريق الله روح

القدس».وانظر فلم يقل روح الرب هي ذاتي، أو أقنومي، أو جزئي، أو نفسي، ومعنى؛ مسحني لأبشر الفقراء»: أي جعلني مسحاً، والمسيح سواء أريد به من يمسح بالزيت على عادة بني إسرائيل عندما يتنبأ منهم نبي، أو المسيح من المسح وهو المحو للشرك، والكفر، أو غير ذلك، فالمعنى على كل حال بمعنى النبوة والرسالة، وليس بمعنى الألوهية والربوبية.

ثم قوله: «أرسلني لأنادي للمأسورين بالإطلاق... إلخ» دليل على أنه نبي مرسل، وليس هو الرب، أو ابنه النازل إلى البشر، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً.

٣- لقد كان رد أبناء بلدة «الناصرة» على عيسى -عليه السلام- رداً في منتهى السوء، والقباحة، والإفك، فبدلاً من الاعتراف برسالته، ونبوته، إذا بهم يسبونه في عرضه، ويتهمونه أنه «ابن زنا»!!! حاشاه -عليه الصلاة والسلام.

فيقول له هؤلاء المجرمون: «أليس هذا ابن يوسف؟»؛ أي يوسف النجار، الذي كان كما ذكر خطيباً لمريم -عليها السلام- قبل أن ينزل عليها ملاك الرب، ويبشرها بعيسى عليه السلام، كما جاء في القرآن الكريم: ﴿فأرسلنا إليها روحنا فتمثل لها بشراً سوياً. قالت إني أعوذ بالرحمن منك إن كنت تقيا، قال إنما أنا رسول ربك لأهب لك غلاماً زكياً...﴾

وهؤلاء المجرمون من اليهود أبناء بلدته الذين جاءوا ليستمعوا إلى مواعظه في الهيكل ردوا عليه هذا الرد، عندما قال لهم: «إنه مسيح الرب الذي جاء ليفتح الله به آذاناً صماً، وقلوباً عمياً، ويفك أسر المأسورين من معاصيهم، الذين قيدهم الشيطان بخطاياهم، ويبشرهم بمغفرة الذنوب». لقد كان ردهم على هذه الدعوة الكريمة أن قالوا: «أليس هذا ابن يوسف؟» متهمين إياه... ولما قالوا له هذا القول الفاجر الآثم، وأنكروا عصمته، وعصمة أمه، وأنكروا نبوته بعد أن شاعت في كل بلدان اليهودية، عند ذلك ردّ عليهم قائلا:

«لا كرامة لنبي في بلده!!» «ما من نبي يقبل في بلده»!! «لا يكون النبي بلا كرامة إلا في بلدته وبيته».

ثم بين لهم أن أهله، وأولى الناس به من يقبلونه، ويؤمنون برسالته، وأخبرهم أن نبي الله إيليا لم يشفع وقت المجاعة إلا إلى أرملة غير إسرائيلية، وأن اليشع لم يشفع في شفاء مريض إلا مريضاً سورياً غير إسرائيلي.. «نعمان السوري»، وأخبرهم أن رحمة الله برسالة عيسى قد لا تصيب إلا من هم خارج بني إسرائيل، وأن ما يمكن أن يجريه الله على يديه من خير قد يحوزه غير أبناء بلده «الناصرة»، التي كفرت به!!

ولما سمع أبناء بلده هذا الكلام كان من شأنهم أن أخرجوه منها، «وساقوه إلى حافة الجبل، الذي بنيت عليه مدينتهم «ليطرحوه إلى أسفل».

وكل هذا النص شواهد أنه لم يقل: إني إله، وإنما قال لهم فقط: إنني نبي، ولا كرامة لنبي في بلده، فلماذا لم يقل لهم: «أنا ربكم وخالقكم»...؟

وهل كان يليق بالرب أن يقول له أهل بلدته «هكذا ؟!» أنت ابن زنا... وهل ينزل الرب سبحانه وتعالى من السماء؛ ليقول له البشر الذين خلقهم ورزقهم: ألست ابن يوسف النجار؟... سبحانك ربنا لا إله إلا أنت أستغفرك، وأتوب إليك، وأعتذر لك حتى ترضى من ذكر هذا الكفر، وسبحانك لا أحد أصبر على أذى منك وحدك!! يدعون لك الولد، وأنت ترزقهم، وتعافيهم. لا إله إلا أنت. سبحانك لا نحصي ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك!! وتعاليت عما يقول المجرمون الظالمون علواً كبيراً.

٤- وهل ينزل الرب من عليائه سبحانه وتعالى ليقبض عليه أهل بلدته «هكذا»، ثم «يدفعونه إلى خارج المدينة، ويسوقونه إلى حافة الجبل ليطرحوه»... هل من يفعل به هكذا يكون ربا إلهاً خالقاً للسموات والأرض؟! وهل يليق بالرب ذلك؟!

ثالثاً: معجزات عيسى عليه السلام
لا تدل إلا على أنه نبي مرسل مؤيد بالمعجزات

لا يوجد في الأناجيل كلها رغم ما نالها من التحريف، والخطأ نص واحد يقول فيه عيسى عليه السلام: إنه الله، أو إنه ابن الله بنوة نسب، وولادة، وجزء. تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً...

أو أن ذاته ذات الله، وفعله فعله، أو أن مشيئته مساوية لمشيئة الرب، أو أنه خالق، أو رازق أو مصور، بل الموجود على العكس من ذلك تماماً. ولو كان عيسى إلهاً، ورباً، وخالقاً، ورازقاً، كما يدعي الضالون، لأظهر ذلك، وقاله؛ إذ إن مثل ذلك هو الاعتقاد... ألا نرى إلى قول الله سبحانه وتعالى في القرآن وهو يذكر عن نفسه جل وعلا أنه هو الخالق، والرازق، والبارئ، والمصور، والذي بيده الأمر كله، وإليه يرجع الأمر كله، وأن له كل صفات المجد، والألوهية، والربوبية، لا ينازعه أحد، ولا يشاركه مشارك، وليس لأحد معه من الأمر شيء.. بل لا يملك أحد من كل خلقه ملائكة، وإنساً وجناً، لنفسه من أمره خيراً، ولا شراً، إلا بمشيئة الرب الواحد سبحانه وتعالى.

وعيسى -عليه السلام- لم يدع شيئاً من ذلك قط، ولا خلع على نفسه قط صفة من صفات الألوهية، والربوبية، بل تكلم بضد ذلك تماماً. ذكر أنه عبد يصلي، ولا مشيئة له مع مشيئة من أرسله، وأظهر دائما من الضعف، والعجز، والخوف، والتبرء من الحول، والطول، ما يظهر لكل ذي عينين أنه عبد الله ورسوله، وليس ابن الله، أو الله، أو أن له شركة مع الله في شيء من صفاته قط.

وعامة ما روته الأناجيل، وتمسك به الضالون في ادعاء ربوبية المسيح -عليه السلام- بعض المعجزات والبركات، والكرامات، التي أظهرها الله على يديه كإحياء بعض الموتى، وشفاء من لهم آفات وعاهات دائمة يعجز الطب عنها، وإخراج بعض الأرواح الشريرة،

والشياطين، التي تتلبس بعض الناس. وقد أفاضت الأناجيل بخاصة في قضيـة تخليـص بعـ
الناس الذين تلبست بهم الشياطين. علماً بأن هذا الأمر يجري على يد أناس بسطاء من
محمد ﷺ، بل ذ كـر عـن بعـض سـادة هـذه الأمـة الإسلامية كالإمـام أحمـد بـن حنبـل
الشياطين كانت تخرج ممن تلبست به بمن يأمرها باسمه، دون أن يتكلـف عنـاء الذهـاب
المريض بنفسه، أو حتى نقلـه إليـه. وهنـاك مـن أمـة محمـد ﷺ مـن أخـرج آلافـاً مـن هـ
الشياطين من جسوم المرضى، والذين يؤذونهم، ويصرعونهم...

وأما إحياء الموتى، فقد كان على يد كثير من الأنبياء قبل عيسى -عليـه السـلام- كـ
جاء في قتيل بني إسرائيل على عهد موسى، وطيور إبراهيم.

وأما شفاء الأمراض المستعصية، فهي معجزة لهـذا النـبي الكريـم. وقـد جـاء وصفـه
القـرآن: ﴿وجعلـني مباركـا أينمـا كنـت وأوصـاني بـالصلاة والزكـاة مــا دمــت حيـ
[مريم: ٣١]. فعيسى رسول مبارك، ومن بركته ما أجرى الله على يديه من الخير والبرّ
للناس في الدنيا، كشفاء من شفى من المرضـى، والخـير والبركـة في الآخـرة، كـالدعوة
الإيمان، والتوحيد، وابتغاء ما عند الله سبحانه وتعالى... وكل هذه المعجزات، والكرام
قد جرى أمثالها على يد كثير من الأنبياء، والمرسلين، وخيار الصالحين، ولا يعـني مطلقـاً
فاعلها هو الرب الإله خالق السموات والأرض.

وهذه نماذج مما جاء في الإنجيل عن معجزاته عليه السلام -، والبركات التي أجراها الله على يديه

أ- يسوع يطرد روحاً نجساً:

جاء في إنجيل لوقا ما يلي: «ونزل إلى كفرناحوم، وهي مدينة بمنطقة الجليل، وأخذ يعل
الشعب أيام السبت. فذهلوا من تعليمه، لأنه كلمته كانت ذات سـلطة. وكـان في المجـ

رجل يسكنه روح شيطان نجس، فصرخ بصوت عال: «آه! ما شأنك بنا يا يسوع الناصري ؟ أجئت لتهلكنا؟ أنا أعرف من أنت: أنت قدوس الله». فزجره يسوع قائلا: «إخرس، واخرج منه». وإذ طرحه الشيطان في الوسط، خرج منه، ولم يصبه بأذى. فاستولت الدهشة على الجميع، وأخذوا يتساءلون فيما بينهم: «أي كلمة هي هذه؟ فإنه بسلطة وبقدرة يأمر الأرواح النجسة فتخرج!» وذاع صيته في كل مكان من المنطقة المجاورة»[1].

ب - يسوع يشفي الله على يديه كثيرين:

«ثم غادر المجمع، ودخل بيت سمعان. وكانت حماة سمعان تعاني حمى شديدة، فطلبوا إليه إعانتها، فوقف بجانب فراشها، وزجر الحمى، فذهبت عنها، فوقفت في الحال، وأخذت تخدمهم. ولما غربت الشمس، أخذ جميع الذين كان عندهم مرضى مصابون بعلل مختلفة يحضرونهم إليه، فوضع يديه على كل واحد منهم، وشفاهم. وخرجت أيضا شياطين من كثيرين، وهي تصرخ قائلة: «أنت ابن الله»، فكان يزجرهم، ولا يدعهم يتكلمون؛ إذ عرفوا أنه المسيح.

ولما طلع النهار خرج، وذهب إلى مكان مقفر. فبحث الجموع عنه حتى وجدوه، وتمسكوا به لئلا يرحل عنهم. ولكنه قال لهم: «لا بد لي من أن أبشر المدن الأخرى أيضا بملكوت الله، لأني لهذا قد أرسلت». ومضى يبشر في مجامع اليهودية»[2].

ومن الأدلة في هذا النص على عبودية المسيح لله، وأنه رسول الله ما يأتي:

١- قول الشيطان لعيسى عليه السلام: «ما شأنك بنا يا يسوع الناصري»..

---

(١) ومثل هذا العمل يقوم به اليوم وأمس ألوف من أمة محمد ﷺ، ولا يدعي لهم أحد نبوة، ولا ألوهية، أو ربوبية.
(٢) لوقا: (٤/٣١-٤٤).

فقد نسبه إلى بلدته. وأقره عيسى على ذلك. ومثل هذا المنسوب إلى بلدة لا يكون إله وربا، وخالقا.

٢- قول الشيطان له: «أنت قدوس الله»، وإقرار عيسى لذلك. والمعنى أنت مقدس من قبل الله سبحانه وتعالى. ولا شك أن عيسى مقدس؛ لأن الله سبحانه وتعالى قدسه وطهره، وزكاه، والذي يقدسه الله لا يكون هو الله.

٣- قول الشياطين له: «أنت ابن الله» لا تعني أنه جزء منه، وأنه ولده نسباً وصهر كما ذكرنا ذلك مراراً، وإنما هذا جار على عادتهم في استعمال هذا اللفظ.

٤- قال عيسى في النهاية: «لا بد لي أن أبشر المدن الأخرى بملكوت الله لأني له أرسلت» نص واضح جلي على أنه رسول مرسل من الله سبحانه وتعالى، وأنه لم يأت بنفسه.

٥- قول راوى الإنجيل: «ومضى يبشر في مجمع اليهودية»؛ أي إنه رسول إلى بني إسرائيل، كما قال تعالى في القرآن عنه: ﴿ورسولا إلى بني إسرائيل﴾ [آل عمران:٤٩]... الآية.

الجميع يشهدون بأن عيسى عليه السلام نبي الله بعد أن رأوا معجزاته:

وهذا نص آخر يبين أن الشعب اليهودي الذي أرسل إليهم عيسى -عليه السلام- شهد كثير منهم له بالنبوة، بعد أن رأوا ما أجرى الله على يديه من المعجزات.

ج - يسوع يحيى ابن الأرملة[1]:

«وفي اليوم التالي ذهب إلى مدينة اسمها نابين، يرافقه كثيرون من تلاميذه وجمع عظيم

(١) إنجيل لوقا: ٧/١١-١٧.

ولما اقترب من باب المدينة، إذا ميت محمول، وهو ابن وحيد لأمه التي كانت أرملة، وكان معها جمع كبير من المدينة. فلما رآها الرب، تحنن عليها، وقال لها: «لا تبكي!»، ثم تقدم، ولمس النعش، فتوقف حاملوه. وقال: «أيها الشاب لك أقول: قم!» فجلس الميت، وبدأ يتكلم، فسلمه إلى أمه، فاستولى الخوف على الجميع، ومجدوا الله قائلين: «قد قام فينا نبي عظيم وتفقد الله شعبه! ». وذاع هذا الخبر عنه في منطقة اليهودية كلها، وفي جميع النواحي المجاورة»[1].

الأدلة من هذا النص على أن عيسى عليه السلام هو رسول الله، وليس هو الله:

والشاهد في هذا النص أن عيسى -عليه السلام- بعدما أحيا الله على يديه هذا الميت، الذي يذكر إنجيل لوقا أنه ابن وحيد لامرأة، أن جميع الناس الحاضرين مجدوا الله قائلين:

«قد قام فينا نبي عظيم، وتفقد الله شعبه». ولست أرى أصرح من هذا الدليل على بشرية عيسى، وأنه عبد رسول؛ فإنه بعد أن أحيا هذا الميت استطاع جميع الحاضرين أن يفرقوا بين الله، وبين عيسى فمجدوا الله سبحانه وتعالى خالق السموات، والأرض، وشهدوا لعيسى عليه السلام بالنبوة، وشكروا الله إذ أرسل في بني إسرائيل نبياً، ويسمون أنفسهم شعب الله؛ إذ إن الله «تفقده»؛ أي اهتم به، ونظر إليه بعين رحمته، وأرسل فيهم نبياً جديداً، وانظر قول الإنجيل: «قد قام فينا نبي عظيم، وتفقد الله شعبه».

وانظر كيف أقرهم عيسى على هذا القول، وكيف ذاع خبر ذلك في كل مكان...، ولو كان عيسى هو الرب الإله الخالق المحيي المميت، لقال للجميع: «انظروا، هكذا أحيي الموتى. فإني أنا الرب الإله، ولم يوافقهم على قولهم: «قد قام فينا نبي عظيم وتفقد الله شعبه».

---

(١) إنجيل لوقا: ٧/١١-١٧.

رابعاً: الأناجيل تشهد جميعها أن
عيسى - عليه السلام - كان رسولاً داعياً إلى الله

من يقرأ الأناجيل المعتمدة من النصارى، يجد أنها تشهد لعيسى أنه رسول الله الداعي إليه، ولو كان إلهاً ورباً وخالقاً للسموات والأرض، كما يزعمون، لما كان رسولاً داعياً إلى الله. بل كان داعياً لنفسه، أو قائلاً لهم: إنني أنا الله خالق السموات والأرض أدعوكم أن تعبدوني، وتسجدوا لي، وتعظموني، وتسبحوا بحمدي. ولا يوجد قط في الأناجيل دعوة كهذه، لا بالنص، ولا بالمعنى، بل ليس فيها إلا أنه نبي رسول من الله ومن ذلك:

١- ففي إنجيل متى: الإصحاح الرابع:

أ - بدء خدمة يسوع:

«ولما سمع يسوع أنه قد ألقي القبض على يوحنا، عاد إلى منطقة الجليل، وإذ ترك الناصرة، توجه إلى كفر ناحوم الواقعة على شاطئ البحيرة ضمن زبولون، ونفتاليم وسكن فيها؛ ليتم ما قيل بلسان النبي إشعياء القائل: «أرض زبولون، وأرض نفتاليم، على طريق البحيرة، ما وراء نهر الأردن، بلاد الجليل التي يسكنها الأجانب - الشعب الجالس في الظلمة، أبصر نوراً عظيماً، والجالسون في أرض الموت، وظلاله، أشرق عليهم نور!» من ذلك الحين بدأ يسوع يبشر قائلا: «توبوا فقد اقترب ملكوت السموات»[1].

(١) إنجيل متى: الفصل الرابع.

الأدلة من هذا النص:

وهذا النص واضح في أن عيسى بدأ الخدمة هكذا؛ أي بدأ في العمل للدعوة إلى ربه سبحانه وتعالى ومولاه، بعد أن سمع بالقبض على يحيى -عليه السلام- ويحيى هو المسمى عند النصارى؛ بيوحنا المعمدان». وقول عيسى للناس الذين يدعوهم إلى الله: «توبوا، فقد اقترب ملكوت السموات»؛ أي ارجعوا أيها الناس إلى الله، فقد اقترب وعد الله بتمكين أهل الإيمان في الأرض، وهو ما يعبر عنه بملكوت السموات، أو مملكة الله.

ولا شك أن ذلك قد تحقق بحمد الله على يد النبي الخاتم محمد ﷺ، الذي بعث نبيه عيسى مبشراً به، كما قال تعالى في القرآن: ﴿وإذ قال عيسى ابن مريم يا بني إسرائيل إني رسول الله إليكم مصدقاً لما بين يدي من التوراة ومبشراً برسول يأتي من بعدي اسمه أحمد فلما جاءهم بالبينات قالوا هذا سحر مبين﴾ [الصف:٦].

ب – نماذج من كلمات عيسى عليه السلام في دعوته إلى الله:

وهذه نماذج من مواعظ عيسى عليه السلام، ودعوته كما جاء في إنجيل متى: «طوبى للمساكين بالروح، فإن لهم ملكوت السموات. طوبى للحزانى، فإنهم سيعزون. طوبى للودعاء، فإنهم سيرثون الأرض. طوبى للجياع والعطاش إلى البر، فإنهم سيشبعون. طوبى لأنقياء القلب، فإنهم سيرون الله. طوبى لصانعي السلام، فإنهم سيدعون أبناء الله. طوبى للمضطهدين من أجل البر، فإن لهم ملكوت السموات. طوبى لكم متى أهانكم الناس واضطهدوكم، وقالوا فيكم من أجلي كل سوء كاذبين. افرحوا وتهللوا، فإن مكافأتكم في السموات عظيمة. فإنهم هكذا اضطهدوا الأنبياء من قبلكم»!

ج– ملح الأرض ونور العلم:

أنتم ملح الأرض، فإذا فسد الملح، فماذا يعيد إليه ملوحته؟ إنه لا يعود يصلح لشيء إلا لأن يطرح خارجا ليدوسه الناس!.

أنتم نور العالم. لا يمكن أن تخفى مدينة مبنية على جب؛ ولا يضـيء الناس مصباحاً ثم يضعونه تحت مكيال، بل يضعونه في مكان مرتفع ليضـيء لجميع من في البيت. هكذا: فليضئ نوركم أمام الناس، ليروا أعمالكم الحسنة ويمجدوا أباكم الذي في السموات.

د – موقف المسيح من الشريعة:

ولا تظنوا أني جئت لألغي الشريعة، أو الأنبياء، ما جئت لألغي، بل لأكمل، فالحق أقول لكم: «إلى أن تزول الأرض والسماء، لن يزول حرف واحد، أو نقطة واحدة من الشريعة، حتى يتم كل شيء. فأي من خالف واحدة من هذه الوصايا الصغرى، وعلم الناس أن يفعلوا فعله، يدعى الأصغر في ملكوت السموات. وأما من عمل بها، وعلمها: فيدعى عظيماً في ملكوت السموات.

فإني أقول لكم: إن لم يزد بركم على بر الكتبة الفريسيين لن تدخلوا ملكوت السموات أبداً».

وفي هذه النصوص دليل واضح على أن عيسى –عليه السلام– عندما كان يدعو تلاميذه، ويعلمهم، لم يكن يدعوهم إلا على أنه رسول من الله –سبحانه وتعالى– يدعوهم إلى توحيد الله وعبادته. انظر إلى قوله لهم: «هكذا فليضئ نوركم أمام الناس ليرو أعمالكم الحسنة ويمجدوا أباكم الذي في السموات».

فها أنت ترى هنا أنه يدعوهم إلى التحلي بالأخلاق الفاضلة، والصفات الكريمة: ليكونوا شامة في الناس، وعلامة مضيئة لهم، وأن الناس، إذا رأوا أن من انتسب إلى الدين كان صالحاً باراً، فإنهم بسبب هذا يتوجهون إلى الرب –سبحانه وتعالى– الذي في السماء. ولو كان عيسي –عليه السلام– إلها ، ورباً، أو ابناً للإله، والرب، لكان قال لهم: «إني آمركم بما آمركم به لأعبد، ولأمجد وأعظم»، وقد عبر عيسى –عليه السلام– هنا عن الرب سبحانه وتعالى بأنه «أبوهم» الذي في السماء، وقد كان سائغاً في لغتهم تسمية

الرب الإله الخالق بالأب، على أنه هو المربي، وهو الذي يرعى عباده الصالحين. وقد تكرر من عيسى عليه السلام القول إن الله سبحانه وتعالى هو أبوه، وأبوهم، كما علم تلاميذه أن يقولوا في صلاتهم:

«أبانا الذي في السماء، ليتقدس اسمك، ليأت ملكوتك..».

وبالتالي فحمل ما جاء عن عيسى -عليه السلام- باسم الأب أنه يعني -كما يقول الظالمون- أبوة نسب، وأن عيسى -عليه السلام- إله من جوهر أبيه، وأن ذاته هي ذات الرب -حملهم خطأ كبير، وتعالى الله عما يقولون علواً كبيراً-..

وهذه النصوص من الإنجيل الذي يؤمنون به، ويعترفون به شاهدة عليهم أن عيسى -عليه السلام- لم يكن إلا عبداً مربوباً مخلوقاً فقيراً عاجزاً نبياً رسولاً، يدعو إلى تمجيد إلهه، ومولاه، خالق السموات والأرض.

٢- قول عيسى -عليه السلام- لتلاميذه: إنهم إذا تخلقوا بالأخلاق الكريمة، وصبروا على الجوع، والعطش، كانوا رحماء، كرماء، أنقياء القلب، صانعين السلام، مضطهدين في الله ولله. قال عيسى عن هؤلاء: «طوبى لصانعي السلام، فإنهم سيدعون أبناء الله، طوبى لأنقياء القلب، فإنهم سيرون الله»...

هذه نصوص صريحة واضحة أنه ما عنى بأبناء الله إلا بنوة التحنن، والتربية، والرحمة، والرعاية، وليست بنوة النسب، والجزء...

وقوله: «طوبى لأنقياء القلب فإنهم سيرون الله» تبشير بأن أهل الإيمان يرون ربهم يوم القيامة، وهو ما جاء به كذلك النبي الخاتم ﷺ.

ولو كان عيسى -عليه السلام- إلهاً كما يزعم الضالون، لما كان لقوله إن أنقياء القلب سيرون الله!! كيف سيرونه وهو معهم يأكل ويشرب، وينام!!، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً.

وقول عيسى -عليه السلام- لهم كما جاء في الإنجيل: «افرحوا، وتهللوا، فإ مكافأتكم في السماء عظيمة، فإنهم هكذا اضطهدوا الأنبياء قبلكم».. دليل على أ المكافئ، والمجازي هو الله، وأن الجزاء لا يكون إلا عنده يوم القيامة. ولو كان عيسى - عليه السلام- هو الله، لقال لهم: «سأكافئكم وأجازيكم وأفعل بكم وأفعل»..

ولكنه رد الأمر إلى خالق السموات والأرض، سبحانه وتعالى.

٣- قول عيسى عليه السلام: «لا تظنوا أني جئت لألغي الشريعة، أو الأنبياء، ما جئت لألغي بل لأكمل».

هذا نص جلي واضح لكل ذي عينين أن عيسى -عليه السلام- رسول قد خلت من قبله الرسل، وأنه واحد من سلكهم، وليس رباً، أو إلهاً لهم، أرسلهم إلى الناس كما يزعمون. وأنه ما جاء عليه السلام إلا ليعمل بالشريعة التي سبقته، وهي شريعة موسى - عليه السلام- ويكمل ما بناه الأنبياء قبله. وقد جاء تصديق ذلك في القرآن الكريم، كما قال سبحانه وتعالى عن عيسى -عليه السلام- أنه قال لقومه:

﴿ومصدقاً لما بين يدي من التوراة ولأحل لكم بعض الذي حرم عليكم وجئتكم بآية من ربكم فاتقوا الله وأطيعون. إن الله ربي وربكم فاعبدوه هذا صراط مستقيم﴾.

فعيسى -عليه السلام- لم يكن إلا نبياً رسولاً، جاء للعمل بشريعة موسى -عليه السلام-، ولم يلغها، وإنما ليكملها بتحليل بعض ما حرم الله على بني إسرائيل، وجاء ليدعو بني إسرائيل إلى عبادة الله وحده لا شريك له، ويجدد لهم ما اندرس من دينهم. ويبعث فيهم جذوة الإيمان التي انطفأت بظلمهم وعتوهم، وتحريفهم كلام الله سبحانه وتعالى...

ولو كان عيسى -عليه السلام- إلهاً ورباً، كما يدعي الضالون، لما كان ليصح بتاتاً أن يقول لهم: «ما جئت لألغي بل لأكمل»!! يكمل ماذا؟! فلا شك أنه -عليه السلام- حلقة

في سلسلة الأنبياء والمرسلين -عليهم السلام- وليس رباً إلهاً، كما يدعي الظالمون المشركون الحائدون عن تعاليمه ودينه، عليه الصلاة والسلام.

خامساً: عيسى عليه السلام يخبر أنه نبي رسول ويبين حقيقة يحيى عليه السلام يوحنا المعمدان، وأنه هو إيليا المبشر به في التوراة

جاء في الإصحاح الحادي عشر في إنجيل «متى» النص الآتي:

يسوع ويوحنا المعمدان:

بعدما انتهى يسوع من توصية تلاميذه الإثني عشر، انتقل من هناك، وذهب يعلم ويبشر في مدنهم. ولما سمع يوحنا، وهو في السجن، بأعمال المسيح، أرسل إليه بعض تلاميذه يسأله: «أأنت هو الآتي، أم ننتظر غيرك؟» فأجابهم يسوع قائلا: «اذهبوا أخبروا يوحنا بما تسمعون وترون: العُمْيُ يبصرون، والعُرْجُ يمشون، والبُرصُ يطهرون، والصُمُّ يسمعون، والموتى يُقامون، المساكين يبشَّرون، وطوبى لمن لا يشك فيّ».

وما إن انصرف تلاميذ يوحنا، حتى أخذ يسوع يتحدث إلى الجموع عن يوحنا: «ماذا خرجتم إلى البرية لتروا؟ أقصبة تهزها الرياح؟

بل ماذا خرجتم لتروا: أإنساناً يلبس ثياباً ناعمة؟ ها إن لابسي الثياب الناعمة في قصور الملوك! إذن، ماذا خرجتم لتروا ؟ أنبياً؟ نعم، أقول لكم، وأعظم من نبي. فهذا هو الذي كتب عنه: ها إني مرسل قدامك رسولي، الذي يمهد لك طريقك! الحق أقول لكم: إنه لم يظهر بين من ولدتهم النساء أعظم من يوحنا المعمدان، ولكن الأصغر في ملكوت السموات أعظم منه! فمنذ أن بدأ يوحنا المعمدان خدمته، وملكوت السموات معرض

للعنف؛ والعنفاء يختطفونه! فإن الشريعة والأنبياء تنبأوا جميعا حتى ظهور يوحنا. وإن شئتم أن تصدقوا، فإن يوحنا هذا، هو إيليا الذي كان رجوعه منتظراً. ومن له أذنان فليسمع »!

«ولكن بمن أشبه هذا الجيل؟ إنهم يشبهون أولاداً جالسين في الساحات العامة، ينادون أصحابهم قائلين: زمرنا لكم، فلم ترقصوا! وندبنا لكم فلم تنتحبوا! فقد جاء يوحنا لا يأكل، ولا يشرب، فقالوا إن شيطاناً يسكنه! ثم جاء ابن الإنسان يأكل ويشرب، فقالوا: هذا رجل شره، وسكير صديق لجباة الضرائب، والخاطئين. ولكن الحكمة قد بررها أبناؤها»[1].

وفي هذا النص من الأدلة على بشرية عيسى -عليه السلام- وأنه عبدالله ورسوله، وأنه لم يكن ربا وإلهاً، وأن هذا يتناقض تماماً مع ما دعا إليه ما يأتي:

١- قول كاتب الإنجيل: «بعدما انتهى يسوع من توصية تلاميذه». ولم يقل عبيده، بل هم تلاميذه. ومعنى ذلك أنه ليس إلا أستاذاً ومعلماً ورسولاً ونبياً. فالرب الخالق -سبحانه وتعالى- لا يقال لمن يعلمهم تلاميذه.

٢- سؤال يحيى «يوحنا المعمدان» وإرساله، وهو في السجن من يسأل عيسى -عليه السلام- «أأنت هو الآتي، أم ننتظر غيرك؟» يدل على أن عيسى -عليه السلام- نبي مرسل، وهو المسيح المبشر به في التوراة ولا يوجد نص واحد في التوراة يقول: إن الله سيأتي بنفسه إلى أهل الأرض، أو سيرسل ولده إليهم..، ولو كان شيئاً من ذلك، لأخبر الله عنه في الرسالات السابقة، وخاصة في بني إسرائيل الذين أرسل عيسى منهم، وإليهم، كما قال تعالى في القرآن الكريم عنه: ﴿ورسولاً إلى بني إسرائيل﴾ [آل عمران:٤٩].

---

(١) إنجيل: (١١/١-٢٠).

فكيف لم يخبرهم الله -عز وجل- على لسان موسى والأنبياء -عليهم السلام- الكثيرين منهم قبله وبعده، أنه سيرسل إليهم ابنه أو نفسه، وأن هذا الابن سيكون منسوباً إلى بني إسرائيل من نسل داود إنساناً، وإلى الله سبحانه وتعالى روحاً، ونفساً، وذاتاً كما يدعون. تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً.

٣- إشادة عيسى بن مريم -عليه السلام- بيحيى -عليه السلام- وبيان أنه لا يختلف مع يحيى إلا في الأسلوب؛ فقد كان يحيى -عليه السلام- آخذاً بالحزم، والتقشف، كما جاء في الإنجيل من أنه كان لا يلبس إلا ثوباً من وبر الجمال، ويشد وسطه بحزام من جلد، ولا يأكل إلا من البرية الجراد، والعسل البري[1]، وأخذ نفسه بذلك. وبالبعد عن مخالطة العصاة، وتشديد النكير عليهم.

وأما عيسى -عليه السلام- فقد جاء باللين، والرحمة معهم، ومحاولة استمالتهم بالتي هي أحسن، إخراجاً لهم من المعصية، ودعوة لهم بالخير. وكان يأكل مع العصاة، ويشرب معهم، ويجالسهم. وقد ضرب -عيسى عليه السلام- له وليحيى مثلاً -في عدم قبول بني إسرائيل لهما، بالرغم من تنوع أسلوبيهما في الدعوة- بأولاد جالسين في الساحات العامة، ثم جاءهم أصحاب لهم زمروا لهم، فلم يطربوا، وندبوا لهم، فلم ينتحبوا!!.

قال عيسى عليه السلام كما جاء في الإنجيل: «جاء يوحنا لا يأكل، ولا يشرب» فقالوا: «إن شيطاناً يسكنه!! وجاء ابن الإنسان، وهو عيسى بن مريم»، وكان دائماً يسمي نفسه ابن الإنسان، ليثبت لهم بشريته، وأنه إنسان، وليس إلهاً، وذلك كما كان كل نبي يقول: ﴿قل إنما أنا بشر مثلكم..﴾ [الكهف: ١١٠، فصلت: ٦]، قال عيسى: «وجاء ابن الإنسان يأكل ويشرب -أي مع العصاة والخاطئين- فقالوا هذا رجل سكير وشره، صديق لجباة الضرائب والخاطئين».

---

(١) متى: (٣/٥).

ووصف عيسى -عليه السلام- نفسه بذلك دليل واضح، وصريح على أنه رسول من الله شأنه شأن يحيى -عليه السلام-، ولا اختلاف بينهم إلا في أسلوب الدعوة إلى الله. وهل يهجر العصاة، ويشدد عليهم زجراً لهم، أم يتلطف معهم ويدعوهم بالحسنى؛ لاستمالتهم إلى الحق؟..

فهل من يقول هذا الكلام قد قام في نفسه مجرد ظن أنه هو الله أو ابنه، نزل يدعو الناس إلى عبادة نفسه؟

٤- أجاب عيسى -عليه السلام- تلاميذ يحيى بن زكريا «يوحنا المعمدان» بأن ينظروا ما أجراه الله على يديه من الأعمال العظيمة: «فالعمي يبصرون، والعرج يمشون، والبرص يطهرون، والصم يسمعون، والموتى يقامون، والمساكين يبشرون».

وكل هذه من المعجزات التي أيده الله بها، والتي مضى مثلها في الرسل قبله، وجاء أعظم منها في محمد بن عبدالله -عليه الصلاة والسلام- بعده، وقد استدل عيسى بهذه الآيات على أنه فعلاً هو المسيح المبشر به في التوراة، وذلك جواباً على سؤال يحيى.

فالذي بشرت به التوراة، كما أسلفنا، هو المسيح الذي يمهد الأرض أمام النبي الخاتم محمد بن عبدالله صلوات الله وسلامه عليه، ولم تبشر التوراة، وأي كتاب من السماء قط، بأن الله ينزل بنفسه من فوق سبع سماواته؛ ليكون بشراً يمشي في الأرض، ويخاطب الناس، ويدعوهم، ويأكل، ويشرب، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً، فضلاً أن يكذب، ويهان، ويصفع على قفاه، ويعلق على خشبة الصلب، ويبصق في وجهه، تعالى الله أن يمكن أعداءه من رسول ، وتعالى الله في ذاته أن يكون محلاً لكل هذه النقائص..

٥- قارن عيسى -عليه السلام- بين نفسه وبين يحيى -عليه السلام- بأن عيسي هو الأصغر، ولكنه الأعظم في ملكوت الله، حيث قال: «إني أقول لكم: إنه ليس بين من

ولدتهم النساء أعظم من يوحنا، ولكن الأصغر في ملكوت الله أعظم منه»[1].

وأنت ترى هنا أن عيسى -عليه السلام- قد قارن بين نفسه وبين يحيى -عليه السلام- مقارنة بشر ببشر، ونبي بنبي، ولا شك أن يحيى -عليه السلام- عظيم، كما جاء في القرآن الكريم: ﴿يا زكريا إنا نبشرك بغلام اسمه يحيى لم نجعل له من قبل سمياً﴾ [مريم:٧]. ولكن عيسى -عليه السلام- أعظم منه، والصغر هنا صغر السن. ومثل هذه المقارنة ما كانت لتعقد لو أن عيسى -عليه السلام- كان إلهاً، ويحيى -عليه السلام- كان بشراً نبياً، لأنه لا مقارنة بين الله وخلقه، ولو كان عيسى موجوداً قبل الخلق كله، كما يزعم النصارى، ما قال عن نفسه ويحيى: «ولكن الأصغر في ملكوت الله أعظم منه»!!.

فهل يرى النصارى هذه الآيات من الإنجيل الدالة على كذب ما قالوا في عيسى، وأنه لم يكن إلا بشراً رسولاً، عليه وعلى كل رسل الله الصلاة والسلام.

٦- قول عيسى -عليه السلام-: «كل من يعترف بي أمام الناس أعترف أنا أيضاً به أمام أبي الذي في السموات».

هو بمعنى من يؤمن بي هنا في الدنيا أشهد له بالإيمان أمام الله يوم القيامة، وهذا معنى قول الله تعالى في القرآن:

﴿فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيداً يومئذ يود الذين كفروا وعصوا الرسول لو تسوى بهم الأرض ولا يكتمون الله حديثاً﴾ [النساء:٤١].

فكل رسول شاهد وشهيد على قومه يوم القيامة، سيشهد لمن أطاعه بالجنة، ولمن عصاه بالنار، وعيسى -عليه السلام- يستشهده الله -عز وجل- على قومه، فيشهد على من كان معه، كما قال تعالى حاكياً عنه: ﴿وكنت شهيداً عليهم ما دمت فيهم فلما توفيتني

(١) لوقا: (٢٩/٧).

كنت أنت الرقيب عليهم وأنت على كل شيء شهيد﴾ [المائدة:١٧].

٧- قول عيسى -عليه السلام-: «ما جئت لأرسي سلاماً على الأرض، بل سيفاً.. فإني جئت لأجعل الإنسان على خلاف مع أبيه، والبنت مع أمها، والكنة مع حماتها... إلخ» هو معنى قول الرسل جميعاً إنهم جاءوا للتفريق بين أهل الإيمان، وأهل الكفران، وبين الحق ومن اتبعه، والباطل ومن اتبعه، كما قال تعالى عن صالح: ﴿ولقد أرسلنا إلى ثمود أخاهم صالحاً أن اعبدوا الله فإذا هم فريقان يختصمان﴾ [النمل:٤٥]. وكما قال سبحانه وتعالى عن حال الناس مع كل رسول إنهم يفترقون إلى مؤمن وكافر، وأن أهل الإيمان يجب عليهم أن يوالي بعضهم بعضا في الله دون موالاة النسب مع الكفر، فلا ولاية للكافر وإن كان أباً، أو أخاً، أو زوجاً، أو ما كان من القرابة..

فعيسى -عليه السلام- رسول شأنه شأن جميع الرسل، الذين جاءوا بدعوتهم، ففرقوا بين أهل الإيمان، وأهل الكفر، ووقعت الخصومة، والحرب، حتى بين أبناء الرجل الواحد.

سادسا: عيسى - عليه السلام -

يدعو إلى عبادة الله وحده لا شريك له

وفي إنجيل مرقص:

الوصية العظمى:

وتقدم إليه واحد من الكتبة كان قد سمعهم يتجادلون، ورأى أنه أحسن الرد عليهم، فسأله: «أية وصية هي أولى الوصايا جميعاً؟» أجابه يسوع: «أولى الوصايا جميعاً هي اسمع يا إسرائيل، الرب إلهنا رب واحد، فأحب الرب إلهك بكل قلبك، وبكل نفسك، وبكل فكرك، وبكل قوتك. هذه هي الوصية الأولى. وهناك ثانية مثلها، وهي: أن تحب قريبك

كنفسك، فما من وصية أخرى أعظم من هاتين».

فقال له: «صحيح يا معلم! حسب الحق تكلمت. فإن الله واحد، وليس آخر سواه، ومحبته بكل القلب، وبكل الفهم، وبكل القوة ، ومحبة القريب كالنفس، أفضل من جميع المحرقات، والذبائح!».

فلما رأى يسوع أنه أجاب بحكمة، قال له: «لست بعيداً عن ملكوت الله!» ولم يجرؤ أحد بعد ذلك أن يوجه إليه أي سؤال»[1].

وفي هذا النص من الأدلة على أن عيسى -عليه السلام- دعا إلى توحيد الله وعبادته ما يأتي:

١- جوابه في أن أولى الوصايا هي ما جاء في التوراة من أن الله سبحانه وتعالى إله واحد «اسمع يا إسرائيل الرب إلهنا رب واحد».

وهذا موافق تماما لما جاء في القرآن، كقوله تعالى: ﴿وإلهكم إله واحد لا إله إلا هو الرحمن الرحيم﴾ [البقرة:١٦٣]، وكذلك من وجوب محبته سبحانه وتعالى فوق كل محبوب، كما قال الله تعالى: ﴿ومن الناس من يتخذ من دون الله أنداداً يحبونهم كحب الله والذين آمنوا أشد حباً لله﴾ [البقرة:١٦٥].

٢- إقرار السائل أن التوحيد هو أعظم الوصايا، وقوله له: «أجبت بالحق، ولست بعيداً عن ملكوت الله؛ أي الدخول إلى الجنة، والحياة الأخرى الأبدية.

فكيف يكون عيسى -عليه السلام- دعا بعد ذلك إلى عبادة نفسه، أو أمه! حاشاه. بل هو رسول كريم دعا، كإخوانه من الرسل، إلى عبادة الله وحده لا شريك له.

---

(١) مرقص: ١٢/٢٨-٣٥.

سابعاً: عيسى عليه السلام

يدعو ربه خالق السموات والأرض

جاء أن عيسى -عليه السلام- بعد أن وعظ الناس موعظة بليغة في الهيكل، وحذر اليهود من أن عقوبة الله ستحل بهم قريبا في مدن صور، وصيداً، وكفرناحوم، وأنه سيكون لها مثل ما صار لقرى لوط: سدوم، وعمورة.

قال عيسى بعد ذلك:

راحة للتعابى:

«أحمدك أيها الآب، رب السماء والأرض؛ لأنك حجبت هذه الأمور عن الحكماء، والفقهاء، وكشفتها للأطفال! نعم أيها الآب، لأنه هكذا حسن في نظرك». «كل شيء قد سلمه إلي أبي. ولا أحد يعرف الابن إلا الآب، ولا أحد يعرف الآب إلا الابن، ومن أراد الابن أن يعلنه له».

«تعالوا إلي يا جميع المتعبين، والرازحين تحت الأحمال الثقيلة، وأنا أريحكم. احملوا نيري عليكم، وتتلمذوا على يدي؛ لأني وديع متواضع القلب، فتجدوا الراحة لنفوسكم، فإن نيري هين، وحملي خفيف!»[١].

وفي هذا النص من دلائل عبودية المسيح -عليه السلام- ما يلي:

١- توجهه بالحمد إلى خالق السموات والأرض -سبحانه وتعالى-، ولو كان هو الله

(١) متى: (١٢/٢٦-٣٠).

لحمد نفسه، وأثنى على ذاته.

٢- جعله شرح صدور الأطفال والصغار إلى الدين الحق، وحجب هذا عن رؤساء اليهود، وعظماء ديانتهم، وأن هذه مشيئة الله سبحانه وتعالى «لأنه هكذا حسن في نظرك».

وهذا شبيه بما جاء في القرآن الكريم من أن الله يهدي من يشاء ويضل من يشاء، وأنه هدى لنوره كثيراً ممن لم يكن يؤبه بهم، كما قال تعالى في القرآن الكريم: ﴿وكذلك فتنا بعض هم ببعض ليقولوا أهؤلاء من الله عليهم من بيننا أليس الله بأعلم بالشاكرين﴾ [الأنعام:٥٣].

٣- وأما قول عيسى كما جاء في الإنجيل: «كل شيء قد سلمه لي أبي.. »، فمعناه أن الطريق إلى الله في وقت عيسى لا يكون إلا باتباعه، ولا يجوز أن يفهم منه أن الله قد سلمه مقاليد السموات والأرض، وإدخال الجنة، والنجاة من النار، بدليل أن الهداية بيد الله، وأنه قد وفق لها من شاء من عباده، كما جاء: «لأنه هكذا حسن في نظرك»، ولأن عيسى في كل أمر كان يفزع إلى الله، ويدعوه، فقد دعاه، وألح عليه أن يصرف عنه كأس الموت، بعد أن علم بتآمر اليهود عليه لقتله، وقد دعاه من أجل تلاميذه، وأدعية عيسى - عليه السلام- وطلبه من الله في الإنجيل كثيرة..

وإنما معنى قوله: «كل شيء قد سلمه لي أبي» هو ما قلناه. وهذا من باب قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم، فالهداية في وقت عيسى -عليه السلام- لا تكون إلا باتباعه؛ لأنه الرسول المرسل في وقته، ولا يجوز لهم إلا اتباعه، والكفر به كفر بالله.

وكذلك الحال بعد بعثة محمد ﷺ فالإسلام الحق، والدين المقبول عند الله، لا يكون إلا باتباعه؛ لأنه الرسول المرسل إلى الجميع: إلى اليهود، والنصارى، والمشركين، وكل الملل

والطوائف، والأجناس، لا قبول لأحد عند الله إلا باتباعه، وطاعته ﷺ.

٤- و صف عيسى -عليه السلام- لنفسه هنا بأنــه وديـع، ومتواضـع القلـب، وصـف لائق بالعبد، وأما الرب سبحانه وتعالى فهو متصف بالرحمة، ومعها الجبروت، وبالحلم ومعه الشدة، والمؤاخذة، كما قال تعالى في القرآن الكريم: ﴿نبئ عبادي أني أنا الغفـور الرحيـم وأن عذابي هو العذاب الأليم، فالله -سبحانه وتعالى- هـو الـرب الرحيـم الـودود، وهـو كذلك الجبار المتكبر القوي ذو القوة المتين، شديد العقاب، ذو الطو ل، لا إله إلا هو، إليه المصير. وأما صفات الرحمة، والوداعة وحدها، فهي لائقة بالعبد، وعيسى -عليه الســلام- لم يكن إلا عبداً لله سبحانه وتعالى، ولذلــك لم يصـف نفسـه دائمـاً إلا بالرقـة، والوداعـة، والضعف، والانكسار...

ثامناً: الأدلة من الإنجيل على أن

عيسى رسول الله وليس هو الله، أو ابن الله

عيسى عليه السلام يشهد أنه رسول من عند الإله الواحد سبحانه وتعالى:

جاء في الأناجيل أن عيسى -عليه السلام- كان دائمـا يذكـر تلاميـذه أنـه رسـول الله إليهم، وأن الإله وحده هو الله سبحانه وتعالى، وأن عيسى -عليه السلام- ليس إلا مجـرد رسول تفضل الله عليه بكل ما أعطاه، وهذه بعض النصوص في هذا الصدد:

في إنجيل يو حنا:

وفي معرض جدال عيسى لليهود الذين آمن بعضهم به، وكفر بعضهم. كمـا قـال تعـالى في القرآن: ﴿فآمنت طائفة من بني إسرائيل وكفرت طائفة﴾ [الصف:١٤]، قال عيسى -عليه الســلام- للذين آمنـوا بـه مـن اليهـود: «إن ثبتـم في كلمـتي، كنتـم حقـاً تلاميـذي،

وتعرفون الحق، والحق يحرركم». فرد اليهود: «نحن أحفاد إبراهيم، ولم نكن قط عبيداً لأحد! كيف تقول لنا: إنكم ستصيرون أحراراً؟»، أجابهم يسوع: «الحق الحق أقول لكم: إن من يرتكب الخطيئة يكون عبداً لها، والعبد لا يبقى في بيت سيده دائماً؛ أما الابن فيعيش فيه أبداً. فإن حرركم الابن تصيرون بالحق أحراراً. أنا أعرف أنكم أحفاد إبراهيم. ولكنكم تسعون إلى قتلي؛ لأن كلمتي لا تجد لها مكاناً في قلوبكم. إني أتكلم بما رأيته عند الآب، وأنتم تعلمون ما سمعتم من أبيكم». فاعترضوه قائلين: «أبونا هو إبراهيم!»، فقال: «لو كنتم أولاد إبراهيم، لعملتم أعمال إبراهيم. ولكنكم تسعون إلى قتلي وأنا إنسان كلمتكم بالحق الذي سمعته من الله. وهذا لم يفعله إبراهيم. أنتم تعملون أعمال أبيكم!» فقالوا له: «نحن لم نولد من زنا! لنا أب واحد هو الله». فقال يسوع: «لو كان الله أباكم لكنتم تحبونني؛ لأني خرجت من الله وجئت. لم آت من نفسي، بل هو الذي أرسلني. لماذا لا تفهمون كلامي؛ لأنكم لا تطيقون سماع كلمتي!

إنكم أولاد أبيكم إبليس، وشهوات أبيكم ترغبون في أن تعملوا... فهو من البدء كان قاتلاً للناس، ولم يثبت في الحق؛ لأنه خال من الحق، وعندما ينطق بالكذب، فهو ينضح بما فيه، لأنه كذاب، وأبو الكذب! أما أنا فلأني أقول الحق لستم تصدقونني.

من منكم يثبت علي خطيئة؟ فما دمت أقول الحق، فلماذا لا تصدقونني؟ من كان من الله حقاً، يسمع كلام الله، ولكنكم ترفضون كلام الله، لأنكم لستم من الله!»أ.هـ[1].

أ- فانظر إلى ما نسبه يوحنا إلى المسيح -عليه السلام- هنا: «لو كان الله أباكم لكنتم تحبونني؛ لأنني خرجت من الله وجئت، لم آت من نفسي، بل هو الذي أرسلني». واليهود دائماً كانوا يدعون أنهم أبناء الله وأحباؤه، كما قال تعالى في القرآن عنهم:

---

(١) إنجيل يوحنا: (٨/٣١-٤٢).

﴿وقالت اليهود والنصارى نحن أبناء الله وأحباؤه قل فلم يعذبكم بذنوبكم بل أنتم بشر ممن خلق يغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء ولله ملك السموات والأرض وما بينهما وإليه المصير﴾ [المائدة:١٨].

وقد رد المسيح على قولهم: «إنهم أبناء الله»، فقال لهم، لو كنتم أبناء الله حقاً كما تدعون، لآمنتم بي؛ لأني خرجت من عند الله ؛ أي إن الله هو الذي أخرجه وأرسله، قال عيسى: «لم آت من نفسي بل هو الذي أرسلني». وهذا نص في أنه مجرد رسول أرسله الله تعالى، وليس إلهاً كما تدعي النصارى وكفرت به، أن جوهره من جوهر الرب، تعالى الله عن ذلك.

ب – وفي هذا النص مما يوافق ما جاء في القرآن العزيز سعي اليهود –عليهم لعنة الله– في قتل عيسى بن مريم –عليه السلام– ولذلك قال لهم عيسى هنا: «لو كنتم أبناء إبراهيم لعملتم أعمال إبراهيم، ولكنكم تسعون إلى قتلي وأنا إنسان كلمتكم بالحق الذي سمعته من الله».

فاحتج عيسى –عليه السلام– وأبطل مدعاهم في بنوتهم لإبراهيم أنهم لو كانوا أبناءه حقاً. بنوة إيمان ومتابعة له، لعملوا مثل عمله في الإيمان والعمل الصالح. ولما سعوا في قتل عيسى بن مريم، الذي هو رسول الله، يدعو إلى الإيمان والعمل الصالح، كما كان إبراهيم كذلك.. ولكنهم كما قال عيسى أبناء الشيطان لعملهم مثل عمله.

وهذا يدلك على أن إطلاق لفظ الابن في لغتهم تطلق على بنوة النسب، وبنوة الطاعة، فسائغ في لغتهم أن يطلق على المطيع لأمر الله ابن الله، والمطيع للشيطان ابن الشيطان. ولا شك أن عيسى –عليه السلام– يعلم يقيناً أن اليهود هم من نسل إبراهيم، فهم أولاد إسحاق، وإسحاق بن إبراهيم عليهما السلام، ونفيه هنا أن يكونوا أبناء إبراهيم ليس نفي بنوة النسب، وإنما نفي بنوة الطاعة والاتباع والمحبة، على ما هو جار في لغتهم.

جـ- وقول عيسى -عليه السلام-: «لأني خرجت من الله وجئت» ليس كما ادعت النصارى أنه مولود من الله، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً.

فالإله الواحد سبحانه وتعالى ﴿لم يلد ولم يولد. ولم يكن له كفواً أحد﴾ [الإخلاص:٣-٤]، وإنما هذا كقوله -عليه السلام- أيضا: «من كان من الله حقاً يسمع كلام الله، ولكنكم ترفضون كلام الله لأنكم لستم من الله».

د - وفي هذا النص مما يوافق القرآن الكريم في اتهام اليهود -عليهم لعنة الله- لعيسى -عليه السلام- أنه ابن زنا، كما قال تعالى عنهم في القرآن الكريم: ﴿وقولهم على مريم بهتاناً عظيماً﴾ [النساء:١٥٦].

وفي هذا النص يقولون لعيسى -عليه السلام- معرضين به: «نحن لم نولد من زنا!! لنا أب واحد هو الله»، وهذا تعريض بعيسى -عليه السلام- واتهام له ولأمه، برأها الله وشرفها...

هـ- في النص قال عيسى -عليه السلام-: «لم آت من نفسي بل هو الذي أرسلني»، وهذا يثبت أن عيسى -عليه السلام- رسول الله، وليس هو الله، أو أن له مشيئة مع الله. وقد تكرر ورود مثل هذا النص كثيراً في الأناجيل:

١- «ولكن الذي أرسلني هو الحق، وما أقوله للعالم هو ما سمعته منه»[1].

٢- «إن الذي أرسلني هو معي، ولم يتركني وحدي؛ لأني دوماً أعمل ما يرضيه»[2].

وهذا نص واضح في عبودية عيسى -عليه السلام- وخضوعه لإرداة الله، وتعبده بما يرضي الرب تبارك وتعالى، ولو كان إلها مع الله بمشيئة مستقلة، كما تدعي النصارى، لما

---

(١) يوحنا: (٨/٢٧)

(٢) يوحنا: (٨/٣٠)

كان يقول: «ودائما أعمل ما يرضيه». وأما معية الله لعيسى، فهي كائنة لكل مؤمن يتقي الله سبحانه وتعالى، ومعية الله للأنبياء -عليهم السلام- عظيمة، لأن الله يرعاهم ويصنعهم على عينه، كما قال تعالى لموسى -عليه السلام- لما أرسله إلى فرعون:

﴿إنني معكما أسمع وأرى﴾ [طه:٤٦]، وقال أيضاً: ﴿إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون﴾ [النحل:٤٦].

ومعية الله مع المؤمنين معية تأييد، ونصر، ورعاية، وعيسى -عليه السلام- كان رسولاً باراً تقياً، وكان الله معه دائما بالتأييد، والرعاية، والنصرة.

٣- في إنجيل يوحنا -أيضاً- أن عيسى -عليه السلام- بعد أن أحيا «لعازر»، الذي مات منذ أربعة أيام، رفع بصره إلى السماء، وقال:

«أيها الآب أشكرك لأنك سمعت لي، وقد علمت أنك دوما تسمع لي، ولكني قلت هذا لأجل الجمع الواقف حولي ليؤمنوا أنك أنت أرسلتني»[(١)].

وهذا النص يوضح أن عيسى -عليه السلام- كان يحيي الموتى بإذن الله، وليس من عند نفسه، ولا بقوته، وقدرته، وأن الله -سبحانه وتعالى- قد أقدره على إحياء الموتى؛ ليكون هذا معجزة له، ودليلاً على نبوته، ورسالته كما قال تعالى في القرآن: ﴿وإذ تخرج الموتى بإذني﴾ [المائدة:١١٠].

فإخراج الموتى من قبورهم، الذي صنعه عيسى، إنما صنعه بأمر الله -عز وجل- وإقداره له عليه، لا لأنه هو ابن الله صفته صفة الرب، أو له قدرة من ذاته أن يحيي الموتى، وإنما أقدره الله على ذلك؛ ليعلم الجميع أنه رسول الله كما جاء في نص الإنجيل: «لأجل الجمع الواقف حولي ليؤمنوا أنك أنت أرسلتني»، وقد كانت الجموع حوله تنتظر

---

(١) يوحنا: (١١/٤٢-٤٣).

هذه المعجزة. وكل ما طلبه عيسى أن يشهدوا له فقط بالرسالة، وأن الله هو الذي أرسله. ولو كان هو الله لقال لهم: انظروا بقدرتي صنعت، وأحييت، وخلقت، ورزقت. وسبحان ا لله أن يكون له ولد، أو أن يكون له شريك في الملك، أو شريك في الألوهية، فلا إله إلا هو، ولا رب سواه سبحانه وتعالى.

٤- في إنجيل يوحنا:

أن عيسى -عليه السلام- قال لتلاميذه عندما أرسلهم لنشر الدعوة: «من يقبل الذي أرسله يقبلني، ومن يقبلني يقبل الذي أرسلني».

وهذه العبارة كقول الرسول الخاتم ﷺ: «من أطاع أميري، فقد أطاعني، ومن أطاعني، فقد أطاع الله، ومن عصى أميري، فقد عصاني، ومن عصاني، فقد عصا الله».

والشاهد أن عيسي -عليه السلام- قال: «من يقبلني يقبل الذي أرسلني» فيخبر أن الله سبحانه وتعالى هو الذي أرسله إلى بني إسرائيل.

٥- في إنجيل يوحنا أن المسيح -عليه السلام- قال:

«والحياة الأبدية هي أن يعرفوك أنت الإله الحق وحدك، والذي أرسلته يسوع المسيح». وفي هذا دليل على أن الخلود في الجنة للذي يؤمن بالله الإله الحق وحده سبحانه وتعالى، وأنه هو الذي أرسل عيسى المسيح عليه السلام[1].

٦- في إنجيل يوحنا أيضا:

أن عيسى -عليه السلام- لما أحس انتهاء وجوده على الأرض، شرع يصلي «يدعو»

---

(١) يوحنا: (١٧/٣-٤).

من أجل أن يحفظ الله تلاميذه، فقال في جملة صلاته:

«أظهرت اسمك للناس الذين وهبتهم لي من العالم؛ أي الذين آمنوا بي، وقد عملو بكلمتك، وعرفوا الآن أن كل ما وهبته لي فهو منك، لأني نقلت إليهم الوصايا التي أوصيتني بها فقبلوها، وعرّفوا حقاً أني خرجت من عندك، وآمنوا أنك أنت أرسلتني»[1].

٧- وقال أيضا:

«أيها الآب البار إن العالم لم يعرفك، وأما أنا فعرفتك، هؤلاء عرفوا أنك أنت أرسلتني. وقد عرفتهم اسمك، وسأعرّفهم أيضاً لتكون فيهم المحبة التي أحببتني بها، وأكون أنا فيهم»أ.هـ.

وهذا النص دليل واضح أن عيسي -عليه السلام- كان نبياً ورسولاً صالحاً، عرف الله، ولم يكن هو الله؛ لأن الرب الإله لا يجهل شيئاً قبل وجوده، ولا يعرف شيئاً لم يكن يعرفه، وغاية عيسى -عليه السلام- كما دل عليه النص أنه آمن با لله وعرفه يوم كفر الناس، وأنه علم تلاميذه اسم ا لله، وصفاته، وأنه كان يتضرع لربه من أجلهم، ويتمنى أن تبقى فيهم روح الوحي التي نشرها فيهم وعلمهم إياها، وأن تظل تعاليمه في نفوسهم وهذا معنى قوله: «وأكون أنا فيهم» وإلا فإن عيسى -عليه السلام- لا يحل في تلاميذه، ولا يحل تلاميذه فيه، وإنما الذي يكون في التلاميذ من المعلم هو العلم الذي علمه، والنور الذي نشره، والهدى الذي هداهم به، والإيمان الذي يجمع بين أهله. فأهل الإيمان جميع ملائكة وبشراً قد حل فيهم نور الإيمان، وهداية الله، ورحمته، ورضوانه، وتنزلت عليهم سكينته.

ولا يفهم من مثل هذه العبارات أن ذات الله سبحانه أو صفاته، جل وعلا، تحل في

---

(١) يوحنا: (١٧/٨-٩).

مخلوقاته، ومصنوعاته، ومخترعاته. تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً. فالرب جل وعلا هو الإله الواحد الأحد، الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد.

تاسعاً: إطلاق لفظ «الأب» على الله سبحانه وتعالى بمعنى المربي والرحمن وليس بمعنى أبوة النسب

تكرر استعمال لفظ الأب في الأناجيل التي يعتمدها النصارى، بمعنى المربي، والرحمن، وهو نسبة تحبب إلى الله، وتقرب منه، وليست مطلقاً نسبة بنوة ونسب، وهذه جملة من الأقوال المنسوبة إلى عيسى -عليه السلام-:

١- قول عيسى -عليه السلام-: «وصلوا من أجل الذين يسيئون إليكم، ويضطهدونكم لتكونوا أبناء أبيكم الذي في السموات»[١].

٢- وقوله أيضا: «فكونوا أنتم كاملين كما أن أباكم السماوي كامل»[٢].

٣- وقوله أيضا: «أما أنت فعندما تتصدق على أحد فلا تدع يدك اليسرى تعرف ما تفعل اليمنى لتكون صدقتك في الخفاء، وأبوك السماوي الذي يرى في الخفاء هو يكافئك».

٤- وقوله أيضا: «أما أنت فعندما تصلي فادخل غرفتك وأغلق الباب، و صل إلى أبيك الذي في الخفاء، وأبوك الذي يرى في الخفاء هو يكافئك».

٥- وقوله أيضاً -عليه السلام-: «فصلوا أنتم هذه الصلاة: أبانا الذي في السموات،

---

(١) متى: (٦/٣٤).
(٢) متى: (٦/٣٤).

ليتقدس اسمك! ليأت ملكوتك! لتكن مشيئتك على الأرض كما هي في السماء! خبزنا أعطنا اليوم! واغفر لنا ذنوبنا، كما نغفر نحن للمذنبين إلينا! ولا تدخلنا في تجربة، لكن نجنا من الشرير!».

«فإن غفرتم للناس زلاتهم، يغفر لكم أبوكم السماوي زلاتكم. وإن لم تغفروا للناس لا يغفر لكم أبوكم السماوي زلاتكم»[1].

٦- وقوله -عليه السلام- أيضا: «وأما أنت فعندما تصوم، فاغسل وجهك، وعطر رأسك؛ لكي لا تظهر للناس صائماً بل لأبيك الذي في الخفاء، وأبوك الذي في الخفاء هو يكافئك»[2].

٧- وقوله أيضاً: «تأملوا طيور السماء لأنها لا تزرع ولا تحصد ولا تجمع في مخازن، وأبوكم السماوي يعولها»[3].

٨- وقوله: «لا تحملوا الهم قائلين: ما عسانا نأكل، ما عسانا نشرب، أو ما عسانا نكتسي، فهذه الحاجات كلها تسعى إليها الأمم، فإن أباكم السماوي يعلم حاجتكم إلى هذه كلها، وأما أنتم فاسعوا أولاً إلى ملكوت الله وبره»[4].

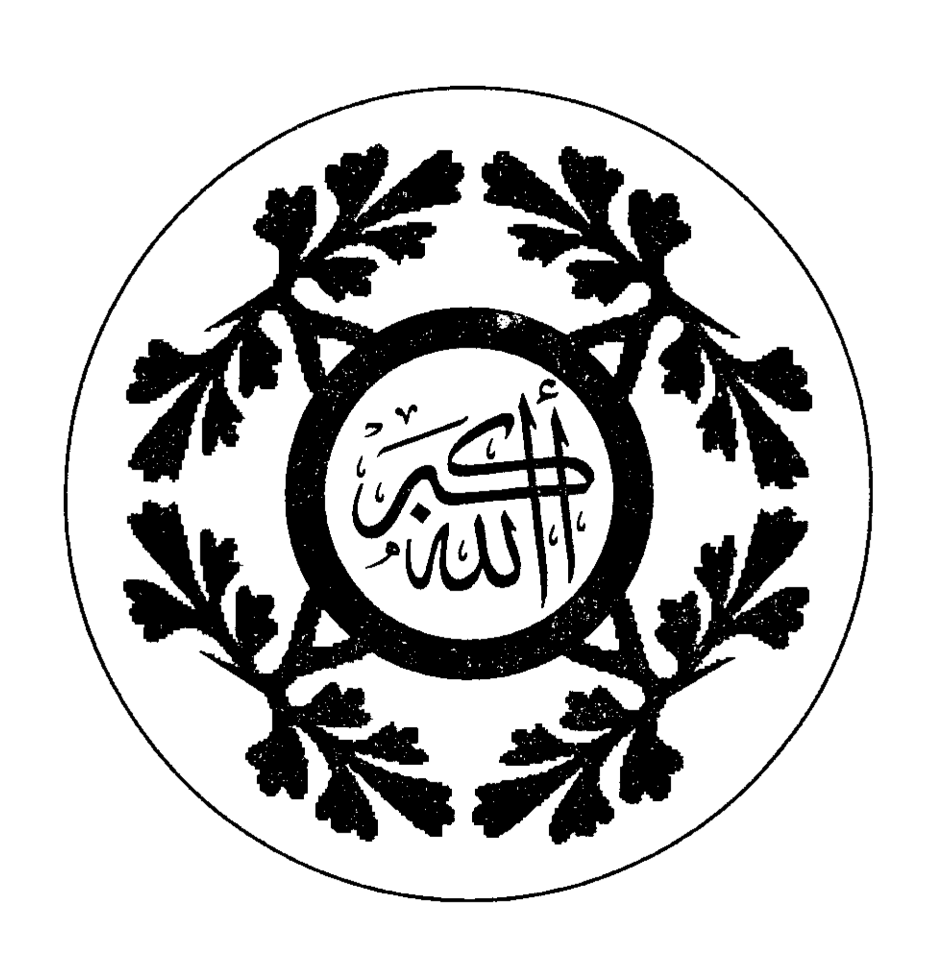
٩- وقوله أيضاً -عليه السلام-: «اطلبوا تعطوا.. اسعوا تجدوا اقرعوا يفتح لكم... إلى أن يقول: فأي إنسان فيكم يطلب منه ابنه خبزا فيعطيه حجراً، أو سمكة فيعطيه حية، فإن كنتم وأنتم أشرار تعرفون أن تعطوا أولادكم عطايا جيدة، فكم بالأحرى جداً يعطي

---

(١) متى: (١٥/٦).
(٢) متى: (١٨/٦).
(٣) متى: (٢٧/٦).
(٤) متى: (٣٤/٦).

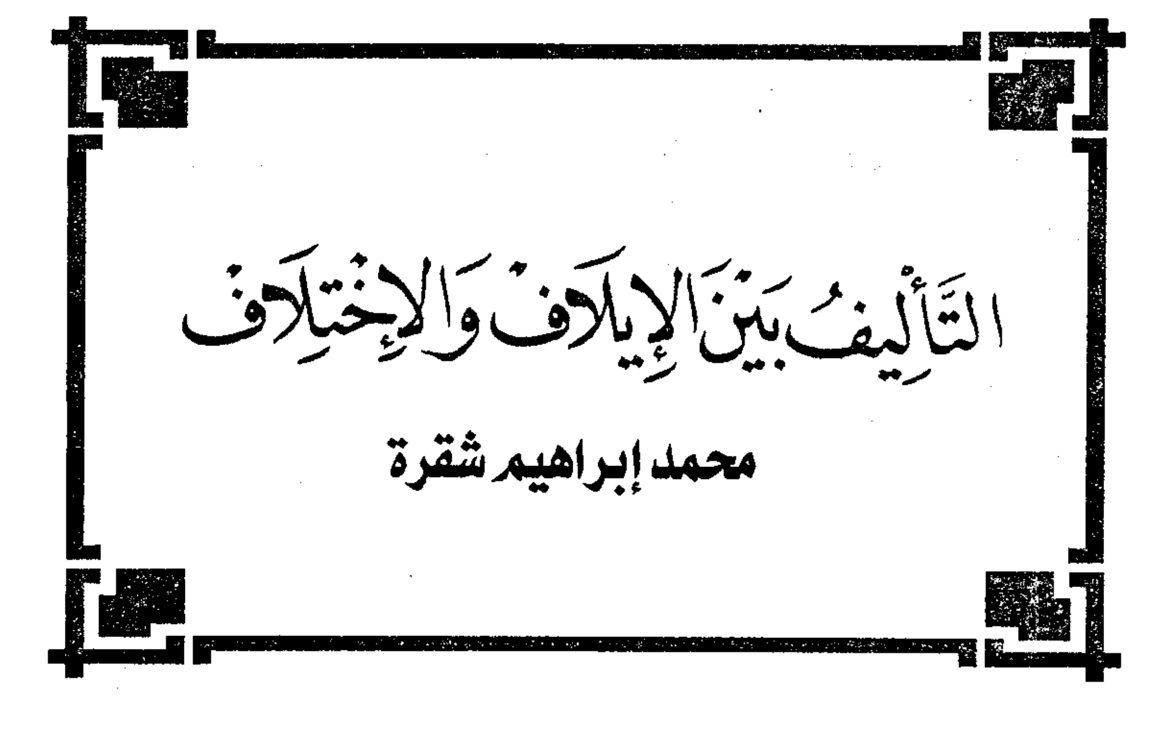
أبوكم السماوي عطايا جيدة للذين يطلبون منه»[1].

١٠- وكذلك ما جاء في إنجيل مرقص؛ ١٢/٢٦-٢٧» على لسان عيسى -عليه السلام-: «ومتى وقفتم تصلون، وكان لكم على أحد شيء فاغفروا له لكي يغفر لكم أبوكم الذي في السموات زلاتكم، ولكن إن لم تغفروا، لا يغفر لكم أيضاً أبوكم الذي في السموات زلاتكم».



(١) متى: (١٢/٧).





التَّأليفُ بَيْنَ الإيلافِ وَالإخْتِلافِ

محمد إبراهيم شقرة

كلما قرأت حديثاً من أحاديث الرسول ﷺ، ألفيت نفسي أقف على مشارف عالية، أتقرَّى منها البيان الموشَّى بالإعجاز، والمستقبل الرافل بالصدق، والإحكام الذي لا ينازعه نقض ولا اعتلال، والأحكام المبرمة بالقدر الحكيم المبدع.

وكلما أمعنت النظر والتقرِّي في أولئك، انسابت في صدري غُدرُ الهداية شفيفة رقراقة، تتطرَّز وجوهها بآيات الجمال الباهرة، وتصطفق فوقها تكسرات الرضا الحانية، وتزين سماءها ظلال وادعة ندية، أقرأ في سطورها كلها جلال الماضي، وصدق الحاضر، ورجاء المستقبل، حتى لكأنما أعيش فيها جميعاً في آن معاً، آخذٌ من كلٍّ منها جزءاً صغيراً، فلا تكاد تجتمع في يدي حتى تصير شيئاً واحداً رتقها بعضها إلى بعض تقديرٌ محكم، أجراه في نسق مطرد حبٌّ يؤثر للأمة، يسعى به فيها بذمتهم أدناها وأعلاها على حد سواء، حتى يوافي به خيراً لها في شدة ورخاء، صبغة الوحي الذي تلتقي عنده حقيقة الوجود برمتها، تامة غير منقوصة، أبصر فيها... بتأويل شيء من قوله سبحانه: ﴿ألا له الخلق والأمر، تبارك الله رب العالمين﴾ [الأعراف: ٥٤]، فتذهب عن نفسي أوضار الحياة، وتنثال عليها أشواق الآخرة، وأرى كل ما حولي خاشعاً في غير إكراه ولا حرج.

وما كان الرسول عليه الصلاة والسلام ليدع أمته تذرع أرض الحياة، وهي تعمل فيها

بأس اليأس –وتحطب به جذوع الرجاء، وتلتقط به جذاذ الشقاق، بل إنه– بما أوحى إليه ربه من الكتاب والحكمة –بنى لها مأوى، تلوذ به في هجيراء اليأس، فيكون منبتاً للرجاء: وتسرع إلى أبوابه المشرعة بالشقاق، فيكون منه الحب والإيلاف، وتمضي نحوه في أي حال، فإذا هي على أمثل ما تكون من الاستقامة، والهدى، والبصيرة.

قال عليه الصلاة والسلام: «إنه لم يكن نبي قبلي إلا كان حق عليه أن يدل أمته على خير ما يعلمه لهم، يبين لهم شر ما يعلمه لهم».

وما كان عليه الصلاة والسلام؛ أن يكون مثل إخوانه الأنبياء في هذا الشأن، وكيف لا وهو الذي وصفه الله بقوله ﴿النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم﴾ [الأحزاب:٦].

والرسول ﷺ –الذي تلتقي عليه النبوات، وتنتهي عنده الرسالات، وعند عتبته تقف الهدايات– لا يرضى لأمته إلا أن تكون هي الأمة، التي تحقق في نفسها، ببصيرتها– واستقامتها، وحسن اتباعها قوله سبحانه: ﴿كنتم خير أمة أخرجت للناس﴾ [آل عمران:١١٠].

وكان عليه الصلاة والسلام يعقد لأمته في عروة واحدة لا تنقض الزمان كله، ماضيا عِظة واعتبارا، وحاضراً طاعة وامتثالاً – ومستقبلاً رغباً ورهباً.

فإذا الأمة كلها بمثل هذا على منزلة واحدة؛ تعرف فيها نفسها، وتسعى –وهي قائما فيها، شديدة الحرص عليها– أن تزداد تمكنا منها، وطمعاً في خير منها، ورجاء أن تصيب حظاً أوفر من حظها الذي أصابته؛ فتظل أبداً على وفرة من صدق التصور، وحسن العمل، أخذاً وتركاً.

وكان مما حدث أمته صلوات الله عليه، وأطلعهم بالوحي على غيب مطوي في تضاعيف المستقبل، أن العلم سيفشو، وأن العلم سيظهر، وأن الجهل سيربو. إخبارات تبدو لأول وهلة أنها ستكون متعاقبة، يخلف بعضها بعضا بتراخ أو بإسراع، لكل واحد منها تأويل

يأتي من بعد الذي قبله، يصيب بعضها من بعض ما يزيدها قوة أو ضعفاً، ظهوراً أو خفاء، غير أنها في حالاتها كلها، تبقى علامات ظاهرة -إذا كانت- على أن الساعة قريب تحذر، وأنها آتية لاريب فيها تتقى، وأنها إرهاصات وشواهد صدق على نبوة المخبر بها ﷺ ترقب.

وليس هذا الذي يعنينا من سوق هذه الأمارات، بل هو ما نراه ماثلاً فينا اليوم، يسعى بكل ظواهره وخفاياه، وبجميع مبانيه ومعانيه، فليس شيء منه إلا كائناً على مثل ما أخبر عليه الصلاة والسلام، لم يتخلف منه إلا ما لم يكن قد أخبر به، لم يقبسه من نبوات غبرت، ولا من كتب قرأها واندثرت، ولا من كواهن ألقت أحمالها وتخلت. فلو لم يكن عليه الصلاة والسلام نبياً برسالته التي ملأ نورها آفاق الحياة، لكانت نبوته مصدقة بكل واحد من تلكم الإخبارات، التي حفظتها لنا كتب السنّة المطهرة، وخلدتها فينا سطورها المنورة، وأبقتها بين ظهرانينا يد الله الحافظة.

ولقد نظرت نظر المقارن الموازن بين ما كان عليه العلم قبل نصف قرن من الزمان، وبين ما صار إليه الآن، فعلمت أن العلم صار مطيّة ميسرة لكل من يريد أن يكون جاهلاً دعيَّ النسبة في علمه، مغموزاً في معرفته، آفكاً بزور في ثقافته، فإذا ما وافيت واحداً منهم، متربعاً على أريكته، حسبته مما هو فيه على أثارة من علم، ولا والله لا يبين إلا عن عي!! ولا يفصح إلا عن إ بلاس!! ولا ينطق إلا عن فقر وإعواز!!

على أن في الأمة اليوم علماء، وافوا بعلمهم آفاق القرون الأولى، وصافحت عقولهم عقول العلماء الجهابذة فيها، ونظروا في أنفسهم فعلموا أن بينهم وبين أولئك نسباً شريفاً، افتضح بهم من افتضح من الأدعياء، واستبانت بهم سوءات عقول المغموزين الجهلاء، وانكشفت بهم سرائر الآفكين الدخلاء.

وما كان العلم ليكون في زماننا ذريعة طيعة، ولا مركباً سهلاً، ولا مطيّة ميسّرة، لو كان يبتغي به وجه الله والدار الآخرة، شأن الأولين السابقين. أما وقد صار إلى مثل ما

ذكرنا، فقد غاب سلطانه، وأعتم مكانه، وضل حتى الساعون بـه إليـه، وحق علينـا قـول نبينا عليه الصلاة والسلام: «إن الله لا يقبض العلم انتزاعاً من الناس، ولكن يقبـض العلـم بقبض العلماء، حتى إذا لم يبق عالما، اتخذ الناس رؤوساً جهالاً، فسئلوا فأفتوا بغير علم، فضلوا وأضلوا

ويذكرني حال العلم والعلماء اليوم بحال الأمانة، التي أدبرت عنا، وأولتنا ظهرها، وشردت منا بعيداً، طلباً للنجاة بنفسها، حين أحيط بها، وصارت إلى خشية الضياع، حتى صار يقال فيها: إن في بني فلان أمينا، وحتى صار يقال للرجل: ما أعقله، وما أكيسه، وليس في قلبه مثقال حبة خردل من إيمان.

وهذا ما يقال في العلم والعلماء اليوم، ويقال: فلان عالم، وما أعلمه، وما أوسع فقهه، وما أغزر معرفته، وما أكثر تواليفه، ولا والله، لا هو بالعالم، ولا العلم منه في شيء، وما بينه وبين العلم إلا ما صنع الحداد!!

ولو أنك ذهبت تحصي ما اشتملت عليه تواليفه، ما زاد على سطور سودها، وصحائف ملأها، ومداد أفرغه من قلمه. أما العلم، فليس بينه وبينه إلا عداوة، يعرفها هو بكيس جهله، صارت عنده إلى مودة عادى بها خلائق، ورفع بها عقيرته في الحدائق، وطاف بها متباهيا في الطرائق!

ومما عمق في ذلك، وزاد من بلائه، وأغرق في غلوائه، الغرور الفائق، المائق، الباهق، الذي من به على هؤلاء، من غير منة ولا أذى، ولا ناظراً منهم جزاء اً أو شكوراً.

وكان مما أسرع في ذهاب بركة العلم، وغيوض أثره، أنه طلب لغير الله سبحانه، وحاقت به رغائب الدنيا، وأضحى في حواصل أهله للمراء والسمعة، وإرادته إلى غير غايته بنيات النفوس، فصالت الأهواء بين الناس وبين الفهم السليم لقوله عليه الصلاة والسلام:

«من تعلم علما مما يبتغي به وجه الله عزّ وجل، لا يتعلمه إلا ليصيب به عرضا من الدنيا، لم يجد عرف الجنة يوم القيامة».

واستمكنت تلك الأهواء فيهم، حتى صار مستحيلاً، أو يكاد أن يكون للعقل مكان يقتدر منه، أن يردي تلك النيات والرغائب، فاشتد عبثها بين ظهراني أهل العلم، واستطالت فيهم بكل ما فيها من جشع وطلعة، وأثقلتهم بكل ما فيها إلى عقلها المريرة.

ولست بمنتجع خلاء من الأرض، أترسم فيه آثار خطو مندثرة، وأنا أستظهر للقارئ فقه تلك الأخبار النبوية العالية، التي تطلعنا على أمر لا شك أنه كائن عن فشو العلم، وشيوع الجهل، وظهور القلم، مبيناً له ما حوته من أحكام محكمة في ظاهر لفظها، ومستتر معناها، حيث لا تضاد في مبناها، ولا تنافر في معناها، فكلها يجري في نسق مطرد إلى غاية نصبتها رأفة النبوة، وأملتها شفقة الرسالة، وأوحت إلى معدن هذه وتلك رحمة الله من فوق سبع سموات.

وأول ما ينبغي أن نعلم من فقهها، أنه لا اختلاف قط في معانيها مؤتلفة، كما أن لكل منها معنى بافتراقها وتباينها؛ إذ ليس يعقل أن يكون في كلام النبوة –وهو والكتاب العظيم من مشكاة واحدة– تضاد واختلاف، إلا أن يكون ذلك في ظاهر اللفظ، ويجري التوفيق بين ما هو ظاهر منه، حسب القواعد الأصولية المرعية، التي تتأسس عليها الأحكام المستنبطة من أدلتها التفصيلية.

والثاني: أن هذه الإخبارات النبوية، منها ما دل على المدح في ظاهره، ومنها ما دل على الذم بصريحه، فقوله «يفشو الجهل» لا يعقل إلا أن يفيد الذم، ولا شيء سواه، وقوله: «ظهور القلم، وانتشار العلم» المتبادر منهما المدح، ولكن المقابلة بين «فشو الجهل» وبين «فشو العلم، وظهور القلم» وكونها واقعة في زمان تظهر فيه أمارات الساعة، يلمح إلى أن دلالة الثاني والثالث منها على الذم، أبين من دلالتهما على المدح، بل لايكونان إلا

كذلك، وحسبنا في ذلك، أن اقتران الأشياء زمانا، كاقترانها لفظاً؛ فكلا الاقترانين يدل على ما يدل عليه الآخر، وقد كان الاقترانان معا، والسابق منهما الاقتران اللفظي، وقد أدركنا الثاني، والله وحده المستعان، وعليه التكلان، والتفريق بين تلكما الدلالتين تفريق لايستقيم الحق معه.

والثالث: على ان انفراد كل من فشو العلم، أو ظهور القلم، أو استقلاله من غير ضميمة إلى شيوع الجهل، لاينظر في تأويله إلى المتبادر، من اجتماع حروف كلماته، بل إنه لربما كانت دلالته الخفية على المعنى الضد البعيد أدل على المراد، وإلا، فما كان لأمر يذم مكان بين علامات الساعة الكبرى منها والصغرى على حد سواء.

والرابع: فشو العلم، له أشكال مختلفة وصور عدة، وأكثر ما يلحظ هذا في زماننا هذا، فوسائل الاتصال جميعها -المنظور منها، والمسموع، والمقروء- مسخرة لاتصال المعرفة وتواصلها، بكل فنونها، وأوزاعها، وأوزانها، ولست أعني بالمعرفة هنا، تلك التي ينتحلها زنادقة الفكر الراعفة، واحلاس الأدب المهترئة، وعيبات الشعر المخرقة، وجلالات القلم العائرة، إنما أعني المعرفة التي شرف أهلها بنسبتهم الحقة إلى علوم الإسلام.

ولست أحسبني إلا أني على ظن -هو كمثل اليقين- أن ممن ينسب إلى علوم الإسلام ومعارفه، أسوء حالاً ممن وصفنا آنفاً، فإن فيهم من يهجم على العلم في غير شوكة ولا عدة.

ومنهم من يلجأ إلى الكتاب لجوءً، لا يحمله عليه إلا ريثما يتوارى عن عيون عارفيه، ومنهم من يلوذ به أو إليه لواذ الشارد العائف ، أضناه عيف شروده، فلا يكاد يصيب منه أيسره، حتى يحسب إنه من العلم على شيء!!

ومنهم من يتهجر إلى بداياته، ثم لا يلبث أن يسقط في وسط طريقه، فما أصاب إلا

الوصب، ولا أراده إلا إليه، فما عرف منه حتى اليسير.

ومنهم من يتعرف أسماء المؤلفين السابقين، يحفظها، ويحفظ أسماء الكتب التي ألفوا -لا يزيد على ذلك- فيحسب أن الأمر لا يعدو أن يضع اسمه على غلاف كتاب ينسبه إليه، بسطو ذكي على وجه دهم، قد يخفى على الناس زماناً -أو بسطو غبي- لا يلبث إلا قليلاً حتى يكشف ويفتضح، وقد استوقح حتى باد فيه الحياء، فلا يبالي ما يقول الناس فيه ذماً، فقد استوى عنده باستوقاحه ذمهم ومدحهم، إذ تصلب في عروقه دمه، وجف في أطرافه ماء الحياء، وتبلد في وجهه أسن القذى، وليس يحسن عنده، من بعد، إلا أن يكون غاصباً جاهراً في غصبه -لا يلذه إلا أن يقول فيه الناس: إنه سارق.

ولو كان سارقاً غير العلم بعلم لكان أهون على السرقة نفسها صنيعه، لكنه سارق يبقى وجه سرقته بادياً في الناس، ناطقاً ما دامت سطورها مرقومة في الصحائف، وليس يعيبه إلا أن يغض الناس طرفهم عن سرقاته!! أي والله هكذا.

ومنهم فريق، تستوفزه همته القاعدة به عن الجد في الطلب، أن يأوى إلى كنف عالم شهر في الناس، وصار علماً جهبذاً بما آتاه الله من علم، يرفع بذلك خسيسته، ويدني به إلى الكبراء القلة منزلته، وتتقطع أنفاس لهاثه، وهو يركض قدميه الهزيلتين لإحراز شيء من قليل قليل فاته، فلا يجد ذلك الذي فاته، إلا في خليس ما نبذ ذلك العلم الجهبذ، فيجمع هذا إلى ذاك منه، حتى إذا اجتمع لديه منه ما يصيره رسالة أوكتيبا، قمش اسمه عليه، بعد أن يكون قد استصدر فيه إذناً من الجهة المسؤولة، وهذه الجهة ضالعة بدورها في تسيير الجهل على جادة العلم، وتصيير الجهلاء علماء، يشار إليهم بالبنان، وينادى بهم على رؤوس الاشهاد أنهم من رؤوس العلم، لكنها رؤوس فارغة إلا من الجهل الموبق غيرها أيضاً في ظلمته عياذاً بالله، فهل إلى مرد لهؤلاء إلى أسباب العلم من سبيل؟!

ومنهم من يحب أن العلم ينال بالتزيي بذلك الزي الذي أخرج للمسلمين فيهم صورة كهنوتية شائهة محيت بها آثار تلك الصورة العلمية الشاهدة الاولى، التي راقت الدنيا

زماناً وزهت بها الآفاق دهراً، وعمرت في إطارها الأرجاء حينا؛ وان النظر السليم ليرتد عن تلك الصورة حسيرا كئيبا، وقد امتلأ بقوله عليه الصلاة والسلام: «من تشبه بقوم فهو منهم».

ومنهم فريق يحفظ بعضاً من غرائب المسائل، وشيئاً من شوارد أقوال أهل العلم، فيما يذم ويمدح منه، أو من أهله، ويزين حديثه في المجالس بأبيات من الشعر، والحكمة، والأمثال، ووقائع الأحداث، والأيام، والأرقام، والأعلام، يوهم سامعيه أنه على شيء من علم: يصنع بذلك صنيع القصاصين ذوي الذلاقة اللسانية، والفصاحة الكلامية، يرمقون المفتونين بهم أينما كانوا، ثم يأتونهم على تواعد أو على حين غرة، فيلقون على أسماعهم من فصيح الحديث، ومعسول الكلام، وطريف الأخبار، وتالد الأيام والأشعار، ما يهيج عواطفهم، ويربي من فتنتهم بهم في صدورهم، ويزيد من التثاثهم بهم، فلا يرون خيراً منهم علماً، ولا أحفظ منهم جناناً، ولا أجرى منهم بياناً، شأنهم شأن العامة في كل زمان، تبتلى بهم الأمة، وهم السواد الأعظم فيها، ويصار إليهم بالرأي فيها، وهم الأحط نظراً منها، وتشام فيهم الحكمة، وهم برآء منها.

ومنهم فريق اتخذ العلم مطية للدنيا، فهو لايرى الا حيث يكون نفع دنيوي يرتجيه، أو غنيمة تراوده بفتنة في نفسه، أو مال يصيب منه، ولو قدرا زهيداً، إن استفتي استعصت على لسانه الفتوى، لا يخرجها إلا ما يحتلب ريقه، وإن استنصح استمسك النصح على لهاته، لا يحركها إلا ما يزغها في أسفلها، وإن أريد على حق صراح كان أزهد الناس فيه، إلا أن يرى ما يغريه بالتحول عن باطل أقسم عليه أن لا يفارقه فبر بقسمه، فما أحوجه إذا إلى كفارة، أن وجد خيرا مما أقسم عليه، فلا أقل من أن يكفر عن يمينه هذه.

ومنهم فريق اتخذ العلم مهنة، تملأ الجيب، وترغد العيش، وتربي الثروة، فأقبل عليه من كل أطرافه، يبحث عن شوارده بذكاء، ويستقصي أباعده بخلسه، ويشتد وراء غرائبه بفطنة، حتى إذا اجتمع له من ذلك كله قدر، يسمى رسالة، أو كتاباً، أو مجلداً، اهتز منه

ذنب الفرح، فأخرجه للناس على نحو ما صار إليه رسالة أو كتاباً أو مجلداً، ويخفي في نفسه ما الله مبديه يوماً، يعري فيه عقله، وتنكشف فيه سوأته، ويبين عن صفحة جهل سوداء قاتمة لا ينازعه فيها إلا من زاد عليه في جهله، وطغت عليه سخيمته، وأوفرت له في عافيته، فهو يمضى به إلى أمل من سراب، وغاية من ضباب الخيال، وزهرة عشيت عينه فرآها ناضرة وهي ذاوية في خبء الفناء.

ومنهم فريق يذكر يوما أنه كان على وصل مع أهل العلم وطلابه، فانتبذ منهم، من بعد، مكاناً قصياً، ثم هو –وقد غابت عنه تلك الثمالة، التي نالها منهم– لازال يحشو نفسه وهماً أنه على شيء من العلم، فهو يجري على صفحات المجلات والصحف عقله، يرتجي أن يعرفه الناس كاتباً أو أديباً، أو شاعراً، في إصرار يعاب به، وعجز يزان منه، وضلة تريبه حتى في نفسه.

صور تحاكت، وأشكال تماثلت، ونظائر تسامتت، لكأنما تواضعت كلها على انتحال السوء المزهو في ثياب الدمقس الرافلة، تحور آملة في مواضعها، وتتخالف ظنينة في مظانها، وتتقلب حائرة في مضاجعها، تدور بأصحابها وأعنتها على غواربها، وتتاعنت بذويها، وعراها مدلاة واهية، وتتجاذب بأهلها ورماتها مبثوثة لاحية، فلا عل ما أبقت من بعدها، ولا مالا خلفت لمن وراء ها، ولا هدى آتت من خلفها.

والناظر المتأمل صنيع جل منتسبة العلم في هذا الزمان –فيما ألفوا وكتبوا وأوغلوا– يراهم لا متفرقاً جمعوا، ولا جديدا أحدثوا، ولا قديما بعثوا، ولا عاثرا أنهضوا، ولا ساغباً أشبعوا، ولا معوجاً قوموا، ولا صواباً نهجوا، ولا بعيداً قربوا، ولا صعباً سهلوا، ولامواتاً أحيوا، ثم بعد ذلك يحسبون أنهم من العلم على شيء، أو أنهم، إن غابوا عن المجالس افتقدوا، وإن حضروا عظموا، وإن تحدثوا أبلس غيرهم، وإن نطقوا جرت الحكمة على ألسنتهم، وإن عابوا صدقوا، وإن مدحوا وهبوا، وإن صمتوا أسكتوا، حقهم على الناس أعظم من حقهم هم على أنفسهم، يأخذون ولا يعطون، ويفعلون ولا يسألون، ويردون

ولا يصدرون، ويقولون ولا ينظرون، وهم السابقون الأولون!!

فما لهؤلاء القوم لا يكادون يعلمون الحق، ولا يستبينون طريقه، ولا يميزون صواباً من خطأ، ولاأسود من أبيض، ولا ليلاً من نهار!

مما فات كله نتبين أن الإخبارات النبوية ليست إخبارات مجردة يراد بها إعلام الناس أمراً أو أموراً غائبةً عنهم، بما سيكون فيهم من مستقبل الأيام أو تصديق ما وقع فيها، مما لم يكن قد وقع من قبل أن يشاهدوه، بل يراد بها أيضاً التعريف بآثارها السيئة، والتحذير مما يدركهم من وحرها ووشرها.

ومن شر هذه الآثار وأسوئها:

١ - انتفاش الغرور، والظنون الواترة، والرِّيب السخيمة.

٢- الانتحال الكاذب المفضي إلى استباحة الكذب في العلم، وصيرورته فضيلة من الفضائل، وحسنة تبهج النفس. عياذاً بالله!

٣- حب الظهور والجري وراء الشهرة، والحرص الشديد على أسبابها.

٤- شيوع الاتهامات والإغراق فيها، حتى تصبح سجية مرضية في العلم وأهله.

٥- فشو العداوة بين طلاب العلم واستصغار شأن الجدية فيه.

٦- إساغة السطو على حقوق العلماء، واستحلاب جهودهم حراماً بأيسر الحيل. واستحلال نسبتها إليهم بزور من القول والباطل.

٧- عجز القراء عن متابعة ما تصدره دور النشر والمطابع، والتحير بين الآراء والأفكار التي تقنصها الكتب والرسائل المؤلفة، وأخيراً الرضوخ للملل، والإعراض عنها.

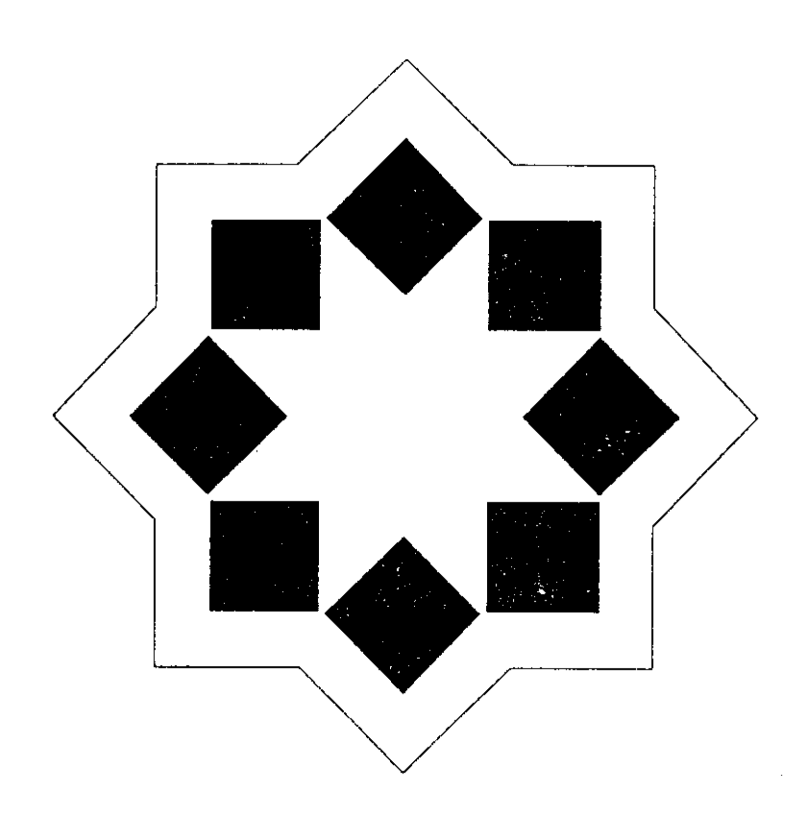
٨- غياب الإبداع العلمي، والركون إلى النقولات المبتسرة الهزيلة.

٩- استبداد الخلاف، وانشغال طلاب العلم بأسبابه ودواعيه ونتائجه.

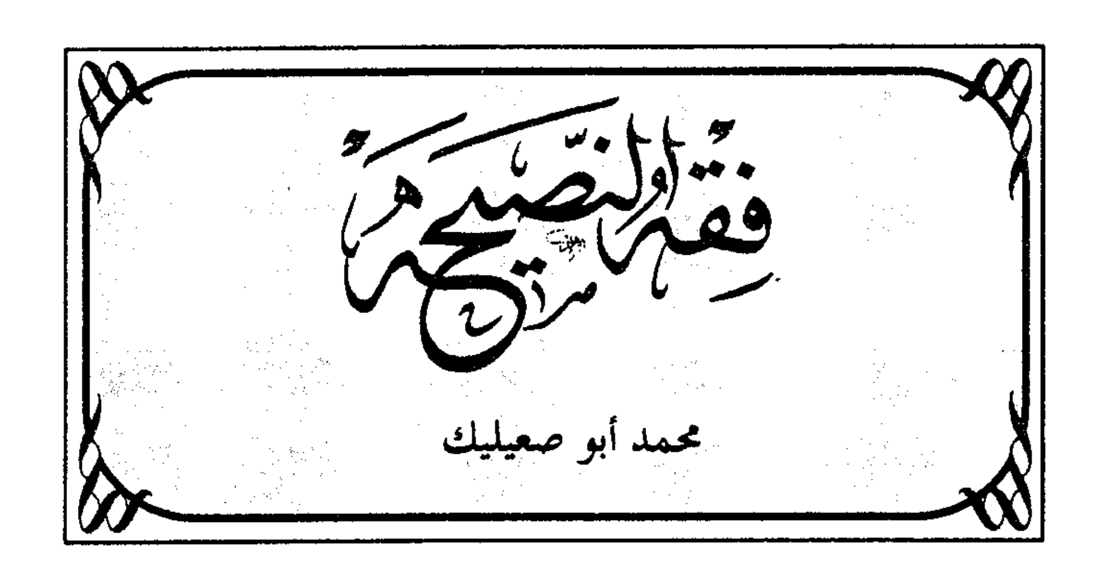
١٠- صرف طلاب العلم عن التراث العلمي الوافر الذي ينشئ فيهم الملكة العلمية.

١١- تبديد الجهود، وصرفها في الترقب والتربص والكيد.

وبعد، أليست كل هذه الآثار السيئة -وغيرها كثير يشبهها- تقفنا على معنى تلك السنن النبوية الحكيمة، والآثار المحمدية المحكمة، فنكون على بينة حاذرة، مما ألم بالعلم وأهله في زماننا الحاضر؟ ونعوذ بالله مما يكون منه في المستقبل الآتي.







المقدمة

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله ﷺ وبعد،

فقد سمى النبي ﷺ النصيحة دينا، وجعلها من حقوق المسلمين فيما بينهم، وبايع بعض صحابته على النصح لكل مسلم، وعدد جوانب النصح ومجالاته، ولكن بسبب قلة الإتباع، وقلة العلم، يرى الواحد منا تجاوزات على حقوق الناس باسم النصيحة، ويشاهد فظاظة وغلظة وشططاً دونما مراعاة لأحكام النصيحة، مع العلم بأن للنصيحة أحكاماً وآداباً تعرفُ عند أهل العلم.

ولهذا فقد رغبت في جمع أحكام النصيحة من كلام أهل العلم بقصد التعليم لنفسي أولاً، والنصح لإخوتي في الله ثانياً، وتقريب هذا الموضوع لطالبيه من طلبة العلم ثالثاً.

وقد يممت وجهي شطر كتب أهل العلم أنهل من معينها، وأجول في رياضها، لأعد باقة يانعة ممتعة في موضوع النصيحة، ومن الله أرجو السداد والتوفيق.

النصيحة

في اللغة والاصطلاح

النصيحة في اللغة: النصيحة مأخوذة من قولهم: نصح الخياط الثوب إذا أنعم خياط ولم يترك فيه فتقاً ولا خللاً[1]، وقيل: مأخوذة من نصحت العسل، إذا صفيته م الشمع[2].

أما النصيحة في الاصطلاح، فلها معان:

١- قال الإمام الخطابي: «النصيحة كلمة يعبر بها عن جملة هي إرادة الخير للمنصـ له»[3].

٢- وقال الإمام الراغب: «النصح: تحري فعل أو قول فيه صلاح صاحبه»[4].

٣- وقال الإمام محمد بن نصر المروذي: «قال بعض أهل العلم: هي عناية القل للمنصوح له كائنا من كان»[5].

العلاقة بين المعنيين:

إذا نظرت في المعنى اللغوي والمعنى الاصطلاحي، وجد ت أن العلاقة بينهما هي في ـ النقص، وتخليص النفس من الشوائب، فكما أن نصح الثوب هو خياطته، ونصح العـ هو تخليصه مما يشوبه، كذلك فإن نصح المرء في تكميل نقصه، وتصفية نفسه مما علق

---

(١) أساس البلاغة: (ص٦٣٥).

(٢) شرح صحيح مسلم: (٣٧/٢).

(٣) معالم السنن: (١٢٥/٤).

(٤) المفردات: (ص٤٩٤).

(٥) جامع العلوم والحكم: (ص١١١).

من الشوائب والذنوب.

وإذا نظرت الى حقيقة النصيحة وجدت أنها على ضربين:

١- تكميل نقص: وهذا في حق العباد الذين يصيبهم النقص، وتقع منهم الأخطاء والذنوب والآثام، ويتصور منهم التقصير.

٢- وصف بالكمال: وهذا في حق الله تبارك وتعالى، وفي حق كتابه الكريم، وفي حق النبي محمد ﷺ.

حكم النصيحة

عند البحث في حكم النصيحة عند أهل العلم وجدت فيها الأقوال التالية:

١- أنها فرض عين: يقول في هذا المقام الإمام ابن حزم: «النصيحة لكل مسلم فرض»[١].

٢- أنها فرض كفاية: قال ابن بطال: «والنصيحة فرض يجزي فيه من قام به ويسقط عن الباقين»[٢].

٣- أن النصيحة قد تكون فرضاً، وقد تكون نافلة، فالنصيحة المفروضة: «هي شدة العناية من الناصح باتباع محبة الله في أداء ما افترض، ومجانبة ما حرم»[٣].

والنصيحة التي هي نافلة: «إيثار محبته على محبة نفسه»[٤].

---

(١) رسالة الجامع لابن حزم: (٥٦/٢).
(٢) شرح صحيح مسلم للنووي: (٣٩/٢).
(٣) جامع العلوم: (ص١١١).
(٤) جامع العلوم: (ص١١١).

ويفسر ابن رجب هذا فيقول:

«فالفرض منها مجانبة نهيه، وإقامة فرضه بجميع جوارحه ماكان مطيقاً له»[1].

ويقول أيضا: «وأما النصيحة التي هي نافلة لا فرض، فبذل المجهود بإيثار الله تعالى على كل محبوب بالقلب وسائر الجوارح، حتى لا تكون في الناصح فضلاً عن غيره، لأن الناصح إذا اجتهد لم يؤثر نفسه عليه، وقام بكل ما كان في القيام به سروره ومحبته، فكذلك الناصح لربه»[2].

أقول: ولا شك أن أولى هذه الأقوال بالقبول قول: من قال إن النصيحة فرض عين على كل مسلم، ولا أرى منافاة بين هذا، وبين ما نقلناه عن ابن رجب رحمه الله.

أركان النصيحة

إذا نظرت في النصيحة وجدت أن أركانها ثلاثة هي:

١- الناصح: وهو الذي ينصح غيره.

٢- المنصوح: وهو الذي ينصحه غيره.

٣- المنصوح به: وهو الأمر الذي ينصح به الناصح المنصوح.

شروط النصيحة

لا بد أن تتوفر في الناصح والمنصوح الشروط التالية:

١- الإسلام: فالأصل في الناصح أن يكون مسلماً، وأما بالنسبه للمنصوح، فيرى بعض

---

(١) جامع العلوم: (ص١١١).

(٢) جامع العلوم: (ص١١٢).

أهل العلم أنه لابد أن يكون مسلماً، وفي هذا يقول الإ مام أحمد: «ليس على المسلم نصح الذمي»[١]. وحجة من اشترط الإسلام حديث جرير بن عبدالله رضي الله عنه وفيه: «والنصح لكل مسلم»[٢].

ويرى آخرون عدم اشتراط الإسلام، وأن التقييد بالإسلام للأغلب، وفي هذا يقول ابن حجر: «والتقييد بالمسلم للأغلب، وإلا فالنصح للكافر معتبر بأن يدعى إلى الإسلام، ويشار عليه بالصواب»[٣].

٢- البلوغ: فيشترط فيهما أن يكونا بالغين؛ لأن البلوغ مناط التكليف، ومن لم يكن بالغاً فليس عليه تكليف، وفي هذا يقول النبي ﷺ: (رفع القلم عن ثلاثة: الصبي حتى يحتلم)[٤].

٣- العقل: فلابد أن يكونا عاقلين؛ لأن العقل مناط التكليف، وقد رفع القلم عمن ليس بعاقل، وفي الحديث: (وعن المجنون حتى يفيق)[٥].

يشترط في الأمر الذي ينصح به ما يلي:

١- أن يكون داخلاً تحت الأمر الشرعي، بأن يكون إما طلباً لفعل مطلوب فعله شرعاً، أو طلباً لترك أمر مطلوب تركه شرعاً، وعلى هذا فإن النصح بترك المأمور به شرعاً لا يسمى نصيحة، وكذا النصح بفعل المحرم شرعاً لا يعد نصحاً شرعياً يحتم على المنصوح

---

(١) جامع العلوم: (ص١١٤).

(٢) رواه البخاري (رقم ٥٧).

(٣) فتح الباري: (١/١٤٠).

(٤) رواه أبوداود:(رقم ٤٣٩٨)، والنسائي: (٢/١٠٠)، وابن ماجة: (رقم ٢٠٤١)، وأحمد: (٦/١٠٠،١٠١) والحديث صحيح [المجلة].

(٥) هو جزء من سابقه.

قبوله، وعلى الناصح إسدائه، كأ ن ينصح أحد آخر بحلق لحيته، أو ترك الصلاة، أو نصح المرأة بالتبرج وخلع اللباس الشرعي، أو ترك الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، فهذه أمور لا تعد من باب النصيحة التي جعلها النبي ﷺ دينا.

٢- أن يكون الأمر المنصوح به قد اتفق أهل العلم على طلب فعله أو تركه، ولا يكون أمراً خلافيا بين أهل العلم يبيحه قوم، ويمنعه آخرون، وهذا أمر متفرع على قاعدة العلماء في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، في أنه لا إنكار على مجتهد، ولا إنكار في أمر مختلف فيه.

وفي هذا المقام يقول سفيان الثوري رحمه الله: «إذا رأيت الرجل يعمل العلم الذي اختلف فيه، وأنت ترى غيره فلا تنهه»[١]،ويقول أيضا: «ما اختلف فيه الفقهاء، فلا أنهى أحدا من إخواني أن يأخذ به»[٢].

ويقول الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله تعالى: «لا ينبغي للفقيه أن يحمل الناس على مذهب، ولا يشدد عليهم»[٣].

ولكن يستثنى من هذه القاعدة حالتان ذكرهما القاضي أبو يعلى الحنبلي حيث يقول: «ما ضعف الخلاف فيه، أوكان ذريعة الى محظور متفق عليه كَرِبَا النقد، فيدخل في انكار المحتسب بحكم ولايته»[٤].

هذه في تصوري شروط وأركان النصيحة، ومن الله أرجو العون والسداد، إنه على كل شيءٍ قدير.

---

(١) الحلية لأبي نعيم: (٦/٣٦٨).
(٢) الفقيه والمتفقه: (٢/٦٩).
(٣) الآداب الشرعية: (١/١٨٦).
(٤) الآداب الشرعية: (١/١٨٦).

آداب النصيحة

لابد أن يتحلى الناصح بآداب النصيحة حتى تقع نصيحته من المنصوح موقع القبول، ومن هذه الآداب:

١- أن يقصد وجه الله عزّ وجل:

لا بد للناصح من أن يقصد بنصحه وجه الله عزّ وجل؛ إذ بهذا القصد يستحق الثواب والأجر من الله تعالى، ويستحق القبول لنصحه من العباد، نفهم هذا من حديث النية المشهور.

فعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: (إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرئ مانوى، فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله، فهجرته إلى الله ورسوله، ومن كانت هجرته لدنيا يصيبها أو امرأة ينكحها، فهجرته إلى ما هاجر إليه)[١].

وبتخلف هذا القصد ينال السخط والعقاب من ربه سبحانه وتعالى، ويوغر صدور الناس عليه، ومنهم المنصوح، ويبعد الناس عن نفسه.

٢- أن لا يقصد التشهير:

لابد أن يحرص الناصح على عدم التشهير في نصحه بالمنصوح له، وهذا آفة يقع فيها كثير من الناس، تراه يخرج النصيحة في ثوب خشن، ولكن إذا دققت فيها وجدت أنه يقصد التشهير بالمنصوح، وهذا ليس من أدب النصيحة في شيء، وليس من أخلاق المسلمين، وربما أفضى ذلك إلى حصول سوء، أو زيادة شر، ولم تؤت النصيحة ثمرتها

---

(١) رواه البخاري (رقم ١)، ومسلم بشرح النووي: (٥٣/١٣)، وأبوداود: (رقم ٢١١٥)، والترمذي: (رقم ١٦٩٨)، والنسائي: (٥٩/١-٦٠)، وابن ماجة: (رقم ٤٢٢٧).

المرجوة.

٣- أن يكون النصح في السر:

ذلك لأن المنصوح امرؤ يحتاج إلى جبر نقص وتكميله، ولا يسلم المرء بذلك من حظ نفسه إلا لحظة خلوة وصفاء، وهذه اللحظة تكون عند المسارة في السر، وعندها تؤتي النصيحة ثمرتها، ولايكون الناصح عوناً للشيطان على أخيه، فإن الناصح في مَلأٍ يعين الشيطان على صاحبه، ويوقظ في نفسه مداخل الشيطان، ويغلق أبواب الخير، وتضعف قابلية الانتفاع بالنصح عنده.

ولهذا المعنى فقد حرص سلفنا الصالح رضوان الله عليهم على النصح في السر دون العلن، وفي هذا المقام يقول الحافظ ابن رجب رحمه الله: «وكان السلف إذا أرادوا نصيحة أحد، وعظوه سراً، حتى قال بعضهم: «من وعظ أخاه فيما بينه وبينه، فهي نصيحة، ومن وعظه على رؤوس الناس فإنما وبخه»[(١)].

وقال الفضيل بن عياض رحمه الله: «المؤمن يستر وينصح، والفاجر يهتك ويعير»[(٢)]، ويعقب الحافظ ابن رجب على كلمة الفضيل هذه بقوله: «فهذا الذي ذكره الفضيل من علامات النصح، وهو أن النصح يقترن به الستر، والتعيير يقترن به الإعلان»[(٣)].

ويقول الإمام أبوحاتم بن حبان البستي رحمه الله تعالى: «النصيحة تجب على الناس كافة على ما ذكرنا قبل، ولكن إبداءها لا يجب إلا سراً، لأن من وعظ أخاه علانية فقد شانه، ومن وعظه سراً فقد زانه، فإبلاغ المجهود للمسلم فيما يزين أخاه أحرى من القصد فيما

---

(١) جامع العلوم: (ص:٧٧).

(٢) جامع العلوم: (ص:٧٧).

(٣) الفرق بين النصيحة والتعيير: (ص٣٦).

يشينه»[1].

ويقول الامام أبو محمد ابن حزم الظاهري رحمه الله: «وإذا نصحت فانصح سراً لاجهراً، وبتعريض لا تصريح، إلا أن لا يفهم المنصوح تعريضك، فلا بد من التصريح»[2].

وإذا نظرت فيما نقلناه هنا، ثم قارنت ذلك بما يقع فيه أولئك الذين يرفعون أصواتهم بنصح الناس على الملأ، ثم سألتهم: ما الثمرة التي تحققت من النصح في الجهر والعلن؟ إنها إصرار المنصوح على الخطأ والتقصير، وإيغار الصدور على الناصح، وسوء الظن بالناس، وقطع الروابط والعلاقات بين الناصح والمنصوح، وكل هذا يقع تحت لائحة عريضة هي: إعانة الشيطان على أخيك.

٤- أن يكون النصح بلطف وأدب ورفق:

لا بد للناصح من أن يكون لطيفاً رقيقاً أديباً في نصحه لغيره، وهذا يضمن استجابة المنصوح للنصيحة، ذلك لأن قبول النصح كفتح الباب، والباب لا يفتح إلا بمفتاح مناسب، والمنصوح امرؤ له قلب قد أغلق عند مسألة قصر فيها، إن كانت أمراً مطلوباً للشارع، أو وقع فيها، إن كانت أمرا ممنوعاً من الشارع.

وحتى يترك المنصوح الأمر أو يفعله لا بد له من انفتاح قلبه له، ولا بد لهذا القلب من مفتاح، ولن تجد له مفتاحاً أحسن ولا أقرب من لطف في النصح، وأدب في الوعظ، ورفق في الحديث، كيف لا والنبي ﷺ يقول: (ما كان الرفق في شيء إلا زانه، وما نزع من شيء إلا شانه)[3].

---

(١) روضة العقلاء: (ص١٩٦).
(٢) الأخلاق والسير: (ص٤٤).
(٣) رواه مسلم: (١٦/ ١٤٦).

ويقول عبدالعزيز بن أبي دؤاد رحمه الله: «كان من كان قبلكم إذا رأى الرجل من أخيه شيئاً يأمره في رفق، فيؤجر في أمره ونهيه، وإن أحد هؤلاء يخرق بصاحبه، فيستغضب أخاه، ويهتك ستره» [1].

فانظر عبدالله حال من نصح بشدة وغلظة وفظاظة، كم من باب للخير قد أغلق؟ وكم من منصوح قد صد عن باب الله؟ وكم من صديق قد أوغر صدره على نفسه، وكم من أذى قد أوقع على أخيه في الله؟ وكم من الأجر قد فاته؟ وكم قد أعان الشيطان على إخوانه؟

وانظر في الجهة المقابلة إلى حسن الرفق في النصيحة، فكم من قلب مغلق قد فتح؟ وكم من حق مضاع قدحفظ؟ وكم من نقص قد استكمل؟ وكم من أخوة قد روعيت؟ وكم من تأخر عن الركب قد أدرك؟ وكم من الأجر قد تحصل؟ وكم من إرغام للشيطان قد كان؟ قارن عبدالله بين الحالين لترى الفرق، والله يرعاك.

٥- عدم الإلزام:

من واجب الناصح أن ينصح غيره، ولكن ليس من حقه أن يلزم غيره بما ينصحه به؛ لأن هذا ليس من حقه، بل هو حق للحاكم في رعيته، والناصح دال على الخير، وليس بآمر بفعله.

أما الحاكم فهو آمر بفعل الخير، ناه عن فعل الشر، وفي هذا المعنى يقول الإمام ابن حزم الظاهري رحمه الله تعالى: «ولا تنصح على شرط القبول منك، فإن تعديت هذه الوجوه، فأنت ظالم لا ناصح، وطالب طاعة وملك، لا مؤدي حق أمانة وأخوة، وليس هذا حكم

(١) جامع العلوم: (ص٧٧).

العقل، ولا حكم الصداقة، لكن حكم الأمير مع رعيته، والسيد مع عبده»[1].

ويقول أيضاً: «فإن خشنت كلامك في النصيحة فذلك إغراء وتنفير، وقد قال الله تعالى: ﴿فقولا له قولاً ليناً﴾ [طه: ٤٤-]. وقال رسول الله ﷺ: (ولا تنفروا)[2]، وإن نصحت بشرط القبول منك، فأنت ظالم، أو لعلك مخطيء في وجه نصحك، فتكون مطالباً بقبول خطئك، وبترك الصواب»[3].

مما نقلنا لك تعرف أن للناصح أن يقول الكلمة، ويصدر التوجيه فقط، وليس له أن يلزم غيره بالأخذ بما قال، فإن ذلك واجب القاضي والحاكم، والقاضي والحاكم قلة في المجتمع لطلبهما الالزام، والناصح كل فرد مكلف في المجتمع، فإذا كان لكل ناصح أن يلزم غيره بقوله، أصبح كل المجتمع حكاماً وقضاة، وعندها فمن يكون المحكوم والرعية؟

٦- اختيار الوقت المناسب للنصيحة:

لا بد للناصح من اختيار الوقت المناسب الذي يسدي فيه النصيحة للمنصوح، لأن المنصوح لا يكون في كل وقت مستعداً لقبول النصيحة، فقد يكون مكدراً في نفسه بحزن أو غضب أو فوات مطلوب، أو غير ذلك مما يمنعه من الاستجابة لنصح الناصح.

وفي هذا المعنى يقول الاستاذ عبدالحميد البلالي: «فاختيار الوقت المناسب والظرف المناسب من أكبر الأسباب لقبول النصيحة وإزالة المنكر، وكان ابن مسعود رضي الله عنه يقول: «إن للقلوب شهوة وإقبالاً، وفترة وإدباراً، فخذوها عند شهوتها وإقبالها، وذروها عند فترتها وإدبارها»[4]، فهنيئاً لذلك الداعية الذي يعرف متى تدبر القلوب، ومتى تقبل،

---

(١) الأخلاق والسير: (ص٤٤).

(٢) رواه البخاري في صحيحه: (٨/٦٠). ومسلم: (٣/١٣٥٨-١٣٥٩).

(٣) الأخلاق والسير: (ص٤٨).

(٤) الآداب الشرعية لابن مفلح: (٢/١٠٩).

فيحسن الإنكار، ويجيد مخاطبة القلوب»[1].

حقاً إنه لابد للناصح من تخير الوقت المناسب لقبول النصيحة عند إسدائها، طالما أن الناصح رجل يتعامل مع القلوب والأحاسيس والمشاعر، فرب وقت لايكون فيه المرء مهيئاً لقبول النصح تعرض له أحمق بدعوى النصح، فأغلق قلبه وعقله أمام نصحه وإرشاده، وكان الناصح الجاهل هو السبب في ذلك.

هذه في تصوري الآداب التي يجب أن يتحلى بها الناصح في نصحه حتى يكون النصح في ثوبه المطلوب، وحتى تقع النصيحة من المنصوح موقع قبول لا رد، مما يجعلها مثمرة تجبر النقص، وتسد الخلل، ولا توغر الصدور وتفرق الجماعات، ولا تكون عوناً للشيطان على المنصوحين. والله أعلم.

الفرق بين النصح والتعيير

قد يلبس بعض الناس الذم والتعيير لغيرهم لبوس النصيحة، فيخدع بذلك من لا يعرفه، وربما أفضى به ذلك إلى الوقوع في أعراض الناس ونهشها، ولذا فقد عقدت هذا المبحث للتفريق بين النصح والتعيير مقتبساً ذلك من كتب ثقات علمائنا رحمهم الله، ولقد تبدى لنا أن الفرق بين النصح والتعيير يكون كما يلي:

١ – النصيحة تكون في السر، والتعيير يكون في العلن: وفي هذا يقول ابن رجب: «فهذا الذي ذكره الفضيل، (مقولته التي نقلناها في موضع النصح في السر) من علامات النصح،

(١) فقه الدعوة في إنكار المنكر: (ص١١٤–١١٥).

فالنصح يقترن به الستر، والتعيير يقترن به الاعلان»[1].

٢- يقوم بالنصح المؤمن، ويقوم بالتعيير الفاجر: ونعيد هنا مقولة الفضيل بن عياض رحمه الله: «المؤمن يستر وينصح، و الفاجر يهتك ويعير»[2].

وحول تحديد غرض كل من الناصح والفاضح، يحدثنا الحافظ ابن رجب فيقول: «فلهذا كان إشاعة الفاحشة مقترنة بالتعيير، وهما من خصال الفجار؛ لأن الفاجر لاغرض له في زوال المفاسد، ولا في اجتناب المؤمن للنقائص والمعايب، إنما غرضه في مجرد إشاعة العيب في أخيه المؤمن، وهتك عرضه، فهو يعيد ذلك ويبديه، ومقصوده تنقصة أخيه المؤمن في إظهار عيوبه ومساويه للناس؛ ليدخل عليه الضرر في الدنيا. وأما الناصح، فغرضه بذلك إزالة عيب أخيه المؤمن باجتنابه له»[3].

٣- غرض الناصح الإصلاح وغرض المعير الإفساد: وقد مر في النقطة السابقة أن مقصود الناصح من نصحه الإصلاح وتسديد المسار، وتكميل النقص، وهذا بلا شك قصد شريف يشكر صاحبه عليه عند الناس، ويؤجر عليه عندالله.

وعلى العكس من ذلك، فإن مقصد المُعيِّر هتك الأعراض، وإشاعة الفساد والإفساد، وإيغار الصدور، وتتبع العورات، ولا شك أن هذا من أقبح الذنوب والأعمال عندالله وعند الناس.

٤- الناصح يؤدي حقاً واجباً عليه لأخيه المؤمن: فهو مأجور على نصحه لأخيه. وأما المُعيِّر، فهو متهك لحقوق عباد الله مفرق لجماعتهم، مفسد لدينهم، وبالتالي فهو آثم عند

(١) الفرق بين النصيحة والتعيير: (ص٣٦).

(٢) المصدر نفسه: (ص٣٦).

(٣) المصدر نفسه: (ص٣٧).

ا لله جزاءَ إيذاءِ عباد الله بإشاعة الأذى والفاحشة بينهم، والله سبحانه يقول: ﴿إن الذيـ يحبون أن تشيع الفاحشة في الذين آمنوا لهم عذاب أليم في الدنيا والآخرة﴾ [النور:١٩].

٥- الناصح يخلو من حظ النفس في الغالب، وأما المُعيِّر فغير خال من حظ نفسه ومرض قلبه: ذلك لأن الناصح يحب لمنصوحه ما يحبه لنفسه من أفعال الخير، وبالتالي يحرص علـ ازدياده منها، ولو كان فيها حظ نفس لما أقدم على النصيحه. وأما المُعيِّر، فلا يحب مـ يريد تعييره، ولا يحب له الخير، بل يرجو له الشر، ولا تخلو مقولته من حظ نفس يدفعه إ الأذى والإفساد.

هذه في تصوري أهم الفروق بين النصح والتعيير، وقد استفدتها من رسالة لابـن رجـ في هذا، كما استفدت من كلام غيره، والله أعلم، ومن الله أرجو العون والسداد.

العوامل المؤثرة في قبول النصيحة

هناك عوامل مؤثره في قبول النصيحة، وقد تؤخرها أحياناً، وقد تصد المنصوح عـ الأخذ بالنصح أحياناً، وهذه العوامل اذكرها كما يلي:

١- التزام آداب النصيحة:

من راعى في نصحه آداب النصيحة، التي سبق بيانها، رجونا قبول نصحه، ومن لم يلتز بها، ففي الغالب لا تعطي نصيحتهُ ثمرتها، ولا يتحقق لها القبول عند الناس.

ولذا فكم ردت نصيحة لكون صاحبها لم يراعِ فيها ما يليق بالنصح وأهله.

وكم من ناصح ألقى نصحه لغيره بغير أدب ولا ملاطفة، فانقلب أمره من صور الناصح إلى صورة الشامت المبغض المعادي، الذي لا يرغب الناس في سماع كلامه، و مجالسته، ولا الوقوف عند نصحه، وكم أثمر التزام أداب النصيحة، أخوة صادقة، وود متبادلاً، وقرباً دائماً، ودلالة من الخير لا تنكر.

٢- الكبر:

فمن وجد فيه الكبر منعه من قبول النصح والأخذ به، ومن خلا قلبه من الكبر رجي منه قبول النصيحة؛ ذلك لأن الكبر هو (بطرالحق وغمط الناس)[١] كما قال النبي ﷺ.

والنصح من الحق، والناصح من الناس، والمتكبر قد بطر الحق وغمط الخلق، فهو غير قابل لا بالنصيحة ولا بالناصح، ولذا فقد صده ذلك عن قبول النصح، وعلى العكس من ذلك فلو كان متواضعاً لقبل نصح غيره بصدر رحب، ولما استهان بنصح من نصحه، كائنا هذا الناصح من كان؛ لأنه يرى فيه تأدية الواجب، والعمل بحقوق المؤمنين بعضهم على بعض.

٣- الإعجاب بالنفس:

فمن كان معجباً بنفسه، لا يرجى منه قبول النصح، لأنه لا يرى رأياً ولا فضلاً لغيره عليه، فما دام قد انتفخ وأعجب بنفسه فأنى له قبول نصح غيره.

وفي هذا المقام يحدثنا الإمام أبوحاتم محمد بن حبان البستي رحمه ا لله فيقول: «وأكثر ما يوجد ترك قبول النصيحة من المعجب برأيه»[٢] واستشهد رحمه الله على هذا المعنى بقول الأبرش:

إذا نصحت لذى عجب لترشده ... فلم يطعك، فلا تنصح له أبدا
فإن ذا العجب لا يعطيك طاعته ... ولا يجيب إلى إرشاده أحدا
وما عليك، وإن غوى حقبا ... إن لم يكن لك قربى أو يكن ولدا[٣]

---

(١) رواه مسلم بشرح النوري: (٨٩/٢).
(٢) روضة العقلاء: (ص١٩٦).
(٣) روضة العقلاء: (ص١٩٦).

٤- صفاء النفس:

فإن المرء إذا رزقه الله صفاء نفس أورثه ذلك الإنصاف للناس من نفسه، وأحوج الناس إلى الإنصاف المنصوح؛ لأنه إذا لم ينصف ناصحه لا يقبل نصحه، ولا يسمع لإرشاده، ولا يعمل على ترك ما طلب منه تركه، والحق أن صافي النفس محكمٌ لقياد نفسه، منتصرٌ على شهواتها وأهوائها، فإذا جاءه من يعينه على هذا استبشر به، أوعمل بمراده.

ولكن وجود هذا الوصف في الناس قليل، فأين هم الصافون في نفوسهم الذين يسمعون لقول الناصحين؟

لكأنك عندما تتحدث عن صفاء النفس تصف قوماً آخرين بينك وبينهم بعد المشرقين، أو أنهم في عالم آخر لسنا من أهله.

وبعد، فهذه في حدود اطلاعي أهم الأمور المؤثرة في قبول النصيحة سلباً وإيجاباً، والله المستعان.

ثمار النصيحة

النصيحة بذرة طيبة يبذرها الناصح، ولا بد للبذرة السليمة التي روعي فيها ما يصلح الزرع من ثمرة، وكذا النصيحة، فإذا روعيت آدابها وشروطها رجونا أن تتحصل منها الثمار الطيبة، والآثار الخيرة، ويمكن إجمال ثمار النصيحة في الأمور التالية:

١- تنقية المنصوح من الشوائب:

فإن الناصح عندما يرى من منصوحه غفلة عن خير، أو وقوعاً في شر، فيعمد إلى تقويمه وتنقية نفسه من الشوائب سيراً بها إلى التقليل من القصور في حق الله أولاً، ثم في حق عباده ثانياً، وهذا مكسب كبير للإنسان لو تمعن فيه، وهذا تكميل لنقص وقع فيه المرء من

حيث يدري أو لا يدري، فإذا بمتطوع يذب عنه النقص، ويخلصه من الذنب، وأي شائبة أشد من التقصير في حق ذي الحق؟ وأي نقاء أكرم وأبرك من حرص أخيك عليك؟

٢- دوام المحبة والألفة:

فإن المنصوح إذا نصحه الناصح بما يسدد خطأه، ويكمل نقصه، كان ذلك طريقاً لدوام الألفة بين الاثنين، ذلك لأن الناصح محب لمنصوحه، ويحب لأخيه ما يحب لنفسه، ولا بد أن يقابله صاحبه بمثل ذلك إن كان عاقلاً، وعليه فكم من نصيحة صادقة أدامت بين الأحبة وداً، وسدت في شخصية أحدهم نقصاً، وأبعدت عن النفس غوائل الشيطان، وألحقت من تأخر وتلكأ بالركب!!

ومن الجميل أن نسمع كلاماً دقيقاً لابن حزم في حد النصيحة، لنرى من خلاله هذه الثمرة من ثمار النصيحة. يقول الامام علي بن حزم رحمه الله تعالى: «وحد النصيحة أن يسوء المرء ما ضر الآخر، ساء ذلك الآخر أم لم يسؤه، وأن يسره ما نفعه، سر الآخر أو ساءه، فهذا شرط في النصيحة زائد على شروط الصداقة»[1].

٣- أداء حق الأخوة:

إن الناصح حين ينصح غيره إنما يؤدي ما لأخيه من حق عليه، وهذا الحق يتعلق بحب المرء لغيره مثل ما يحبه لنفسه، وهذا الأمر يؤدى بطرق منها النصيحة.

ذلك لأنك لا تحب لنفسك النقص ولا ترضاه، بل تعمل على إزالته وتلافيه، وواجب الأخوة يفرض عليك أن تعامل أخاك المنصوح بمثل ما تعامل به نفسك، وطالما أنك لا ترضى لنفسك النقص، فأنت لا ترضى لأخيك النقص، لذا تقوم بنصحه وإرشاده وإعانته على الخير، وإبعاده عن الشر.

---

(١) الأخلاق والسير: (ص٤١).

وهذه أمور لابد لمن تآخيا من تحقيقها، وعنوان تحقيق ذلك بذل النصح لمن احتاج إلي ليكون علامة للاخوة، وطريقاً لقرب القلوب، وسداً أمام الضغائن والمحن.

وفي هذا الباب يحدثنا أبو حاتم محمد بن حبان البستي فيقول: «النصيحة إذا كانت عل نعت ما وصفنا تقيم الألفة، وتؤدي حق الأخوة»[1]. وفي هذا يقول الخليفة عمر بـ عبدالعزيز: «من وصل أخاه بنصيحة له في دينه، ونظر له في صلاح دنياه، فقد أحسـ صلته، وأدى واجب حقه...»[2].

ولعل سائلاً يسأل هنا: كيف تكون النصيحة من حقوق الأخوة مع أن فيها ذكـ العيوب وهذا يوحش القلب؟

ويجيب عن هذا السؤال الامام الغزالي فيقول: «فاعلم أن الإيحاش إنما يحصل بذكر عيـ يعلمه أخوك من نفسه، فأما تنبيهه على مالا يعلمه، فهو عين الشفقة، وهو استما القلوب، أعني قلوب العقلاء، وأما الحمقى فلا يلتفت إليهم، فإن من ينبهك على فعـ مذموم تعاطيته، أو صفة مذمومة اتصفت بها لتزكي نفسك عنها، كان كمن ينبهك عـ حية أو عقرب تحت ذيلك، وقد همت بإهلاكك، فإن كنت تكره ذلك فما أشد حمقك والصفات الذميمة عقارب وحيات، وهي في الآخرة مهلكات»[3].

٤- حصول الأجر:

الناصح إذا أسدى لغيره نصحاً استحق عليه الأجر العظيم من الله سبحانه وتعالى، علـ حرصه على إخوانه، وحبه لهم.

---

(١) روضة العقلاء: (ص١٩٧).

(٢) تاريخ الطبري: (٥٧٢/٦).

(٣) الإحياء: (١٨٢/٢).

هذه في تصوري الثمرات التي تستفاد من النصيحة.

شرح حديث النصيحة

بعد هذه الجولة في كتب علمائنا عليهم رحمة الله نعود الى حديث تميم الداري في النصيحة من أجل توضيح معانية بما يقرب فهمه لطالبه، ومن الله نرجو العون والقبول.

١- نص الحديث:

عن أبي رقية تميم بن أوس الداري رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: (الدين النصيحة) ثلاثاً قلنا: لمن يا رسول الله؟ قال: (لله عز وجل، ولكتابه، ولرسوله، ولأئمة المسلمين، وعامتهم).

٢- تخريجه:

روى هذا الحديث كل من:

١- الإمام مسلم في صحيحه: ٣٧/٢.

٢- والإمام أحمد في مسنده: ١٠٢/٤، ١٠٣.

٣- والإمام أبو داود في سننه: كتاب الأدب، باب في النصيحة. برقم: ٤٩٤٤.

٤- والإمام النسائي في السنن الصغرى: كتاب البيعة، باب النصيحة للامام: ١٥٦/٧.

٥- والإمام أبو بكر عبدالله بن الزبير الحميدي في مسنده، برقم: ٨٣٧.

٦- ومحمد بن نصر المروزي في كتاب: تعظيم قدر الصلاة.

٧- وابن خزيمة في كتاب السياسة. انظر عمدة القاري: ٣٢١/١.

٨- والإمام أبو عوانة الأسفرائيني في مسنده: ٣٦/١، ٣٧.

٩- والامام الطبراني في المعجم الكبير: رقم ١٢٦٠-١٢٦٨.

١٠- وابن حبان البستي في كتاب روضة العقلاء: ص١٤٩.

١١- والبيهقي في كتاب الآداب. رقم: ٢٢٦.

١٢- وعلقة البخاري في صحيحه: كتاب الايمان، باب الدين النصيحة: ١/١٣٧.

١٣- وأبو الشيخ في التوبيخ رقم: ٣.

وبعد، فهذا ما وقفت عليه من تخريج لحديث تميم الداري في النصيحة مما تيسر الاطلاع عليه من مصنفات أئمة الحديث المسندة، والله المستعان.

لماذا علق البخاري الحديث؟

قدمنا أن الإمام البخاري رحمه الله قد علق هذا الحديث، بمعنى أنه رواه في كتابه ب سند[1]، فما سر ذلك الصنيع؟

أجاب أهل العلم بالحديث عن ذلك بأجوبة نذكر منها:

١- هذا الحديث ليس على شرط البخاري، بمعنى أن البخاري لم يخرج لأي من رج هذا الحديث، وفي هذا يقول الحافظ ابن حجر رحمه الله تعالى: «ولم يخرجه مسند الكتاب لكونه على غير شرطه»[2].

٢- الاختلاف على سهيل بن أبي صالح فيه، فقد روي عنه عن أبيه عن أبي هري وقد روي عنه عن عطاء عن تميم، ولهذا فإن البخاري لم يخرجه في صحيحه، وفي هذا يق

---

(١) هذا ليس تعريفاً صحيحاً للتعليق إذ أن المعلق اصطلاحاً هو ما حذف أول سنده، سواء أكان المحذوف واحا أكثر على التوالي، ولو إلى أخر السند. [المجلة].

(٢) فتح الباري: (١/١٣٧).

الحافظ ابن حجر: «وهذا الاختلاف على سهيل لم يخرجه في صحيحه، بل لم يحتج به أبدا»[1].

٣- شواهد الحديث:

لا يفوتنا أن نشير الى أن حديث النصيحة بتمامه قد ورد من طريق عدة من الصحابة سوى تميم، وهذا ما سنعمد إلى إثباته هنا من طريق الصحابة الذين رووه مع تخريج هذه الطرق:

أ- طريق ابن عمر:

١- رواه الامام الدارمي في سننه، كتاب الرقاق، باب الدين النصيحة[2].

وقال الألباني عن سند الدارمي: «وهذا سند حسن، وهو على شرط مسلم»[3].

٢- الطبراني في كتاب مكارم الأخلاق[4].

٣- والبزار في مسنده كما في مختصر زوائده لابن حجر[5]، وقال البزار: «وهذا لا نعلم يروى عن ابن عمر -رضي الله عنهما- إلا من هذا الوجه، ولا نعلم أحداً جمع بين زيد ونافع إلا جعفر بن عون عن هشام[6]. وقال الهيثمي عن رواية البزار هذه: «ورجاله رجال الصحيح»[7].

---

(١) فتح الباري: (١/١٣٨).

(٢) (٢/٣١١).

(٣) الأرواء (١/٦٣).

(٤) رقم: (٦٦).

(٥) رقم: (٣٨).

(٦) مختصر زوائد البزاز رقم: (٣٨).

(٧) مجمع الزوائد: (١/٨٧).

٤- وأبو الشيخ في كتاب التوبيخ[1].

ب- طريق ابن عباس: وقد رواها :-

١- الإمام أحمد بن حنبل في مسنده[2].

٢- والطبراني في المعجم الكبير[3].

٣- والبزار في مسنده كما في المجمع[4].

٤- وأبو يعلى الموصلي في مسنده.

٥- وأبو الشيخ في كتاب التوبيخ: رقم١٢.

وقال الهيثمي عن رواية أحمد: فمقتضى رواية أحمد الانقطاع بين عمرو وابن عباس، ومع ذلك فيه عبدالرحمن بن ثابت بن ثوبان، وقد ضعفه أحمد، وقال: أحاديث مناكير (١/٨٧). وقال أيضاً عن رواية أبي يعلى: ورجاله رجال الصحيح (المجمع:١/٨٧).

٦- والبخاري في التاريخ الكبير (المجمع:٦/٤٦١).

٧- وابن أبي حاتم الرازي في العلل (٢/١٧٦).

٨- والضياء المقدسي في المختارة (٧٧/١٠٠/١..) كما في الإرواء: (١/٦٣).

٩- والديلمي في مسند الفردوس رقم:٦٥٨٤.

---

(١) رقم: (٨).
(٢) (١/٣٥١).
(٣) رقم: (١١١٩٨).
(٤) (١/٨٧).

ج- طريق أبي هريرة، وقد رواها:

١- الإمام أحمد في مسنده: ٢٩٧/٢.

٢- والترمذي في سننه، كتاب البر والصلة، باب ما جاء في النصيحة رقم:١٩٢٦.

٣- والامام النسائي في السنن الصغرى، كتاب البيعة، باب نصيحة الإمام: ١٥٧/٧.

٤- وابن نصر المروزي في كتاب تعظيم قدر الصلاة.

٥- وأبو نعيم في كتاب الحلية[١].

٦- وأبو الشيخ في كتاب التوبيخ[٢].

وقال الترمذي: حديث حسن صحيح[٣].

د- طريق ثوبان: وقد رواها:

١- الطبراني في المعجم الأوسط، كما في المجمع[٤]. وقال الهيثمي: وفيه أيوب بن سويد، وهو ضعيف لا يحتج به[٥].

٢- والبخاري في التاريخ الكبير[٦].

وبعد، فهذا ما وقعت عليه من طرق لحديث النصيحة بتمامه، ولم أعرج هنا على كل حديث في موضع النصيحة خشية الإطالة، ولكونه ليس مقصودنا، والله تعالى أعلم.

---

(١) الحلية: (٢٤٢/٦، ١٤٢/٧).

(٢) التوبيخ برقم: (٧).

(٣) سنن الترمذي: (٣٧٤/٤).

(٤) مجمع الزوائد: (٨٧/١).

(٥) المجمع: (٨٧/١).

(٦) التاريخ: (٤٦١/٦).

تواتر حديث النصيحة

هذا ولا يفوتنا أن نذكر أن حديث النصيحة قد بلغ مبلغ التواتر، وفي هـذا المقـام يقـو العلامة محمد بن جعفر الكتاني رحمه الله تعالى: أحاديث بذل النصيحة للأئمة وغيرهم مـ المسلمين متواترة[١]، ويقول الشيخ صديق حسن خان رحمـه الله: والأحـاديث الـواردة مطلق النصيحة متواترة وأحق الناس بها الأئمة[٢].

وتفصيل ما قالاه:

ورد حديث (الدين النصيحة) بتمامه من طريق خمسة من الصحابة: هم تميم، وابن عم وابن عباس، وأبي هريرة، وثوبان.

ووردت أحاديث أخرى في النصيحة عن عدة من الصحابة هم:

١- جرير.

٢- حذيفة.

٣- أنس بن مالك.

٤- أبو أمامة.

٥- أبو أيوب.

٦- أبو زيد. وغيرهم.

وبهذا تعلم أن حديث النصيحة متواتر، والله أعلم

---

(١) نظم المتناثر:(ص١٦٠).

(٢) العبرة بما جاء في الغزو والشهادة والهجرة.

كيف كانت النصيحة هي الدين؟

سمى النبي ﷺ النصيحة ديناً، وعبر بها عن الدين، مع أن تكاليف الدين كثيرة، وليست محصورة في النصح وحده، ولذا فما مراد النبي ﷺ من ذلك؟ أجاب أهل العلم عن ذلك بأجوبة منها:

١- قال الحافظ ابن حجر: يحتمل أن يحمل على المبالغة؛ أي معظم الدين النصيحة كما قيل في حديث: (الحج عرفة)[١].

٢- قال أيضاً: «ويحتمل أن يحمل على ظاهره؛ لأن كل عمل لم يرد به عامله الإخلاص فليس من الدين»[٢].

٣- يقول الحافظ ابن رجب: «فهذا يدل على أن النصيحة تشمل خصال الإسلام والإيمان والإحسان التي ذكرت في حديث جبريل عليه السلام، وسمى ذلك كله ديناً»[٣]

كيف تكون النصيحة لله؟

قدمنا فيما سبق أن النصيحة إما وصف بكمال، أو إتمام النقص، والنصيحة لله هي وصف بالكمال، ويندرج تحتها ما يلي:

١- «القيام بأداء واجباته على أكمل وجوهها، وهو مقام الإحسان»[٤].

٢- «الإيمان به، ونفي الشريك عنه، وترك الإلحاد في صفاته، ووصفه بجميع صفات

---

(١) فتح الباري: (١/١٣٨)، وحديث «الحج عرفة» رواه أبو داود، رقم: (١٩٤٩)، والنسائي: (٢/٤٥-٤٦)، والحديث صحيح [المجلة].

(٢) فتح الباري: (١/١٣٨).

(٣) جامع العلوم: (ص١١٠).

(٤) جامع العلوم: (ص١٠٠).

الكمال والجلال، وتنزيهه عن جميع النقائص، وما لا كمال فيه من الأوصاف»[1].

٣- «القيام بطاعته، وتجنب معصيته»[2].

٤- «الحب والبغض فيه، وموالاة من أطاعه، ومعاداة من عصاه، والرغبة في محابه، والبعد عن مساخطه»[3].

٥- «الاعتراف بنعمته، وشكره عليها»[4].

٦- «الدعاء إلى جميع ذلك «أي ما سبق» وتعليمه، والإخلاص فيه لله»[5].

كيف تكون النصحية لكتاب الله؟

والنصيحة لكتاب الله هي أيضاً وصف بالكمال، ويندرج تحتها ما يلي:

١ - «الإيمان بأنه كلام الله تعالى وتنزيله، لا يشبهه شيء من كلام الخلق، ولا يقدر على مثله أحد من الخلق»[6].

٢- تعظيمه[7].

٣- تعلمه، وتعليمه، وإقامة حروفه في التلاوة، وتحريرها في الكتابة، وتفهم معانيه،

---

(١) فتح المبين: (ص١٢٤).

(٢) فتح المبين: (ص١٢٤).

(٣) فتح المبين: (ص١٢٢).

(٤) نفسه.

(٥) نفسه.

(٦) شرح صحيح مسلم: (٢/٣٨).

(٧) نفسه.

وحفظ حدوده، والعمل بما فيه، وذب تحشير المبطلين عنه[1].

كيف تكون النصيحة لرسول الله صلى الله عليه وسلم؟

والنصيحة لرسول الله ﷺ وصف بالكمال؛ لأنه معصوم بعصمة الله عن الوقوع في المعصية، ويمكن أن يندرج تحت نصح المؤمن للنبي ﷺ ما يلي:

١- تصديقه على الرسالة.

٢- الإيمان بجميع ما جاء به، وطاعته في أمره ونهيه.

٣- نصرته حياً وميتاً، ومعاداة من عاداه، وموالاة من والاه.

٤- إعظام حقه وتوقيره، وإحياء طريقته وسنته.

٥- بث دعوته، ونشر شريعته، ونفي التهمة عنها[2].

٦- إ حياء سنته بنشرها وتصحيحها، ونفي التهم عنها، وانتشار علومها، والتفقه في معانيها، والإمساك عن الخوض فيها بغير علم، والدعاء إليها، والتلطف في تعاليمها، وإظهار تعظيمها، وإجلالها، وإجلال أهلها من حيث انتسابهم إليها، والتأدب بآدابه عند قراءتها[3].

محبة أهل بيته وأصحابه، ومجانبة من ابتدع في سنته، أو تعرض لأحد من أصحابه، ونحو ذلك[4].

---

(١) فتح الباري: (١٣٨/١).
(٢) شرح صحيح مسلم: (٣٨/٢).
(٣) فتح المبين: (١٢٤).
(٤) شرح صحيح مسلم: (٣٨/٢).

كيف تكون النصيحة لأئمة المسلمين؟

والنصح واجب لأئمة المسلمين، وهو تكميل نقص؛ لأنه يجري عليهم القصور، فليسو بمعصومين من الزلل والخطأ، ولكن ما المقصود بأئمة المسلمين؟

لعلمائنا في هذه مذهبان هما:

١- أنهم الخلفاء وغيرهم ممن يقوم بأمر المسلمين من أصحاب الولايات، وهذا هو المشهور[١].

٢- أنهم علماء الدين وأئمة الاجتهاد[٢].

أما النصيحة لولاة الأمور من الحكام، فيندرج تحتها ما يلي:

١- معاونتهم على الحق، وطاعتهم فيه.

٢- تنبيههم عند الغفلة.

٣- سد خلتهم عند الهفوة.

٤- جمع الكلمة عليهم.

٥- رد القلوب النافرة إليهم.

٦- دفعهم عن الظلم بالتي هي أحسن[٣].

وأما النصيحة لأهل العلم، فيندرج تحتها الأمور التالية:

---

(١) شرح صحيح مسلم: (٢/٣٨-٣٩).

(٢) نفسه.

(٣) فتح الباري: (١/١٣٨).

١- بث علومهم.

٢- نشر مناقبهم.

٣- تحسين الظن بهم[١].

٤- قبول ما رووه[٢].

٥- اجلالهم، وتوقيرهم، والوفاء بما يجب لهم على الكافة من الحقوق التي لا تخفى على الموفقين[٣]

كيف تكون النصيحة لعامة المسلمين؟

وأما نصح عامة المسلمين وهم من عدا ولاة الأمر[٤]، فهي أيضاً تكميل نقص، **ويمكن أن يندرج تحت هذا الأمور التالية:**

١- إرشادهم لمصالحهم في آخرتهم ودنياهم.

٢- كف الأذى عنهم[٥].

٣- تعليمهم ما ينفعهم.

٤- أن يحب لهم ما يحب لنفسه، ويكره لهم ما يكره لنفسه[٦].

---

(١) الفتح: (١/١٣٨).
(٢) شرح صحيح مسلم: (٢/٣٩).
(٣) فتح المبين: (ص١٢٥).
(٤) شرح صحيح مسلم: (٢/٣٩).
(٥) شرح صحيح مسلم: (٢/٣٩).
(٦) الفتح: (١/١٣٨).

٥- دفع المضار عنهم، وجلب المنافع لهم.

٦- أمرهم بالمعروف، ونهيهم عن المنكر برفق وإخلاص.

٧- الشفقة عليهم، وتوقير كبيرهم، ورحمة صغيرهم.

٨- تخولهم بالموعظة الحسنة.

٩- ترك غشهم وحسدهم.

١٠- الذب عن أموالهم وأعراضهم(١).

هذا ما اردت أن يقف عليه القارئ هنا من شرح حديث النصيحة، علَّ في ذلك ما يدفع كاتبه وقارئه وسامعه إلى تمام النصح لمن طلب الله منا نصحهم، ولكن هذا الذي ذكرناه كلام نظري يعوزه التطبيق والامتثال، ذلك لأن الكلام النظري لا بد له من أمثلة تطبيقية في الواقع حتى يمكن للسامع وغيره أن يمتثلوا، وهذا يحوجنا إلى ذكر نماذج لنصائح السلف، وهذا ما تقف عليه في المبحث القادم بعون الله تعالى.

نماذج من نصائح السلف

ولا يكمل ما نريد إيصاله في موضوع النصيحة إلا بذكر أمثلة حية للنصيحة عند سلفنا الصالح رضوان الله عليهم؛ إذ هم أقرب الى عصر النبوة، وأسلم ديناً، وأصفى نفوساً، وأرق قلوباً، وأعمق أخوة، وأكثر ألفة، وأقل حظاً للشيطان، ولذا فقد اخترت نماذج من نصح هؤلاء، علَّ في ذلك ما يدفع الناصح فينا إلى تحري النصيحة الصحيحة التي يؤجر المرء بها.

---

(١) شرح صحيح مسلم: (٢/٣٩).

النصيحة الأولى

نصيحة جرير بن عبدالله لمن أراد بيع فرسه

أخرج الامام الطبراني في المعجم الكبير بسند صحيح عن إبراهيم بن جرير البجلي عن أبيه قال: غدا أبو عبدالله «أي جرير» إلى الكناسة ليبتاع منها دابة، وغدا مولى له فوقف في ناحية السوق، فجعلت الدواب تمر عليه، فمر به فرس فأعجبه، فقال لمولاه، انطلق فاشتر ذلك الفرس، فانطلق مولاه، فأعطى صاحبه به ثلاثمائة درهم، فأبى صاحبه أن يبيعه، فماتحه[1]، فأبى صاحبه أن يبيعه، فقال: هل لك أن تنطلق الى صاحب لنا ناحية السوق؟

قال: لا أبالي، فانطلقا إليه، فقال له مولاه: إني أعطيت هذا بفرسه ثلاثمائة درهم، فأبى، وذكر أنه خير من ذلك، قال صاحب الفرس: صدق، أصلحك الله، فترى ذلك ثمنا؟ قال: لا، فرسك خير من ذلك تبيعه بخمسمائة حتى بلغ سبعمئة درهم أو ثمانمئة، فلما أن ذهب الرجل أقبل على مولاه فقال له: ويحك انطلقت لتبتاع لي دابة، فأعجبتني دابة رجل، فأرسلتك تشتريها، فجئت برجل من المسلمين تقوده، وهو يقول: ما ترى ما ترى؟ وقد بايعت رسول الله ﷺ على النصح لكل مسلم[2].

فقه نصيحة جرير بن عبدالله

إذا أجلنا النظر في هذه القصة، وجدنا فيها دلالات عظيمة نذكرها كما يلي:

١ – لم يقبل جرير، رضي الله عنه، غبن الرجل بشراء فرسه بأقل مما يستحق، وإن كان

(١) ماتحه: هو من المماسكة: وهي المكالمة في النقص من الثمن. انظر تهذيب الأسمار: (٣/١٤١).

(٢) المعجم الكبير برقم: (٢٣٩٥)، والمحلي: (٨/٤٤٠-٤٤١).

في ذلك زيادة ثمن يدفعها هو، وهذا جانب من جوانب النصح لعامة المسلمين بعدم الغبن والغش لهم في البيع والشراء.

٢- من زيادة حرصه على غيره أنه أنّب مولاه على فعله، ولم يغض طرفه عن الموضوع، ولم يترك القضية لمولاه ليظهر هو بمظهر البريء أمام الناس.

٣- يقول ابن حزم: «والخديعة في البيع جملة بلا شك يدري الناس كلهم أن من أخذ من آخر فيما يبيع منه أكثر مما يساوي بغير علم المشتري ولارضاه، ومن أعطاه آخر فيما يشتري منه أقل مما يساوي بغير علم البائع ولا رضاه، ومن أعطاه آخر فيما يشتري منه أقل مما يساوي بغير علم البائع ولا رضاه، فقد غشه، ولم ينصحه، ومن غش ولم ينصح فقد أتى حراماً»[1].

٤- وقال ابن حزم أيضاً: «فهؤلاء عمر وابنه، والعباس، وعبدالله بن جعفر، وأ بي، وجرير، ولا مخالف لهم من الصحابة رضي الله عنهم يرون رد البيع من الخديعة في نقصان الثمن عن قيمة المبيع»[2].

النصيحة الثانية

نصيحة الحسن والحسين

رأى الحسن والحسين ابنا علي بن أبي طالب، رضي الله عنهما، رجلاً كبيرا في السن يتوضأ، وكان لا يحسن الوضوء فأرادا تعليمه، فذهبا إليه، فادعيا أنهما قد اختلفا أيهما حسن الوضوء، أكثر من أخيه؟ وأرادا منه أن يحكم بينهما، فأمر أحدهما بالوضوء، ثم أمر

---

(١) المحلي: (٤٤/٨).
(٢) المحلي: (٤٤١/٨).

الآخر بالوضوء، ثم قال لهما: أنا الذي لا اعرف الوضوء، فعلماني إياه[1].

فقه نصيحة الحسن والحسين

في هذه القصة دلالات طيبة في موضوع النصيحة نذكرها كما يلي:

١- تحلي الحسن والحسين بلطف الأسلوب في النصيحة حتى إنهما اتخذا وسيلة يمكنهما بها إيصال النصيحة لهذا الرجل، وهي التحاكم إليه في موضوع الوضوء، ولو أتياه بطريقة أخرى لربما تأخرت استجابته لنصيحتهما.

٢-لم يشعرا الرجل بشخصهما أو نسبهما، ليكون ذلك مدخلاً لقبول النصح منهما.

٣-لم يؤنبا الرجل على عدم معرفته بالوضوء رغم كبر سنه، ولم يجعلا من ذلك طريقاً للازدراء بالرجل رغم كبر سنه.

٤-لم يعيبا الرجل بالجهل، بل اتجها إلى طريقة يمكنهما بها تعليمه الوضوء دون إحراج له، ودون إساءة له.

٥-كانا دقيقين مع الرجل في حوارهما معه، ونصحهما له، مما جعله يقبل نصحهما، ويدرك أنه أحوج الى تعلم الوضوء بدل أن يقوم بوظيفة الحكم بين هذين الشابين.

٦- طبقا سنة جدهما ﷺ في احترام الكبير، والعطف على الصغير.

---

(١) لم يسند المؤلف رعاه الله هذه الحكاية، ولم نعثر لها على سند، ومعناها صحيح والله أعلم. [المجلة].

النصيحة الثالثة

نصحية الإمام مالك بن أنس لأحد خلفاء عصره

تكلمنا سابقاً عن النصيحة ومجالاتها، ولقد كان من تلكم المجالات الحكام، ولقد حرص علماؤنا على نصح الحكام بما يسدد مسيرة الدولة، ويبرئ ذمة العلماء، وهذا كان منهج لعلمائنا رحمهم الله تعالى، وقد كان من أولئك الناصحين إمام دار الهجرة الإمام مالك بن أنس رحمه الله، فقد كتب إلى الخليفة هارون الرشيد رسالة ينصحه فيها، ويقول:

أما بعد، فإني كتبت إليك بكتاب لم آلك فيه رشدا، ولم أدخر فيه نصحاً، تحميداً لله وأدباً عن رسول الله ﷺ، فتدبره بعقلك، وردد فيه بصرك، وأرعه سمعك، ثم اعقله قلبك. وأحضر فهمك، ولا تغيبن عنه ذهنك، فإن فيه الفضل في الدنيا وحسن ثواب الله في الآخرة.

اذكر نفسك في غمرات الموت وكربه ما هو نازل بك منه، وما أنت موقوف عليه بعد الموت من العرض على الله سبحانه، ثم الحساب، ثم الخلود بعد الحساب.

وأعد لله -عز وجل- ما يسهل عليك أهوال تلك المشاهد، وكربها، فإنك لو رأيت سخط الله تعالى، وما صار إليه الناس من ألوان العذاب، وشدة نقمته عليهم، وسمعت زفيرهم في النار، وشهيقهم مع كلوح[1] وجوههم، وطول غمهم، وتقلبهم في دركاتها[2] على وجوههم، لايسمعون، ولايبصرون، ويدعون بالويل والثبور، وأعظم من حسرة إعراض الله عنهم، وانقطاع رجائهم، وإجابته إياهم بعد طول الغم بقوله: ﴿اخسئوا فيها ولا تكلمون﴾ [المؤمنون:١٠٨].

---

(١) الكلوح: تكشر في عبوس. انظر مختار الصحاح: (ص٥٧٦).

(٢) دركاتها: أي منازل أهلها. انظر مختار الصحاح: (ص٢٠٣). الدركات عكس الدرجات، فالدركات هو التدرج إلى الأسفل، والدرجات هو التدرج إلى الأعلى لذا فالجنة درجات والنار دركات. [المجلة].

ثم قال له: لاتأمن على شيء من أمرك من لا يخاف الله، فإنه بلغني عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قال: «شاور في أمرك الذين يخافون الله».

احذر بطانة السوء وأهل الردى على نفسك، فإنه بلغني عن النبي ﷺ انه قال: (ما من نبي ولا خليفة إلا وله بطانتان، بطانة تأمره بالمعروف، وتنهاه عن المنكر، وبطانة لا تألوه خبالا)[1].

ثم قال: لا تجر ثيابك، فإن الله لا يحب ذلك، فقد بلغني عن النبي ﷺ أنه قال: (من جر ثيابه خيلاء لم ينظر الله إليه يوم القيامة)[2].

اطع الله في معصية الناس، ولا تطع الناس في معصية الله، فقد بلغني عن النبي ﷺ انه قال: «لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق»[3].

فقه نصيحة الإمام مالك

تلكم هي فقرات من نصيحة الإمام مالك لهارون الرشيد، والناظرفيها يجد أن ثمة دلالات يمكن أن تلمح في هذه النصيحة، ومن هذه الدلالات نذكر ما يلي:

١- كانت النصيحة المسداة هنا شاملة تحوي كل معاني الإيمان، وفي هذا يقول الاستاذ عبدالعزيز البدري رحمه الله: «احتوت هذه الرسالة على كل معاني الإيمان، والدعوة إلى التمسك بأحكام الإسلام وحدوده وآدابه»[4].

٢- هذه النصيحة خالصةلله صادقة خرجت من قلب صادق، يقول البدري في وصفها:

---

(١) رواه البخاري: برقم: (٧١٩٨)، والترمذي برقم: ٢٣٦٩. والخبال: الفساد، انظر مختار الصحاح: (ص١٦٨).

(٢) رواه البخاري برقم: (٥٧٨٤)، وأبو داوود برقم: (٤٠٨٤٥).

(٣) رواه أحمد في مسنده: (٤٠٩/١)، والحديث صحيح في [المجلة].

(٤) الإسلام بين العلماء والحكام لعبدالعزيز البدري رحمه الله: (ص١٠٦-١٠٧).

«وهي موعظة حقاً تجل منها القلوب، ونصيحة صادقة تذرف منها العيون، وتقرب المسلم من ربه لتنال رضاه، إن انتصح بها، واستمع إليها، وجعلها موضع التطبيق والتنفيذ»[1].

٣- قوبلت هذه النصيحة بالقبول من المنصوح وهو هاوون الرشيد، وهذه ثمرة النصح المرجوة منه.

٤- نصيحة الحاكم أعمق أثراً، وأشد خطراً من نصيحة أفراد الرعية، وبخاصة إذا صدرت من عالم ورع تقي، وفي هذا يقول الاستاذ البدري: «وكانت النصيحة وانتصاحهم للحاكم في مقدمة المنتصحين؛ لأن نصيحتهم فيها الخير كل الخير لهم، ولمن يتولون أمرهم[2].

٥- جوانب النصح للحاكم عند مالك متعددة، وفي هذا يقول العلامة محمد أبو زهرة رحمه الله: «ولم يقتصر في نصائحه على المخاطبة، بل ينصحهم أيضاً بالمكاتبة برسائل يرسلها إليهم»[3].

النصيحة الرابعة

رسالتان متبادلتان بين الإمامين مالك والليث بن سعد

كان مالك عالم أهل الحجاز، وكان الليث بن سعد عالم أهل مصر، وقد كان في درجة مالك في العلم، حتى قال فيه الشافعي: «الليث أفقه من مالك غير أن أصحابه لم يقوموا به»[4].

---

(١) نفسه: (ص١٠٧).

(٢) نفسه: (ص١٠٤).

(٣) مالك: (ص٦٦).

(٤) تهذيب التهذيب: (٨/٤١٥).

ولقد تبادل الامام مالك النصح مع الليث، فكتب مالك إلى الليث رسالة ينصحه فيها، ورد عليه الليث برسالة كذلك، ولذا فمن الأمانة العلمية أن نثبت نص رسالة مالك أولاً على طولها، ثم رسالة الليث كذلك، ثم نعقب بعد ذلك بذكر دلالات هاتين النصيحتين المكتوبتين.

نص رسالة الامام مالك

بسم الله الرحمن الرحيم

من مالك بن أنس إلى الليث بن سعد، سلام عليك، فإني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو، أما بعد، عصمنا الله وإياك بطاعته في السر والعلانية، وعافانا وإياك من كل مكروه.

كتبت إليك وأنا ومن قبلي من الولدان والأهل على ما تحب، والله محمود، أتانا كتابك، تذكر من حالك، ونعمة الله عليك الذي أنا به مسرور، أسأل الله أن يتم علي وعليك صالح ما أنعم علينا وعليك، وأن يجعلنا له شاكرين.

وفهمت ما ذكرت في كتب بعثت بها لأعرضها لك، وأبعث بها إليك، وقد فعلت ذلك، وغيرت منها ما غيرت حتى صح أمرها على ما يجب، وختمت على كل قنداق[1]، (أو قال يحيى: غنداق) منها بخاتمي ونقشته حسبي الله ونعم الوكيل، وكان حبيباً إلي حفظك، وقضاء حاجتك، وأنت لذلك أهل وجيرة، وصرت لك نفسي في ساعة لم أكن أعرض فيها لأن أنجح ذلك، فتأتيك مع الذي جاء في بها، حتى دفعتها إليه، وبلغت من ذلك الذي رأيت أنه يلزمني لك في حقك وحرمتك، وقد نشطني ما استطلعت مما قبلي من ذلك في ابتدائك بالنصيحة لك، ورجوت أن يكون لها عندك موضع، ولم يكن منعني من

---

(١) القنداق: صحيفة الحساب. انظر تاج العروس: (٧/٥١).

ذلك قبل اليوم إلا أن يكون رأيي لم يزل فيك جميلاً، إلا أنك لم تذاكرني شيئاً من الأمر، ولا تكتب فيه لي.

واعلم، رحمك الله، أنه بلغني أنك تفتي بأشياء مخالفة لما عليه جماعة الناس عندنا، وبب الذي نحن فيه، وأنت في إمامتك وفضلك ومنزلتك من أهل بلدك، وحاجة من قبلك إل واعتمادهم على ما جاء منك حقيق بأن تخاف على نفسك، وتتبع ما ترجو النجاة باتبا فإن الله -عز وجل- يقول في كتابه: ﴿والسابقون الأولون من المهاجرين والأنص والذين اتبعوهم بإحسان رضي الله عنهم، ورضوا عنه، وأعد لهم جنات تجري ت الأنهار خالدين فيها أبداً ذلك الفوز العظيم﴾ [التوبة:١٠٠-]. وقال تعالى: ﴿ال يستمعون القول فيتبعون أحسنه أولئك الذين هداهم الله، وأولئك هم أولو الألبا [الزمر:١٨].

فإنما الناس تبع لأهل المدينة، إليها كانت الهجرة، وبها نزل القرآن، وأحل الح وحرم الحرام؛ إذ رسول الله ﷺ بين أظهرهم يحضرون الوحي والتنزيل، ويأمرهم فيتبعو ويسن لهم فيتبعونه، حتى توفاه الله، واختار له ما عنده ﷺ.

ثم قام من بعده أتبع الناس له من أمته، ممن ولي الأمر من بعده، فما نزل بهم مما عل أنفذوه، وما لم يكن عندهم علم فيه سألوا عنه، ثم أخذوا بأقوى ما وجدوا في ذلك اجتهادهم، وحداثة عهدهم، فإن خالفهم مخالف، أو قال امرؤ: غيره أقوى منه وأولى، قوله، وعمل بغيره».

ثم كان التابعون من بعدهم يسلكون تلك السبل، ويتبعون تلك السنن، فإذا كان ا بالمدينة ظاهرا معمولاً به، لم أر خلافه للذي في أيديهم من تلك الوراثة، التي لا يجوز ا انتحالها ولا ادعاؤها، ولو ذهب أهل الأمصار يقولون: هذا العمل ببلدنا، وهذا ال مضى عليه من مضى منا، لم يكونوا من ذلك على ثقة، ولم يجز لهم من ذلك مثل الذي لهم، فانظر رحمك الله فيما كتبت إليك فيه لنفسك، واعلم أني لأرجو ألا يكون دع

الى ما كتبت إليك إلا النصيحة لله، والنظر إليك، والضن بك، فأنزل كتابي منك منزلـه، فإنك إن تفعل تعلم أني لم آلك نصحاً، وفقنا الله وإياك بطاعته، وطاعة رسول الله ﷺ في كل أمر، وعلى كل حال، والسلام عليك ورحمة الله[1].

نص رسالة الليث بن سعد

بسم الله الرحمن الرحيم

«من الليث بن سعد الى مالك بن أنس: سلام عليك، فإني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو، أما بعد،

عافانا الله وإياك، وأحسن العاقبة في الدنيا والآخرة، وقد بلغني كتابك، تذكر فيه من صلاح حالك الذي يسرني، فأدام الله ذلك لكم، وأتمه بالعون على الشكر له وبه، والزيادة في أحسنه، وذكرت نظرك في الكتب التي بعثت إليك بها، وإقامتك إياها، وختمك عليها بخاتمك.

وقد أتتنا فآجرك الله فيما قدمت منها، فإنها كتب انتهت إلي عنك، فأحببت أن أبلغ تحقيقها بنظرك فيها.

وذكرت أنه قد نشطك ما كتبت إليك فيه من تقويم ما أتاني عنك إلى ابتدائي النصيحة، وأنك ترجو أن يكون لها عندي موضع، (أو قال يحيى: موقع)، وأنه لم يمنعك ن ذلك فيما خلا إلا أن يكون رأيك فينا جميلاً، إلا أني لم أذاكرك مثل هذا، وأنه بلغك ي أفتي بأشياء مخالفة لما عليه جماعة الناس عندكم، وأنه يحق علي الخوف على نفسي، عتماد من قبلي على ما أفتيتهم به، وأن الناس تبع لأهل المدينة، إليها كانت الهجرة، وبها

---

(1) تاريخ ابن معين: (٤/٤٩٨،٥٠١)، وترتيب المدارك: (١/٦٤)، والمعرفة والتاريخ للبسوي.

نزل القرآن.

وقد أصبت بالذي كتبت به من ذلك، إن شاء الله، ووقع مني بالموقع الذي تحب، وما أجد أحدا ينسب إليه العلم أكره لشواذ الفتيا، ولا أشد تفضيلاً، (أو قال: تفصيلاً) لعلماء أهل المدينة الذين مضوا، ولا أخذا بفتياهم فيما اتفقوا عليه مني والحمدلله.

وأما ما ذكرت من مقام رسول الله ﷺ، ونزول القرآن عليه بين ظهراني أصحابه، وما علمهم الله منه، وأن الناس صاروا تبعاً لهم، فكما ذكرت، وأما ما ذكرت من قول الله تبارك وتعالى: ﴿والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار، والذين اتبعوهم بإحسان رضي الله عنهم، ورضوا عنه، وأعد لهم جنات تجري تحتها الأنهار خالدين فيها أبدا ذلك الفوز العظيم﴾ [التوبة: ١٠٠].

فإن كثيرا من أولئك السابقين الأولين خرجوا إلى الجهاد في سبيل الله ابتغاء مرضاة الله، فجندوا الأجناد، واجتمع إليهم الناس، وأظهروا بين ظهرانيهم كتاب الله، وسنة رسوله، ولم يكتموهم شيئا علموه، فكان في كل جند منهم طائفة يعملون بكتاب الله، وسنة نبيه ﷺ، ولم يكتموهم شيئا علموه، ويجتهدون رأيهم فيما لم يفسره لهم القرآن والسنة، ويقومهم عليه أبو بكر وعمر وعثمان، الذين اختارهم المسلمون لأنفسهم، ولم يكن أولئك الثلاثة مضيعين لأجنادهم، ولا غافلين عنهم، بل كانوا يكتبون في الأمر اليسير لإقامة الدين، والحذر من الخلاف لكتاب الله، وسنة نبيه ﷺ، فلم يتركوا أمراً فسره القرآن، أو عمل به النبي ﷺ، او ائتمروا فيه، إلا علموهموه، فإذا جاء أمر عمل به أصحاب رسول الله ﷺ بمصر والشام والعراق على عهد أبي بكر وعمر وعثمان، لم يزالوا عليه حتى قبضوا لم يأمروهم بغيره.

فلا نراه يجوز لأجناد المسلمين أن يحدثوا اليوم أمراً لم يعمل به سلفهم من أصحاب رسول الله ﷺ والتابعين لهم، حين ذهب أكثر العلماء، وبقي منهم من لا يشبه من مضى، مع أن أصحاب رسول الله ﷺ قد اختلفوا بعده في الفتيا في أشياء كثيرة، لولا أني عرفت

أن قد علمتها، كتبت إليك بها.

ثم اختلف التابعون في أشياء بعد أصحاب رسول الله ﷺ سعيد بن المسيب ونظراؤه، أشد الاختلاف.

ثم اختلف الذين كانوا بعدهم، حضرناهم بالمدينة، وغيرها، ورأيتهم يومئذ في الفتيا: ابن شهاب، وربيعة بن أبي عبدالرحمن -رحمة الله عليهما- فكان من خلاف ربيعة -تجاوز الله عنه- لبعض ما مضى، وحضرت وسمعت قولك فيه، وقول ذوي السن من أهل المدينة: يحيى بن سعيد، وعبيدالله بن عمر، وكثير بن فرقد، وغير كثير، وممن هو أسن منه، حتى اضطرك ما كرهت من ذلك إلى فراق مجلسه.

وذاكرتك أنت وعبدالعزيز بن عبدالله بعض ما نعيب على ربيعة من ذلك، فكنتما موافقين فيما أنكرت، تكرهان منه ما أكره، ومع ذلك بحمد الله عند ربيعة خير كثير، وعقل أصيل، ولسان بليغ، وفضل مستبين، وطريقة حسنة في الإسلام، ومودة صادقة لإخوانه عامة، ولنا خاصة، رحمه الله، وغفر له، وجزاه بأحسن عمله[1].

وكان يكون من ابن شهاب اختلاف كثير إذا لقيناه، وإذا كاتبه بعضنا، فربما كتب في الشيء الواحد -على فضل رأيه وعلمه- بثلاثة أنواع، ينقض بعضها بعضاً، ولا يشعر بالذي مضى من رأيه في ذلك الأمر، فهو الذي يدعوني إلى ترك ما أنكرت تركي إياه.

وقد عرفت أن مما عبت إنكاري إياه أن يجمع أحد من أجناد المسلمين بين الصلاتين ليلة المطر، ومطر الشام أكثر من مطر المدينة، بما لا يعلمه إلا الله عز وجل، ولم يجمع إمام منهم قط في ليلة المطر، وفيهم: خالد بن الوليد، وأبو عبيدة بن الجراح، ويزيد بن أبي سفيان، وعمرو بن العاص، ومعاذ بن جبل، وقد بلغنا أن رسول الله ﷺ قال: (أعلمكم بالحلال

---

(١) انظر الى خلاف الأكابر وتعلم منه، فلم يمنع خلاف الليث لربيعة من ذكره بالخير بما يحسن، وحفظ عرضه، والثناء عليه، ماذا يقال لأولئك الذين يقعون في عرض غيرهم، إذا خالفوه.

والحرام معاذ)[1]. ويقال: يأتي معاذ يوم القيامة بين يدي العلماء برتوة[2]، وشرحبيل بن حسنة، وأبو الدرداء، وبلال بن رباح.

وقد كان أبو ذر بمصر، والزبير بن عوام، وسعد بن أبـي وقـاص، وبحمص سبعون من أهل بدر، وبأجناد المسلمين كلها، وبالعراق ابن مسعود، وحذيفة، وعمران بن حصين، ونزلها علي بن أبي طالب سنين، بمن كان معه من أصحاب رسول الله ﷺ، فلم يجمعوا بين المغرب و العشاء قط[3].

ومن ذلك القضاء بشهادة الشاهد ويمين صاحب الحق، وقد عرفت أنه لم يزل يقضى به بالمدينة، ولم يقض به أصحاب رسول الله ﷺ بالشام ولا مصر ولا العراق، ولم يكتب به إليهم الخلفاء المهديون الراشدون: أبو بكر، وعمر، وعثمان.

ثم ولي عمر بن عبدالعزيز، وكان كما قد علمت في إحياء السنن، وقطع البدع، والجد في إقامة الدين، والإصابة في الرأي، والعلم بما مضى من أمر الناس، فكتب إليه رزيق بن الحكيم: إنك تقضي بذلك بالمدينة بشهادة الشاهد، ويمين صاحب الحق، فكتب إليه عمر: إنا قد كنا نقضي بذلك بالمدينة، فوجدنا أهل الشام على غير ذلك، فلا نقضي إلا بشهادة رجلين عدلين، أو رجل وامرأتين[4]، ولم يجمع بين المغرب والعشاء قط في المطر، والسماء

---

(١) رواه الترمذي برقم: (٣٧٩٠)، وقال حسن غريب.

(٢) الرتوة: مسافة بعيدة قدر مد البصر، انظر أساس البلاغة: (ص٢٢٠). أخرجه ابن أبي شيبة في تاريخه، وابن عساكر، كما في الإصابة: (٤٣٧/٣)، والأثر في فضل معاذ ثابت صحيح [المجلة].

(٣) يرى مالك وأهل المدينة الجمع بين المغرب والعشاء بعذر المطر، وقد وافقهم على ذلك سواهم، فهو قول الفقهاء السبعة، والأوزاعي، وأحمد، ومنع الليث من الجمع بين الصلاتين لأجل المطر، وهو مذهب أصحاب الراي، انظر في هذه المسألة المغني: (١١٦/٢)، والزرقاني على الموطأ: (١/١٢٦٣١). وبداية المجتهد.

(٤) اختلف العلماء في القضاء بالشاهد واليمين، فيرى الجمهور جوازه، ويرى أهل الرأي ومعهم الليث منعه، ولهم تفصيلات وأدلة تنظر في مظانها. وانظر ما يلي: المغني: (١١/١٢). أعلام الموقعين: (١٨٥/٣). سنن البيهقي: (١٧٥/١٠).

تسكب عليه في منزله الذي كان يكون فيه بخناصرة[1] سكباً.

ومن ذلك أن أهل المدينة يقضون في صدقات النساء أنها متى شاءت أن تكلم في مؤخر صداقها تكلمت، يدفع ذلك إليها، وقد وافق أهل العراق أهل المدينة على ذلك. وإن أهل الشام وأهل مصر لم يقض أحد من أصحاب رسول الله ﷺ -ولا من بعدهم- لامرأة بصداقها المؤخر، إلا أن يفرق بينهما الموت أو الطلاق، فتقوم على حقها.

ومن ذلك قولكم في الإيلاء: إ نه لا يكون عليه طلاق حتى يوقف، وإن مرت الأربعة أشهر، وقد حدثني نافع عن عبدالله، وعبدالله الذي كان يروى عنه ذكر التوقف بعد الأربعة أشهر، أنه كان يقول في الإيلاء الذي ذكر الله في كتابه: لا يحل للمولى، إذا بلغ الأجل، إلا أن يفي كما أمره الله، أو يعزم الطلاق، وأنتم تقولون: وإن لبث أشهراً بعد الأربعة أشهر التي سمى الله، ولم يوقف، لم يكن عليه طلاق.

وقد بلغنا عن عثمان بن عفان، وزيد بن ثابت، وقبيصة بن ذؤيب، وأبي سلمة بن عبدالرحمن أنهم قالوا: في الإيلاء إذا مضت الأربعة الأشهر فهي تطليقه بائنة[2]، وقال سعيد بن المسيب، وأبو بكر بن عبدالرحمن بن الحارث بن هشام، وابن هشام، وابن شهاب: إذا مضت الأربعة فهي تطليقة، وله الرجعة في العدة[3].

ومن ذلك أن زيد بن ثابت كان يقول: إذا ملك الرجل امرأته، فاختارت زوجها، فهي تطليقة، وإن طلقت نفسها ثلاثاً فهي تطليقة[4]، وقضى به عبدالملك بن مروان، وكان ربيعة بن أبي عبدالرحمن يقول: وقد كاد الناس يجتمعون على أنها إن اختارت زوجها، لم

---

(١) خناصرة: بليدة بالشام من أعمال حلب. انظر معجم البلدان: (٣/٤٦٧).

(٢) المحلى: (١٠/٤٥،٤٦)، والمغني مع الشرح: (٨/٤٦٧).

(٣) المحلى: (١٠/٤٦)، المغني: (٨/٥٢٨)، وبداية المجتهد: (٨٢).

(٤) انظر شرح الزرقاني على الموطأ: (٣/٣٦).

يكن فيه طلاق، وإن اختارت نفسها واحدة أو اثنتين، كانت له عليها رجعة، وإن طلقت نفسها ثلاثاً بانت منه، ولم تحل له حتى تنكح زوجاً غيره، فيدخل بها، ثم يموت عنها، أو يطلقها، إلا أن يردعها في مجلسه فيقول: إنما ملكك واحدة، فيستحلف، وخلى بينه وبين امرأته[1].

ومن ذلك أن عبدالله بن مسعود كان يقول: أيما رجل تزوج أمة ، ثم اشتراها زوجها، فاشتراؤه إياها ثلاث تطليقات، وكان ربيعة يقول ذلك، وإن تزوجت الحرة عبدا ، فاشترته فمثل ذلك[2].

وقد بلغتنا عنكم أشياء من الفتيا، فاستنكرناها، وقد كتبت إليك في بعضها، فلم تجبني في كتابي، فتخوفت أن تكون استثقلت ذلك، فتركت الكتاب إليك في شيء مما أنكرت، وفيما أردت فيه علم رأيك، وذلك أنه بلغني أنك أمرت زفر بن عاصم الهلالي[3]، حين أراد أن يستسقي أن يقدم الصلاة قبل الخطبة، فأعظمت ذلك، لأن الخطبة في الاستسقاء قبل الصلاة، كهيئة يوم الجمعة، إلا أن الإمام إذا دنا فراغه من الخطبة حول وجهه إلى القبلة، فدعا، وحول رداءه ثم نزل فصلى.

وقد استسقى بين ظهرانيكم عمر بن عبدالعزيز، وأبو بكر بن محمد بن عمرو بن حزم، وغيرهما[4]، فكلهم يقدم الخطبة والدعاء قبل الصلاة، فاستهتر الناس الذي صنع زفر بن عاصم من ذلك واستنكروه.

---

(١) انظر المصادر السابقة.

(٢) المغني: (٤٠٢/٧).

(٣) ولاه المهدي على المدينة سنة ١٠٦هـ، روى عنه مسالك، وروايته عن عمر بن عبدالعزيز منقطعة. انظر التاريخ الكبير: (٤٣٠/٣)، والجرح: (٦٠٧/٣).

(٤) الفتح: (٤٩٩/٢)، والمغني: (٢٨٧/٢).

ومن ذلك أنه ذكر لي أنك تقول: إن الخليطين في المال لا يجب عليهما الزكاة، حتى يكون لكل واحد منهما ما يجب فيه الصدقة، وفي كتاب عمر بن الخطاب أنه يجب عليهما الصدقة، ويترادان بينهما بالسوية[1]، وقد كان ذلك الذي يعمل به في ولاية عمر بن عبد العزيز قبلكم، والذي حدثنا به يحيى بن سعيد، ولم يكن بدون أفاضل العلماء في زمانه، فرحمه الله، وغفر له، وجعل الجنة مصيره.

ومن ذلك أنه بلغني أنك تقول: إذا أفلس الرجل، وقد باعه رجل سلعة، فتقاضى طائفة من ثمنها شيئاً، أو أنفق المشتري طائفة منها، أنه يأخذ ما وجد من متاعه، وكان الناس على أن البائع إذا تقاضى من ثمنها شيئاً أو أنفق المشتري منها شيئاً، فليست بعينها[2].

ومن ذلك يذكر أن رسول الله ﷺ لم يعط الزبير إلا لفرس واحد، والناس كلهم يحدثون أنه أعطاه أربعة أسهم لفرسين، ومنعه سهم الفرس الثالث، والأمة كلهم على هذا الحديث: أهل الشام، وأهل مصر، وأهل أفريقية، وأهل العراق، ولا يختلف فيه اثنان، فلم يكن ينبغي، وإن كنت سمعته من رجل مرضي، أن يخالف الأمة أجمعين[3].

وقد تركت أشياء كثيرة من أشباه هذه، وأنا أحب توفيق الله إياك، وطول بقائك، لما أرجو للناس في ذلك من المنفعة، وما أخاف أن يكون من المضيعة، إذا ذهب مثلك، مع استئناسي بمكانك، وإن نأت الدار، فهذه منزلتك عندي، ورأيي فيك، فاستيقنه، والسلام»[4].

---

(١) بداية المجتهد: (١/٢٥٨).

(٢) المغني: (٤/٤٥٦).

(٣) المغني: (١٠/٤٤٣)، والمحلى: ٧/٣٣١.

(٤) تاريخ ابن معين: (٤/٤٨٧-٤٩٧)، وأعلام الموقعين: (٣/٨٣-٨٨).

فقه الرسالتين المتبادلتين بين الإمامين

هذه رسالة الإ مام الليث الى الإمام مالك بن أنس، وقد سقنا قبلها رسالة الإمـام مـالك إلى الإمام الليث، وبعد هذا نعرض لبعض دلالات هاتين الرسالتين فنقول:

١- تجلت في الرسالتين مظاهر الأخوة الصادقة والمحبة العظيمـة المتبادلـة، الـتي تبـدو في السؤال عن حال الأهل والولد، والاستعداد لبـذل المعونـة، وتمـني دوام السـلامة، والثناء الطيب المتبادل بما يشعر القـارئ بأنهـا أقـرب الى رسـائل الأخـوة المتحـابين المتصـافين من كونها نصيحة علمية متبادلة بين إمامين عظيمين، لهما المكانة الكبيرة عند أهل بلديهما.

٢- في الرسالتين نفحة صادقة من فقه النصح عند السلف الصالح رضـوان الله عليهـم: فالمحبة للطرف الآخر من كـل منهمـا أسـاس، والتواضـع، والثنـاء الطيـب، وإنـزال النـاس منازلهم، طريق ميسر موصل إلى القلوب.

وترك الشدة والغلظة والمخاصمة والمجادلة معالم أخوة، وحسن الظن. وعـدم اتهـام النوايـا، والتمـاس الأعـذار الحسـنة، وعـدم التشـهير، ضوابـط عظيمـة تضبـط النصيحـة، وتوقعها الموقع الصحيح. كل هذه الأمور وسواها معالم بارزة في النصـح، تسـاق في هـاتين الرسالتين لتكونا نموذجا يحتذى في نصح المتناصحين، وأدب العلماء المختلفـين في المسـائل العلمية.

٣- يصف العلامة محمد أبو زهرة هاتين الرسالتين وصفـاً جامعـاً، فيقـول: «والرسـالتان فوق ذلك أدب جم، وبحث قيم، ومودة صادقة، ومخالفـة في طلـب الحـق هاديـة، لا لجـاج فيها ولا خصام، بل محبة وولاء ووئام»[١].

(١) مالك: (ص١١١).

٤- الرسالتان تحملان في ثناياهما توجيهاً نبيلاً لأولئك الناصحين في زماننا، الذي يعوزهم فقه السلف في النصح للآخرين، ولأولئك الصغار الذين يقحمون أنفسهم في خلافات أكبر منهم؛ ليعلم أولئك كيف يكون خلاف الأكابر في العلم، ولأولئك المدعين للأخوة والصفاء كيف يكون الود والصفاء بين الرجال على تباعد الأقطار، ونأي الأمصار «ولأولئك المتعلمين كيف يكون التعلم والتعليم والمعرفة على أصولها».

النصيحة السادسة

نصيحة الامام البيهقي للجويني

كان الحافظ البيهقي معاصراً لاحد أئمة مذهب الشافعية الكبار، وهو والد إمام الحرمين الجويني، وقد بدأ هذا بتصنيف كتاب في الفقه، سماه المحيط، وكان هذا الرجل عالماً بالفقه والأصول وعلم الكلام، ولم يكن عالماً بالحديث، فوقع في الأجزاء التي ألفها من هذا الكتاب أحاديث ضعيفة، ووصل خبر هذا الكتاب إلى الإمام البيهقي، واطلع على ما فيه، فبعث الى امام الحرمين ينصحه برسالة قال له فيها:

أما بعد، سلام الله ورحمته على الشيخ الإمام، وإني أحمد إليه الله الذي لا إله إلا هو وحده لا شريك له، وأصلي على رسوله صلى الله عليه وسلم، عصمنا الله بطاعته، وأكرمنا بالاعتصام بسنة خيرته من بريته ﷺ، وأعاننا على الاقتداء بالسلف الصالحين من أمته، وعافانا في ديننا ودنيانا، وكفانا كل هول دون الجنة بفضله ورحمته، إنه واسع المغفرة والرحمة، وبه التوفيق والعصمة.

فقلبي للشيخ أدام الله عصمته، وأيد أيامه مقتد، ولساني له بالخير ذاكر، ولله تعالى على حسن توفيقه إياه شاكر، والله جل ثناؤه يزيده توفيقاً وتأييداً وتسديداً.

وقد علم الشيخ، أدام الله توفيقه، اشتغالي بالحديث، واجتهادي في طلبه، ومعظم

مقصودي منه في الابتداء بالتمييز بين ما يصح الاحتجاج به من الأخبار، وبين ما لا يصح، حتى رأيت المحدثين من أصحابنا[1] يرسلونها في المسائل على ما يحضرهم من ألفاظها من غير تمييز منهم بين صحيحها وسقيمها.

ثم إذا احتج عليهم بعض مخالفيهم بحديث شق عليهم تأويله، أخذوا في تعليله بما وجد في كتب المتقدمين من أصحابنا تقليداً، ولو عرفوه معرفتهم، لميزوا بين صحيح ما يوافق أحوالهم من سقيمه، ولأمسكوا عن كثير مما يحتجون به، وإن كان يطابق آراءهم، ولاقتدوا في ترك الاحتجاج برواية الضعفاء، والمجهولين بإمامهم[2].

فشرطه فيمن يقبل خبره عند من يعتني بمعرفته مشهور، وهو بشرحه في كتاب الرسالة مسطور[3]، وما ورد من الأخبار بضعف روايته، أو انقطاع سنده كثير، والعلم به على من جاهد فيه سهل يسير.

وقد احتج في ترك الاحتجاج بالمجهولين بما أنبأنا أبو عبدالله محمد بن عبدالله الحافظ قال: حدثنا أبو العباس محمد بن يعقوب، قال: حدثنا الربيع بن سليمان، قال: حدثنا الشافعي قال: حدثنا سفيان عن محمد بن عمرو عن أبي سلمة عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: (حدثوا عن بني إسرائيل ولا حرج، وحدثوا عني، ولا تكذبوا علي)[4].

قال الشافعي: «أحاط العلم أن النبي ﷺ لا يأمر أحداً بحال أبداً[5] أن يكذب على بني إسرائيل، ولا على غيرهم، فإذا أباح الحديث عن بني اسرائيل، فليس أن يقبلوا الكذب[6]

---

(١) يعني الشافعية؛ لأن البيهقي، والجويني على مذهب الشافعي رحمه الله.

(٢) يعني الإمام الشافعي رحمه الله تعالى.

(٣) الرسالة الشافعية: (ص٣٧٠-٣٧٢).

(٤) رواه أحمد في مسنده: (٢/٤٧٤-٥٠٢)، والحديث صحيح [المجلة].

(٥) ليست في الطبقات، وقد استدركناها من الرسالة للشافعي.

(٦) في الطبقات: الحديث الكذي، وما أثبتناه في الرسالة.

على بني اسرائيل[1]؛ لأنه يروى عنه ﷺ أنه قال: (من حدث بحديث، وهو يراه كذباً، فهو أحد الكاذبين)[2]،وإنما أباح قبول ذلك عمن حدث به ممن يحتمل صدقه وكذبه[3].

قال[4]: «وإذا فرق بين الحديث عنه، والحديث عن بني اسرائيل فقال: حدثوا عني، ولا تكذبوا علي، فالعلم، إن شاء الله، يحيط أن الكذب الذي نهاهم عنه هو الكذب الخفي، وذلك الحديث عمن لا يعرف صدقه»[5].

ثم حكى الشافعي في رد حديث الضعفاء عن ابن عمر، وعن عروة بن الزبير، وسعد بن إبراهيم.

وحكاه في كتاب «العمرى» عن عطاء بن أبي رباح وطاوس، وابن سيرين، وإبراهيم النخعي، ثم قال: «ولا لقيت، ولا علمت، أحداً من أهل العلم بالحديث يخالف هذا المذهب».

قال الشيخ الفقيه احمد: وإنما يخالفه بعض من لا يعد من أهل الحديث، فيرى قبول رواية المجهولين، ما لم يعلم ما يوجب رد خبرهم.

وقد قال الشافعي رضي الله عنه في أول كتاب الطهارة، حين ذكر ما تكون به الطهارة من الماء، واعتمد فيه على ظاهر القرآن، وقد روي فيه عن النبي ﷺ حديثاً يوافق ظاهر القرآن: في إسناده من لا أعرفه[6]، ثم ذكر حديثه عن مالك، عن صفوان بن سليم، عن

---

(١) الرسالة: (ص٣٩٨/٣٩٩).

(٢) رواه مسلم في صحيحه: (٥/١).

(٣) الرسالة: (ص٣٩٩)، وفيه يجهل بدل يحتمل.

(٤) أي الشافعي.

(٥) الرسالة: (٤٠٠).

(٦) الأم: (٣/١).

سعيد بن سلمة، عن المغيرة بن أبي بردة، عن أبي هريرة عن النبي ﷺ في البحر[1]، وعسى لم يخطر ببال فقيه من فقهاء عصرنا ريب في صحة هذا الحديث، وإمامه يقول: في إسناد من لا أعرفه، وانما قال ذلك؛ لاختلاف وقع في اسم المغيرة بن أبي بردة، ثم في وصله بذكر أبي هريرة مع ايداع مالك بن أنس إياه كتابه الموطأ[2]، ومشهور فيما بين الحفاظ أنه لم يودعه رواية من يرغب عنه إلا رواية عبدالكريم بن أبي أمية[3]، وعطاء الخراساني[4]، فقد رغب عنهما غير مرة.

وتوقف الشافعي في إيجاب الغسل من غسل الميت، واعتذر بأن بعض الحفاظ أدخل بين أبي صالح وأبي هريرة إسحاق مولى زائدة، وأنه لا يعرفه[5]. ولعله أن يكون ثقة، وتوقف في إثبات الوقت الثاني لصلاة المغرب مع أحاديث صحاح، رويت فيه[6] بعد إمامة جبريل عليه الصلاة والسلام النبي ﷺ حين لم يثبت عنده من عدالة رواتها ما يوجب قبول خبرهم

وكأنه وقع لمحمد بن إسماعيل البخاري رحمه الله بعده ما وقع له، حتى لم يخرج شيئاً من تلك الأحاديث في كتابه[7]، ووقف مسلم بن الحجاج على ما يوجب قبول خبرهم، ووثق بحفظ من رفع المختلف في رفعه منها فقبله، وأخرجه في الصحيح[8]، وهو في حديث أبي

---

(١) الأم: (٣/١).

(٢) الموطأ: (١/٥٢-٥٣) بشرح الزرقاني.

(٣) عبدالكريم بن أبي المخارق أبو أمية، المعلم البصري، نزيل مكة، واسم أمية طارق، وقيل فيه: ضعيف. انظر التقريب: (٥١٦/١)، والميزان: (٢/٦٤٦-٦٤٧).

(٤) عطاء بن أبي مسلم الخراساني، واسم أمية ميسرة، وقيل عبدالله، صدوق، يهم كثيراً، او يرسل ويدلس،من الخامسة، مات سنة خمس وثلاثين لم يصح أن البخاري أخرج له. انظر التقريب: (٢/٢٢). والتهذيب: (٧/١٩٠/١٩٢).

(٥) الأم: (١/٢٦٦).

(٦) الأم: (١/٧٣/٧٤).

(٧) لم يخرج البخاري شيئاً من أحاديث صلاة جبريل بالنبي صلى الله عليه وسلم.

(٨) صحيح مسلم: (٥/١٠٧-١٠٨).

موسى وبريدة وعبدالله بن عمرو[1]. واحتج الشافعي في كتاب «أحكام القرآن» برواية عائشة في: أن زوج بريرة كان عبداً، وإن بعض من تكلم فيه قال له: هل يروون عن غير عائشة أنه عبد؟ قال الشافعي في المعتقة: وهي أعلم به من غيرها.

وقد روي من وجهين قد أثبت أنت ما هو أضعف منهما، ونحن انما نثبت ما هو أقوى منهما، فذكر حديث عكرمة عن ابن عباس، وحديث القاسم العمري، عن عبدالله بن دينار، عن أبي عمرو: أن زوج بريرة كان عبداً، وحديث عكرمة عن ابن عباس قد أخرجه البخاري في الصحيح[2] إلا أن عكرمة مختلف في عدالته[3]، كان مالك بن أنس رحمه الله تعالى وأبان لا يرضاه، وتكلم فيه سعيد بن المسيب وعطاء وجماعة من أهل العلم بالحديث[4]، ولذلك ترك مسلم بن الحجاج الاحتجاج بروايته في كتابه، والقاسم العمري

---

(١) الأحاديث في صلاة جبريل بالنبي صلى الله عليه وسلم وردت من طريق أكثر من صحابي كما يلي:

١- عن جابر عند ابن حبان والحاكم وأحمد والنسائي.

٢- عن ابن عباس عند الترمذي وأحمد وأبو داود، وابن خزيمة.

٣- وعن أبي هريرة عند الترمذي والنسائي.

٤- وعن بريدة عن الترمذي.

٥- وعن أبي موسى عند مسلم وأبي داود.

٦- وعن أبي مسعود عند مالك.

٧- وعن ابي سعيد الخدري عند أحمد في مسنده.

٨- وعن البراء ذكره ابن أبي خيثمة.

٩- وعن أنس عند الدار قطني.

١٠- وعن ابن عمر عند الدار قطني.

١١- وعن مجمع ابن جارية عند أبي حاتم.

انتهى من نيل الأوطار: (١/٣٠٠-٣٠٢).

(٢) رواه البخاري برقم: (٥٢٨٠).

(٣) انظر في الكلام فيه: التقريب: (٢/٣٠). والتهذيب.

(٤) انظر المصادر آنفة الذكر على سبيل المثال لا الحصر.

ضعيف عندهم.

قال الشافعي لخصمه: نحن إنما نثبت ما هو أقوى منهما، وقال في أثرين ذكرهما في كتاب الحدود[1]: «وهاتان الروايتان، وإن لم يخالفانا، غير معروفتين، ونحن نرجو أن لا نكون ممن تدعوه الحجة على من خالفه إلى قبول خبر من لا يثبت خبره بمعرفته عنده». ول من هذا أشياء كثيرة يكتفي بأقل من هذا من سلك سبيل النصفة، فهذا مذهبه في قبول الأخبار، وهو مذهب القدماء من أهل الآثار.

قال البيهقي رضي الله عنه: وكنت أسمع رغبة الشيخ رضي الله عنه في سماع الحديث والنظر في كتب أهله، فأشكر إليه، وأشكر الله تعالى عليه، وأقول في نفسي، ثم فيما بين الناس: قد جاء الله -عز وجل- بمن يرغب في الحديث، ويرغب فيه من بين الفقهاء، ويميز فيما يرويه ويحتج به الصحيح من السقيم من جملة العلماء، وأرجو من الله أن يحيي سنة إمامنا المطلبي في قبول الآثار، حيث أماته أكثر فقهاء الأمصار بعد من مضى من الأئمة الكبار، الذين جمعوا بين نوعي علمي الفقه والأخبار، ثم لم يرضى بعضهم بالجهل به، حتى رأيته حمل العامل به في الوقوع فيه، والازدراء به، والضحك منه، وهو مع هذا يعظم صاحب مذهبه، ويجله، ويزعم أنه لا يفارق في منصوصاته قوله، ثم يدع في كيفية قبول الحديث ورد طريقته، ولا يسلك فيها سيرته، لقلة معرفته بما عرف، وكثرة غفلته عما عليا وقف، هلا نظر في كتبه، ثم اعتبر باحتياطه في انتقاده لرواة خبره، واعتماده فيمن اشتبا عليه حاله على رواية غيره، فترى سلوك مذهبه مع دلالة العقل والسمع واجباً على كل من انتصب للفتيا[2]، فإما أن يجتهد في تعلمه، أو يسكت عن الوقوع فيمن يعلمه، ولا يجتمع

---

(١) الأم: (١٤٠/٦).

(٢) إن كان المقصود باتباع طريقته في التحري والتوثق، فنعم، وإن كان المقصود تقليده في الفروع فليس هناك في السمع ولا العقل ما يوجب تقليده. والله أعلم.

عليه وزران حيث فاته الأجران، والله المستعان وعليه التكلان.

ثم إن بعض أصحاب الشيخ أدام الله عزه وقع إلى هذه الناحية، فعرض علي أجزاء ثلاثة مما أملاه من كتابه المسمى بالمحيط، فسررت به، ورجوت أن يكون الأمر فيما يورده من الأخبار على طريقة من مضى من الأئمة الكبار، لائقاً بما خُصَّ به من علم الأصل والفرع، موافقا لما ميز به من فضل العلم والورع، فإذا أول حديث وقع عليه بصري الحديث المرفوع في النهي عن الاغتسال بالماء المشمس[1]، فقلت في نفسي: يورده ثم يضعفه، ويضعف القول فيه، فرأيته قد أملى[2]: «والخبر فيه ما روى مالك عن هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة».

فقلت: هلا قال: روي عن عائشة، أو روي عن ابن وهب عن مالك، أو روي عن مالك، أو روي عن إسماعيل بن عمرو الكوفي عن ابن وهب عن مالك؟ أو روى خالد بن إسماعيل أو وهب بن وهب أبو البحتري عن هشام بن عروة، أو روى عمرو بن محمد الأعسم عن فليح عن الزهري عن عروة، ليكون الحديث مضافاً إلى ما يليق به مثل هذه الرواية، ولا يكون في مثل هذا على مالك بن أنس ما أظنه يبرأ إلى الله تعالى من روايته ظناً مقروناً بعلم.

ثم إني رأيته، أدام الله عصمته، أوّل حديث البسملة[3]، وضعف ما روي عن ربيعة بن أبي عبدالرحمن في تأويله بحديث شهد به على الأعمش أنه رواه عن شقيق بن سلمة عن ابن مسعود عن النبي ﷺ فيمن توضأ وسمى، وفي من توضأ ولم يسم[4].

---

(١) رواه الدارقطني. والبيهقي: (٦/١). وقال: هذا لا يصح. وله طرق عن عائشة انظر إرواء الغليل: (١/٥٠-٥٤).

(٢) كذا في الطبقات والرسائل المنيرية، ولعل فيه سقطاً. والله أعلم.

(٣) يشير الى حديث أبي سعيد، «لا صلاة لمن لا وضوء له، ولا وضوء لمن لم يذكر اسم الله عليه». وقد رواه أحمد: (٤١٨/٢)، وأبو داود برقم: (١٠١). وابن ماجة برقم: (٣٩٩)، والبيهقي: (٤٣/١).

(٤) رواه المصنف في السنن الكبرى: (٤٤/١). وقال: وهذا ضعيف.

وهذا حديث تفرد به يحيى بن هاشم السمسار[1] عن الأعمش، ولا يشك أحد في ضعفه، ورواه أيضا عبدالله بن حكيم عن أبي بكر الزاهري عن عاصم بن محمد عن نافع عن ابن عمر مرفوعا[2]، وأبو بكر الزاهري ضعيف لا يحتج بخبره[3]. وروي من وجه آخر مجهول عن أبي هريرة ولا يثبت[4].

وحديث التسمية قد روي من أوجه، ما وجه من وجوهها إلا وهو مثل إسناد من أسانيد ما روى في مقالته، ومع ذلك فأحمد بن حنبل يقول: لا أعلم فيه حديثاً ثابتاً[5].

فقلت في نفسي: قد ترك الشيخ، حرس الله مهجته، القوم فيما أحدثوا من المساهلة في رواية الأحاديث، وأحسبه سلك هذه الطريقة فيما حكي له عند مسح وجهه بيديه في قنوت صلاة الصبح، وأحسن الظن برواية من روى مسح الوجه باليدين بعد الدعاء[6]، مع ما أخبرنا أبو عبدالله الحافظ، قال: أخبرنا أبو بكر الخراجي، قال: حدثنا سارية، حدثنا عبدالكريم السكري، قال: حدثنا وهب بن زمعة، أخبرنا علي النسائي قال: سألت عبدالله بن المبارك عن الذي إذا دعا مسح وجهه، فلم يجب، قال علي: ولم أره يفعل ذلك، قال: وكان عبدالله يقنت بعد الركوع في الوتر، وكان يرفع يديه في القنوت.

وأخبرنا أبو علي الروذباري، حدثنا أبو بكر بن داسة قال: قال أبو داود السجستاني:

---

(١) أشار الى هذا المصنف في السنن الكبرى، ويحيى هذا: كذبه ابن معين، وقال النسائي: متروك. انظر الميزان: (٤/٤١٢).

(٢) رواه المصنف في الكبرى: (١/٤٤). وقال: وهذا ايضا ضعيف.

(٣) أبو بكر الزاهري، عبدالله بن حكيم قال أحمد: ليس بشيء، وقال الجوزجاني كذاب. انظر الميزان: (٢/٤١٠-٤١١).

(٤) رواه المصنف في الكبرى: (١/٤٥)، وقال عنه. روي من وجه ضعيف عن أبي هريرة مرفوعاً.

(٥) انظر اختصار السنن للمنذري: (١/٨٨). ونيل الأوطار: (١/١٣٥).

(٦) رواه ابو داود برقم: (١٤٨٥-١٤٨٦).

روي هذا الحديث من غير وجه عن محمد بن كعب، وهذا الطريق أمثلها، وهو ضعيف[1] أيضاً، يريد به حديث عبدالله بن يعقوب عمن حدثه عن محمد بن كعب القرظي عن ابن عباس عن النبي ﷺ: (سلوا الله ببطون أكفكم، ولا تسألوه بظهورها، فإذا فرغتم، فأمسحوا بها وجوهكم)[2].

وروي ذلك من أوجه أخر كلها أضعف من رواية من رواها عن ابن عباس، وكان أحمد بن حنبل ينكرها[3]، وحكى عنه أنه قال في الصلاة: ولا بأس به في غير الصلاة.

قال الفقيه: وهذا لما في استعماله في الصلاة من ادخال عمل عليها لم يثبت به أثر، وقد يدعو في آخر تشهده ثم لا يرفع يديه، ولا يمسحهما بوجهه؛ إذ لم يرد بهما أثر، فكذا في دعاء القنوت يرفع يديه لورود الأثر[4] به، ولا يمسح بهما وجهه؛ إذ لم يثبت فيه أثر، وبالله التوفيق.

وعندي أن من سلك من الفقهاء هذه الطريقة في المساهلة أنكر عليه قوله، مع كثير ممن روى هذه الأحاديث في خلافه، وإذا كان هذا اختياره، فسبيله أدام الله توفيقه يملي في مثل هذه الأحاديث روي عن فلان، ولا يقول روى فلان؛ لئلا يكون شاهداً على فلان بروايته من غير ثبت، وهو إن فعل ذلك وجد لفعله متبعاً، فقد أخبرنا أبو عبدالله الحافظ قال: سمعت أبا الوليد الفقيه يقول: لما سمع أبو عثمان الحيري[5] من أبي حنيفة أن كتابه

---

(١) سنن أبي داود: (٧٨/٢).

(٢) رواه أبو داود برقم: (١٤٨٥)، والحاكم: (٥٣٦/١)، وابن ماجة برقم: (١١٨١، ٣٨٦٦)، والطبراني في الكبير برقم: (١٠٧٧٩).

(٣) انظر مختصر كتاب الوتر لابن نصر: (ص١٥٢)، والمغني: (٤٤٩/١)، ومسائل احمد لأبي داود: ص(٧١).

(٤) يريد لثبوت هذا في الصحابة، وانظر في هذا مختصر الوتر: ص(١٣٩-١٤٠). والمغني: (٤٤٩/١)، وابن أبي شيبة: (٣٠٧/٢،٣١٦).

(٥) أبو عثمان سعيد بن اسماعيل بن منصور السابوري الحيري، ولد بالري سنة (٢٣٠هـ) وسمع من محمد بن مقاتل، وموسى بن نصر، وغيرهما، روى عنه الرئيس أبو عمر بن نصر، مات سنة (٢٩٨). انظر السير (٦٣/١٤-٦٦).

المخرج على كتاب مسلم كان يديم النظر فيه، فكان إذا جلس للذكر يقـول في بعض م
يذكر من الحديث: قال رسول الله ﷺ، ويقول في بعضه: روي عـن رسـول الله ﷺ، قـال
فنظرنا فإذا به قد حفظ ما في الكتاب، حتى ميز بين صحيح الأخبار وسقيمها.

وأبو عثمان الحيري يحتاط في هذا النوع من الاحتياط فيما يورد من الأخبار في المواعـ
وفي فضائل الأعمال، فالذي يوردها في الفرض والنفل، ويحتج بها في الحرام والحلال، أو
بالاحتياط وأحوج إليه، وبالله التوفيق.

قال الفقيه[1]: قد رأيت بعضاً ما أوردت عليه شيئاً من هـذه الطريقـة فـزع في ردهـا إ
اختلاف الحفاظ في تصحيح الأخبار وتضعيفها، ولو عرف اختلافهم، لعرف أنه لا فرج لـ
في الاحتجاج به، كما لا فرج لمن خالفنا في أصول الديانات في الاحتجاج علينـا باختلاف
في المجتهدات، واختلاف الحفاظ في ذلك لا يوجب رد الجميع، ولا قبول الجميـع، **وإن مـ
سبيله أن يعلم أن الأحاديث المروية على ثلاثة أنواع**[2]:

١- نوع اتفق أهل العلم به على صحته.

٢- ونوع اتفقوا على ضعفه.

٣- ونوع اختلف في ثبوته، فبعضهم يضعف بعض رواته بجـرح ظهـر لـه، وخفـي علـ
غيره، أو لم يظهر له من عدالته ما يوجب قبول خبره، وقد ظهر لغيره، أو عرف منـه معنـ
يوجب عنده رد خبره، وذلك المعنى لا يوجبه عند غيره، أو عرف أحدهما علة[3] حديـ

---

(١) أي البيهقي نفسه.

(٢) هذا التقسيم قد تابع فيه المصنف شيخه الحاكم، ففي «المدخل الى الإكليل» تقسـيم للحديث بما يقارب ما هنـ
وانظر المدخل الى الإكليل: (ص٣٣-٥٠).

(٣) العلة: هي الأمر الخفي القادح الذي يمنع من صحة الحديث. انظر تدريب الراوي: (١/٢٥٢)، والباعث الحثيث
(ص٦٥).

ظهر بها انقطاعه، أو انقطاع بعض ألفاظه، أو إدراج[1] لفظ من ألفاظ من رواه في متنه[2]، أو دخول إسناد حديث في أسناد غيره، خفيت تلك العلة على غيره، فإذا علم هذا، وعرف بمعنى رد منهم خبراً أو قبول من قبله منهم هذا الوقوف عليه، والمعرفة به إلى اختيار أصح القولين.

قال الفقيه: وكنت أدام الله عز الشيخ أنظر في كتب بعض أصحابنا، وحكايات من حكى منهم عن الشافعي رضي الله عنه نصاً، فانظر اختلافهم في بعضها، فيضيق قلبي بالاختلاف مع كراهة الحكاية من غير ثبت، فحملني ذلك على نقل مبسوط ما اختصره المزني[3] على ترتيب المختصر، ثم نظرت في كتاب التقريب[4]، وكتاب جمع الجوامع[5]، وعيون المسائل[6] وغيرها، فلم أر أحداً منهم فيما حكاه أوثق من صاحب التقريب، وهو في النصف الأول من كتابه أكثر حكاية لألفاظ الشافعي منه في النصف الأخير، وقد غفل في النصفين جميعاً مع اجتماع الكتب له، أو أكثرها، وذهاب بعضها في عصرنا، عن حكاية ألفاظ لابد لنا من معرفتها، لئلا نجري على تخطئة المزني في بعض ما يخطئه فيه، وهو منه بريء، ونتخلص بهذا من كثير من تخريجات أصحابنا.

ومثال ذلك من الأجزاء التي رأيتها من كتاب المحيط من أوله الى مسألة التفريق: أن أكثر أصحابنا والشيخ، أدام الله عزه، معهم يوردون الذنب في تسمية البحر بالمالح إلى

---

(١) الإدراج: هو ان تزاد لفظة في متن الحديث في كلام الراوي. انظر الباعث: (ص٧٣).

(٢) المتن هو: ألفاظ الحديث الذي تقوم بها معانيه. انظر أصول الحديث لعجاج: (ص٣٢).

(٣) المزني هو اسماعيل بن يحيى المزني، ولد سنة ١٧٥، وتوفي سنة ٢٦٤، وكتابه مطبوع متداول. انظر مفتاح السعادة: (٣/٢٧-٢٧١).

(٤) كتاب التقريب. انظر طبقات الشافعية لابن قاضي شهبة: (١/١٨٣-١٨٩).

(٥) جمع الجوامع. انظر طبقات الشافعية لابن قاضي شهبة: (١/١٣٨-١٣٩).

(٦) كتاب عيون المسائل لأبي بكر احمد بن الحسين الفارسي، انظر طبقات الشافعية لابن قاضي شهبة: (١/١٢٣-١٢٤).

أبي أبراهيم المزني. ويزعمون أنها لم توجد للشافعي، رحمه الله تعالى[1]. وقد سمى الشافع البحر مالحاً في كتابين، قال الشافعي في أمالي الحج في مسألة كون المحرم في صيد البحر كالحلال: والبحر إما العذب وإما المالح. قال الله تعالى: ﴿هذا عذب فرات وهذا ملح أجاج﴾ [الفرقان:٥٣][2].

وقال في كتاب المناسك الكبير: في الآية دليل على أن البحر العذب والمالح[3].

وذكر الشيخ أبقاه الله[4]، حدثنا الشيخ الإمام أبو بكر رحمه الله قول الشافعي، في أكل الجلد المدبوغ على ما بني عليه، ثم ذكر الشيخ حفظه الله تصحيح القول بمنع الأكل من عند نفسه بإيراد حجته.

وقد نص الشافعي في القديم، وفي رواية حرملة[5] على ما هداه إليه خاطره المتين، قال الزعفراني: قال أبو عبدالله الشافعي في كلام ذكره: يحل أن يتوضأ في جلدها إذا دبغ وذلك الذي أباحه رسول الله ﷺ منه، فأبحناه كما أباحه، ونهينا عن أكله بجمله أنه ميتة ولم يرخص في غير ما رخص فيه خاصة، ثم قال: وليس ما حل لنا الاستمتاع ببعضه بخبر الذي يبيح لنا ما نهينا عنه من ذلك الشيء بعينه، بخبر: ألا ترى أنا لا نعلم اختلافا في أن يحل شراء الحمر والهر، والاستمتاع بها، ولا يبيح أكلها. وانما نبيح ما يبيح، ونحظر ما حظر.

وقال في رواية حرملة: يحل الاستمتاع به بالحديث، ولا يحل أكله بأصل أنه ميتة.

---

(١) اضفتها ليتم السياق.

(٢) الأم: (٢/١٨١/١٨٢).

(٣) الأم: (٢/٢٠٣).

(٤) يعني والد إمام الحرمين.

(٥) انظر مذهبه في الاقناع: (١/٢٤).

ورأيته، أدام الله عصمته، اختار في تحلية الدابة بالفضة جوازها، وأظنه علم كلام الشافعي في كتاب مختصر البويطي والربيع، ورواية موسى ابن أبي الجارود حيث يقول: وإن اتخذ رجل أو امرأة آنية من فضة أو من ذهب، أو ضببا بهما آنية، أو ركباه على مشجب[1] أو سرج، فعليهما الزكاة، وكذلك اللجم والركب، هذا مع قوله في روايتهم: لا زكاة في الحلي المباح، وحيث لم يخص به الذهب بعينه، فالظاهر أنه أراد به كليهما جميعا ، وإن كانت الكناية بالتذكير يحتمل أن تكون راجعة الى الذهب دون الفضة كما قال الله عز وجل: ﴿والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله﴾ [التوبة: ٣٤].

فالظاهر عند أكثر أهل العلم أنه أراد به كليهما معا، وإن كانت الكناية بالتأنيث يحتمل أن تكون راجعة إلى الفضة دون الذهب.

وقد علم الشيخ أبقاه الله ورود التحريم في الأواني المتخذة من الذهب والفضة عامة[2]، ثم وردت الإباحة في تحلية النساء بهما، وتختم الرجال بالفضة خاصة، ووقف على اختلاف الصدر الأول رضي الله عنهم في حلية السيوف، واحتجاج كل فريق منهم بقوله بخبر، فنحن، وإن رجحنا قول من قال بإباحتها بنوع من وجوه الترجيحات، ثم حظرنا تحلية السيف، والسرير وسائر الآلات، ولم نقسها على التحريم بالفضة، ولا على حلية السيوف، فتصحيح إباحة تحلية الدابة بالفضة من غير ورود أثر صحيح مما يشق ويتعذر، وهو أدام الله توفيقه أهل أن يجتهد ويتخير.

وما استدل به من الخبر بأن أبا سفيان أهدى إلى رسول الله ﷺ بعيرا برته[3] من فضة

---

(١) المشجب: خشبات موثقة تنصب، فينشر عليها الثياب. انظر «المصباح المنير»: (٢/٣٠٥).

(٢) يشير إلى حديث أم سلمة: الذي يشرب ويأكل في آنية الذهب والفضة فكأنما يجرجر في بطنه نار جهنم، وهو في صحيح مسلم: (١٤/٢٧-٣٠).

(٣) البرة: حلقة تجعل في أنف البعير ليذل ويأتلف، انظر «شرح الخشني»: (٣/٤٤٤).

فغير مشتهر، وهو إن كان فلا دلالة له في فعل أبـي سـفيان؛ إذ لم يثبـت عـن النبـي ﷺ أ
تركه ثم ركبه، أو أركبه غيره، وإنما الحديث المشهور عندنا ما رواه محمـد بـن إسـحق ب
يسار، عن عبدالله بن أبي نجيح، عن مجاهد، عن ابن عباس قـال: أهـدى رسـول الله ﷺ
هديه جملاً لأبي جهل في أنفه برة فضة ليغيظ به المشركين[1].

أخبرنا أبو عبدالله الحافظ: حدثنا أبو العباس محمد بن يعقـوب، حدثنـا ابـن عبدالجبا
حدثنا يونس بن بكير، عن ابن إسحاق، الحديث[2].

وكان علي بن المديني يقول: كنت أرى هذا من صحيح حديث ابن إسـحاق، فـإذا ه
قد دلسه.

حدثنا يعقوب بن إبراهيم بن سعد، عن أبيه، عن محمد بن إسـحاق قـال: حدثـني مـن
أتهم عن ابن أبي نجيح، عن مجاهد، عن ابن عباس فإذا الحديث مضطرب.

أخبرنا بهذه الحكاية محمد بن عبدالله الحافظ، أخبرني محمد بن صالح الهاشمي، حدثنا أ
جعفر السبيعي، حدثنـا عبـدالله بـن علـي المديـني قـال: حدثـني أبـي فذكرهـا. وقـد رو
الحديث عن جرير بن حازم، عن ابن أبي نجيح، ورواه محمد بن عبدالرحمن بـن أبـي ليلـى
عن الحكم، عن مقسم عن ابن عباس، وليس بالقوي[3]، وقد اخبرنا محمـد بـن موسـى بـ
الفضل، أخبرنا أبوعبدالله الصفار، حدثنا أحمد بن محمد المزنـي القـاضي، حدثنـا محمـد بـ
المنهال، حدثنا يزيد بن زريع، حدثنا محمد بن إسـحاق، عـن عبـدالله بـن أبـي نجيـح، عـ

(١) راوه أبوإسحاق في «السيرة»: (٤٤٤/٣)، وأحمد في «مسنده»: (٢٣٤/١)، وأبوداود: (رقم ١٧٤٩)، والطبر
في «المعجم الكبير»: (٩٢/٩١/١١).

(٢) المستدرك: (٤٦٧/١)، فقال: صحيح على شرط مسلم، ولم يخرجاه.

(٣) صدوق سيئ الحفظ جداً، قال شعبة: ما رأيت أسوأ من حفظه، وقال ابن معين: ليس بذاك. انظر التقريب
(١٨٤/٢). والمغني في الضعفاء: (٦٠٣/٢).

مجاهد، عن ابن عباس، أن رسول الله ﷺ أهدى جملاً لأبي جهل يوم الحديبية كان استلبه يوم بدر، وفي أنفه برة من فضة، وكذلك رواه أبو داود السجستاني في كتاب السنن عن محمد بن المنهال: برة من ذهب[١].

أخبرنا أبو علي الروذباري، أخبرنا أبو بكر بن داسة، حدثنا أبو داود فذكره، وقال: عام الحديبية، ولم يذكر قصة بدر[٢].

وقد أجمعنا على منع تحلية الدابة بالذهب، ولم ندع فيه ظاهر الكتاب بإيجاب الزكاة فيه، وعده إذا لم يخرجها من الكنوز بهذا الخبر، وكذلك لا ندعه في الفضة، وليس في الحديث، إن ثبت في الفضة، صريح دلالة في المسألة، وبالله التوفيق والعصمة.

وقد حكي لي عن الشيخ أدام الله عز ه أنه اختار جواز المكتوبة على الراحلة الواقفة، إذا تمكن من الإتيان بشرائطها مع ما في النزول للمكتوبة في غير شدة الخوف من الأخبار والآثار الثابتة، وعدم ثبوت ما روي في مقابلتها دون الشرائط التي اعتبرها.

وقد قال الشافعي رضي الله عنه في الإملاء: «ولا يصلي المسافر المكتوبة بحال أبداً إلا حالاً واحداً إلا نازلاً في الأرض، أو على ما هو ثابت على الأرض، لا يزول بنفسه مثل البساط والسرير والسفينة في البحر»[٣].

فلما وصلت الرسالة الى أبي محمد قال: هذه بركة العلم ودعا للبيهقي، وترك إتمام ذلك التصنيف[٤]، وقال في البيهقي: ما من شافعي إلا وللشافعي عليه منة إلا أحمد البيهقي فإنه ناصر مذهبه[٥].

---

(١) سنن أبي داود: (٢/١٤٥).

(٢) انظر معالم السنن للخطابي: (٢/١٥١)، والخطابي تلميذ ابن داسة، وراوي نسخته.

(٣) الطبقات: (٣/٢١٠-٢١٧)، مجموعة الرسائل المنيرية.

(٤) طبقات الشافعية للسبكي: (٣/٢١٠-٢١٧).

(٥) الطبقات: (٣/٢١٠).

فقه نصيحة البيهقي

بعد ذكر هذه النصيحة المطولة بتمامها نورد بعض دلالاتها كما يلي:

١- حوت هذه النصيحة معالم أدب التعامل بين العلماء، من ذكر حسن بينهم، إلى مودة صادقة، إلى حرص على توالي التوفيق والخير، إلى دعاء بالتوفيق للمنصوح، بما يجعلها معلمة نصح وإرشاد للناصحين.

٢- جرت النصيحة في مسائل علمية بين عالمين فحلين من فحول المذهب، وإمامين من أئمة ذلكم الزمان بكل أريحية وتقبل.

٣- يلحظ في الرسالة حرص البيهقي على إصابة أبي محمد للصواب، وتحريه للدقة.

٤- كان جواب النصحية جميلاً، اعترافاً بفضل، ودعوة صالحة، والإقلاع عما نصح فيه.

٥- لقد كانت النصيحة شهادة حق حفظت لهذين الإمامين، فما ذكر النصح إلا ذكراً معه، وما ذكر الوقوف عن الحق إلا تعلم الناس منهما.

٦- النصيحة مملوءة تواضعاً وخصوعاً وذلاً للمؤمنين، وعدم تعالٍ، ولا تهجم على شخص المنصوح وعلمه، وهذا من الأمور المفقودة عند الناصحين في زماننا هذا.

النصيحة السابعة

نصيحة الإمام الغزالي لأحد حكام عصره

الإمام أبو حامد الغزالي أحد علماء زمانه، ولقد نصح أهل زمانه عامة وخاصة، ولقد كان من نصحه رسالة بعث بها إلى أحد حكام عصره، وهو فخر الملك، قال له فيها:

«اعلم أن هذه المدينة (مدينة طوس) أصبحت خراباً بسبب المجاعات والظلم، ولما بلغ الناس توجهك من أسفرائين ودامغان خافوا، وبدأ الفلاحون يبيعون الحبوب، واعتذر الظالمون إلى المظلومين واستسمحوهم، لما كانوا يتوقعون من إنصاف منك، واستطلاع للأحوال، ونشاط في الإصلاح.

أما وقد وصلت إلى طوس، ولم ير الناس شيئا، فقد زال الخوف، وعاد الفلاحون والخبازون إلى ما كانوا عليه من الغلاء الفاحش والاحتكار، وتشجع الظالمون، وكل من يخبرك من أخبار هذا البلد بخلاف ذلك، فاعلم أنه عدو دينك.

واعلم أن دعاء أهل طوس بالخير والشر مجرب، وقد نصح للعميد كثيراً، ولكنه لم يقبل النصيحة، وأصبح عبرة للعالمين، ونكالاً للآخرين، واعلم يا فخر الملك، أن هذه الكلمات لاذعة مرة قاسية لا يجرؤ عليها إلا من قطع أمله من جميع الملوك والأمراء، فاقدرها قدرها، فإنك لا تسمعها من غيري، وكل من يقول غير ذلك، فاعلم أن طمعه حجاب بينه وبين كلمة الحق»[1].

فقه نصيحة الغزالي

هذه نصيحة الغزالي تتجلى فيها الدلالات التالية:

١- الحرص الشديد على إيصال الصورة الحقيقية للبلاد إلى فخر الملك دونما تقصير أو مداهنة أو نفاق.

٢- القوة في الخطاب، وقد وقعت موقعها، وجاءت في موعدها.

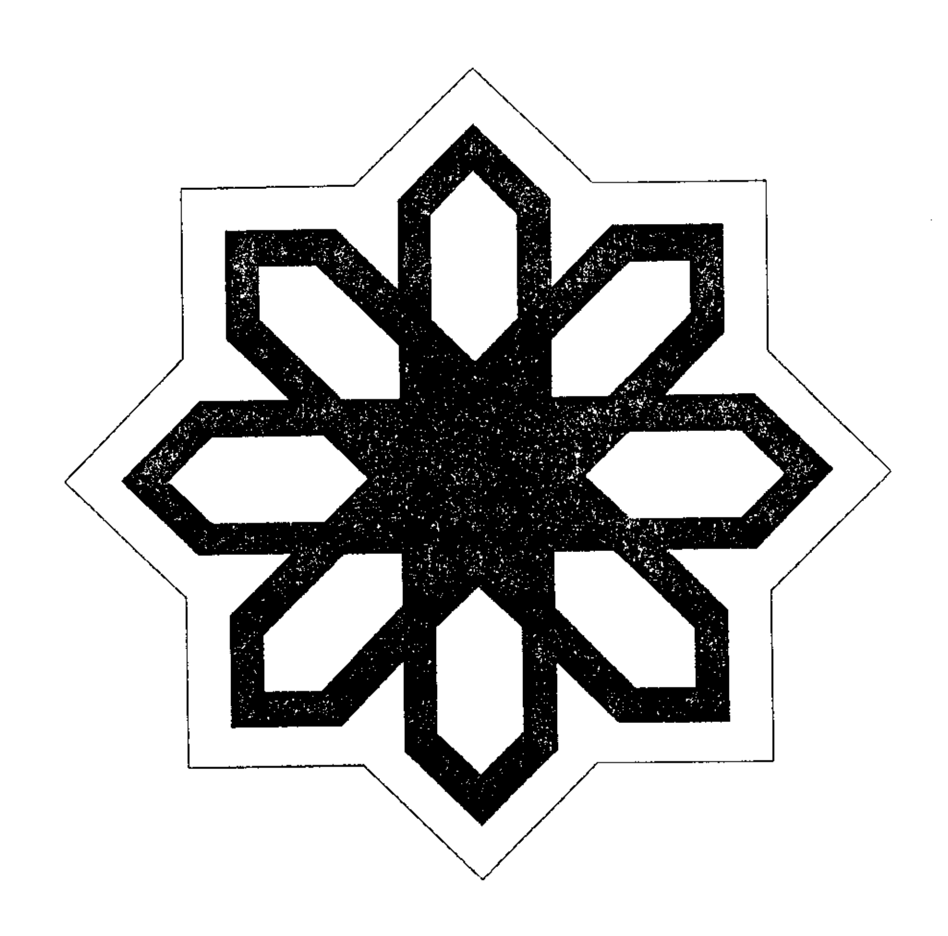
٣- الحرقة على أحوال الناس في زمانه من شدة في المعاش، إلى مظالم تترى، مما ألزم الغزالي أن يبعث بهذه الرسالة تتضمن هذه النصيحة الصادقة.

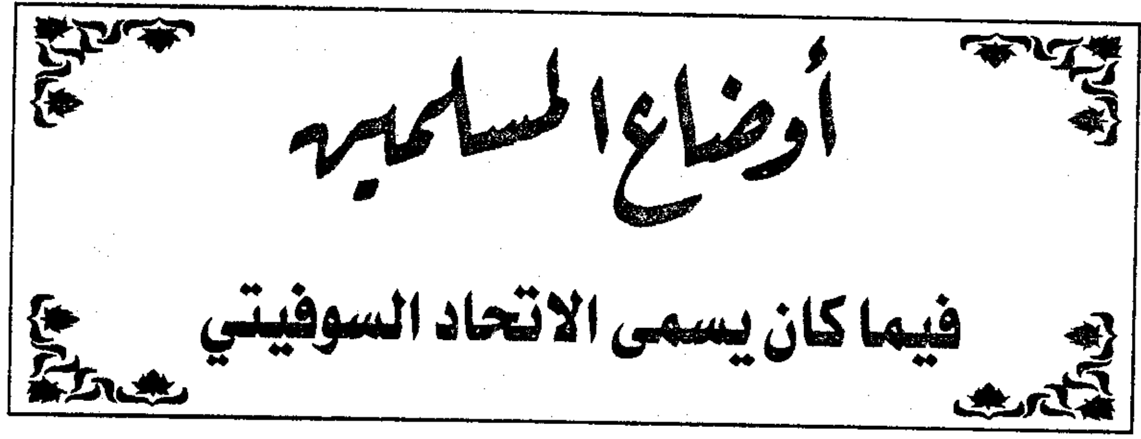
(١) رجال الفكر والدعوة: (ص٢٣٨-٢٣٩)، نقلاً عن رسائل الغزالي بالفارسية.

الخاتمه

هذه كلمات في فقه النصيحة التي ألزمنا الله بها، وجعلها رسوله ﷺ دينا ، وبايع عليه أصحابه، وعليها تعاقدت مواكب المؤمنين، ولانت جوانب الصالحين، وليس لكاتبه فيـه إ الجمع والترتيب، ويرجو به حسن الثواب من الله سبحانه وتعالى، وأن يجعل العمل خالص لوجهه الكريم، ويرجو من نظر فيه تطبيق مفرداتـه علـى أخطائـه إن كـانت، إنـه علـى م يشاء قدير.

والحمد لله رب العالمين.





أعد هذا التقرير وحرره سيد عبد المجيد بكر

الأستاذ بجامعة الملك عبدالعزيز بجدة، وهو يلقي أضواء على المسلمين فيما كان يعرف بالاتحاد السوفيتي، تعريفاً للمسلمين بأوضاع إخوانهم، وتحقيقاً للتواصل بين المسلمين.

مسلمو الاتحاد السوفياتي (آسيا)[١]

الوحدة الإدارية	عدد السكان	المسلمون	النسبة المنوية
سيريا	١٣,٦٠٠,٠٠٠	٣,٤٠٠,٠٠٠	٪٢٥
قازاخستان	١٦,٤٧٠,٠٠٠	٧,٠٨٢,٠٠٠	٪٤٣
أوزبكستان	١٩,٥٦٩,٠٠٠	١٤,٨٧٢,٠٠٠	٪٧٦
قرغيزيا	٤,٣٣٨,٠٠٠	٣,٢٩٦,٠٠٠	٪٧٤
طادجيكستان	٤,٩٦٩,٠٠٠	٤,٠٧٤,٠٠٠	٪٨٢
تركمانيا	٣,٤٥٥,٠٠٠	٢,٨٦٧,٠٠٠	٪٨٣
أذربيجان	٦,٩٢٤,٠٠٠	٥,٢٥٩,٠٠٠	٪٧٦
أرمينيا	٣,٤٥٩,٠٠٠	٠,٣٥٦,٢٧٧	٪١٠,٣
جورجيا	٥,٣٠٠,٠٠٠	٠,٧٩٤,٠٠٠	٪١٥
داغستان	٢,٠٠٠,٠٠٠	١,٥٠٠,٠٠٠	٪٧٥

(١) وصل تقدير سكان الاتحاد السوفياتي حوالي: ٢٨٤ مليون نسمة –وقدر عدد المسلمين بحوالي ٧٠ مليون نسمة.
– انظر الجداول.



المسلمون في الاتحاد السوفياتي ((سابقاً))

أدت الأحداث إلى انهيار الاتحاد السوفياتي، وتغيير خريطته السياسية، وظهر اتحاد جديد باسم «منظمة الدول المستقلة»، ويشغل الاتحاد السوفياتي «سابقاً» مساحة قدرها ٢٢,٤٠٢,٢٠٠ كيلومتر[1]، موزعة على قارتي أسيا وأوربا، وهذه المساحة تعادل سدس اليابس تقريباً، ويبلغ طول الأراضي السوفياتية «سابقاً» بين بحر البلطين والمحيط الهادي حوالي ١٠ آلاف كيلو متر، وعرضها يتزواح بين ٣٠٠٠ كيلومتر و ٤٥٠٠ كيلومتر[2]، ويتكون الاتحاد السوفياتي من ١٥ جمهورية، منها ست جمهوريات يشكل المسلمون أغلب سكانها، هذا بخلاف الأقاليم الملحقة بالخمس عشرة جمهورية، ولقد استولى السوفيات على مساحة ٤,٥٣٨,٦٠٠ كيلومتر من البلاد الإسلامية، والوحدات السياسية التي استولى عليها السوفيات من الأراضي الإسلامية في قارة آسيا هي:

أذربيجان- أوزبكستان- طادجيكستان- تركمانستان- قزاخستان- قرغيزيا- جورجيا- أرمينيا-. والست الأولى ذات أغلبية مسلمة، والأخيرتان كانتا تابعتين لحكم إسلامي خلاف فترات مختلفة. وفي قارة أوربا: داغستان- شاشان- كارديا بلكاريا- القرم- ماري وادمورتيا- تشوفاشيا- تتاريا- بشكيريا- أورنبرج، أستينا الشمالية[3].

الأحوال الديموغرافية للمسلمين:

بلغ عددهم في سنة ١٣١٥ﻫ / ١٨٩٧م في إحصاء أجري في عهد القياصرة الروس ١٦ مليوناً، وفي العهد الشيوعي بلغ عدد المسلمين في سنة ١٣٤٥هـ/١٩٦٢م-

---

(١) The Europa Year Book- 1987 vol. 2P.123.

(٢) The New Encylopedia Of World Geography P.124.

(٣) منتصر الكتاني: المسلمون في المعسكر الشيوعي ص: ٦٨، البلدان الإسلامية (ص:٧٥١).

١٧,٢٩٢,٠٠٠ نسمة، والزيادة حوالي مليون وربع المليون وهذا غير مقبول في مدة ٢٩ سنة، ويعود انخفاض عدد المسلمين إلى العديد من الأسباب، منها: كثرة عدد من أعدموا في الثورة الشيوعية، وطريقة الإحصاء التي أجراها الشيوعيون على أساس القوميات، لا على أساس الأديان والهجرة.

ووصل عدد المسلمين في سنة ١٣٧٩هـ/١٩٥٩م إلى ٢٤,٣٨٠,٠٠٠ نسمة؛ أي بزيادة قدرها ٤١٪ في ٣٣ سنة، وفي سنة ١٣٩٠هـ/١٩٧٠م بلغ عددهم ٣٥,٢٣٢,٠٠٠ نسمة؛ أي بزيادة قدرها ٤٥٪، ونسبة الزيادة الأخيرة مقبولة في مدة ١١ سنة، أما نسبة الزيادة السابقة لها، وهي ٤١٪[1] في مدة ٣٣ سنة، فغير واقعية، فالمفروض أنها ٨٢٪.

وتعود أسباب انخفاض زيادة المسلمين في الفترة من ١٣٤٥هـ/١٩٢٦م إلى ١٣٩٧هـ/١٩٥٩م إلى المعاناة في فترة الحرب العالمية الثانية، وحركة مقاومة الوحدات السياسية الإسلامية، لدمجها في جمهوريات السوفيات «سابقاً». ويتدخل عنصر آخر، وهو طريقة الإحصاء التي اتبعها الروس، وكذلك تهجير المسلمين بصورة، إجبارية مما أدى إلى هجرتهم إلى الخارج، وقد أدى هذا إلى خفض نسبة المسلمين خصوصاً في الجمهوريات الإسلامية بآسيا الوسطى.

وتشير الإحصائيات إلى زيادة نسبة تكاثر المسلمين في الفترة الأخيرة، فالمعدل السنوي في الفترة من ١٣٧٩هـ/١٩٥٩م إلى ١٣٩٠هـ/١٩٧٠م يصل إلى ٣,٦٪، وهي نسبة عالية، ربما تعود إلى زيادة التناسل، وإلى استقرار الوضع المفروض عليهم. وإذا سرنا بهذا المعدل في نسبة تزايد المسلمين في عشر السنوات الأخيرة، على أساس الزيادة ٣٪ سنويا ،

(١) المسلمون في المعسكر الشيوعي: ص٦١.

فهذا يشير إلى زيادة أكثر من عشرة ملايين نسمة في الفترة المحصورة بين عامي ١٣٩٠هـ/١٩٧٠م و١٣٩٩هـ/١٩٧٩م وعلى هذا الأساس يصل عدد المسلمين بالاتحاد السوفياتي في سنة ١٤٠٠هـ/١٩٨٠م حوالي ٤٥,٨٠١,٦٠٠ نسمة. وفي سنة ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م

وصل العدد إلى حوالي ٤٨,٥٤٩,٦٩٦ نسمة. وفي سنة ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م وصل العدد إلى حوالي ٤٨,٥٤٩,٦٩٦ نسمة، وهذا الرقم يقترب من تقديرهم على أساس القوميات، وتقدرهم المصادر الغربية بـ ٤٠,٥٩٦,٠٠٠ نسمة في سنة ١٣٩٧هـ[1]. وهذا أقل من عددهم في التقديرات الإسلامية، وحركة تهجير السكان من منطقة لأخرى أمر مألوف بجمهوريات الاتحاد السوفياتي «سابقاً»، وهذا يزيد من صعوبة التقدير كما سبق).

ويشير تطور زيادة نسبة المسلمين خلال الفترة الممتدة بين سنتي ١٣٤٥هـ/١٩٣٦م و١٣٩٠هـ/١٩٧٠م إلى صحة التطور العددي للمسلمين السابق ذكره، فلقد كانت نسبة المسلمين بين سكان الاتحاد السوفياتي في سنة ١٣٤٥هـ/١٩٢٦م، ١١,٦٧٪، وفي سنة ١٣٧٩هـ/١٩٥٩م كانت نسبتهم ١١,٦٧٪ وأشرت إلى الأسباب المحتملة لانخفاض هذه النسبة، وفي سنة ١٣٩٠هـ/١٩٧٠م أصبحت نسبتهم بين سكان الاتحاد السوفياتي ١٥,٢٪. وتدل النسبة الأخيرة على ارتفاع تكاثر المسلمين، وعلى أساس ارتفاع معدل الزيادة السنوية[2] يحتمل أن يصل عدد المسلمين سنة ١٤٢٣هـ/٢٠٠٢م إلى حوالي ١١٠,٣٧٩,٠٠٠ نسمة، والجدول الآتي يوضح عدد المسلمين بالاتحاد السوفياتي في السنوات الأخيرة، على أساس التقديرات الإسلامية، وقد وصل عددهم في سنة ١٣٩٧هـ

---

(١) The Muslim national Communism In The Union P.178.

(٢) Richard V. Weekes-Muslim Peoples P.520.

+ The Muslim National Communism In The Sovietn Union Soviet د. داود دورسون: تقرير حول البناء الاجتمعي للمسلمين السوفيات.

إلى ٥٠ مليون نسمة، وربما يكون في هذا التقدير زيادة تأتت من عدم وضوح الإحصاءات السوفياتية، ذلك أنها لا تعتمد على أساس ديني، وإنما تبنى على أساس القوميات، وإن جاز الأخذ بهذا، وهو المصدر الوحيد في الإحصاء السوفياتي، فيكون عدد المسلمين في الوقت الراهن حوالي ٧٠ مليون نسمة. ولقد قدر عددهم الحاج محمود كيكي رئيس الإدارة الدينية لمسلمي شمال القوقاز بحوالي ٧٠ مليون نسمة في سنة ١٤٠٩هـ/١٩٨٩م.

كما صرح الشيخ طلعت تاج الدين، المفتي ورئيس النظارة الدينية لمسلمي القسم الأوروبي وسيبريا بأن عدد المسلمين في الاتحاد السوفياتي «سابقاً» يزيد على ٦٠ مليون نسمة، وأعلن الشيخ محمد صادق مفتي المسلمين في كزاخستان أن عدد المسلمين في الاتحاد السوفياتي وصل إلى ٧٠ مليون نسمة[1]،لي وهذا يتفق مع نسبة تناسل المسلمين حيث إن نسبة المواليد مرتفعة عند المسلمين عنها عند الروس.

---

(١) The Europa Year Book Vol. P. 1237-1978.
الكتاني: المسلمون في المعسكر الشيوعي (ص:٦٨).
والبلدان الإسلامية: (ص:٧٥١).
وأخبار العالم الإسلامي: (١٤٠٩/٦/٩هـ).
وأخبار العالم الإسلامي: (١٤٠٩/١٢/٢٨هـ).
وأخبار العالم الإسلامي: (١٤١١/٥/٢هـ).

المسلمون بالاتحاد السوفياتي ((سابقاً))

١٣٩٧هـ/١٩٧٧م

حسب الوحدات الإدارية وفق التقديرات الإسلامية

الوحدة الإدارية	عدد السكان	المسلمون	النسبة المئوية
طاجيكستان	٣,٥٨٩,٠٠٠	٢,٩٤٢,٠٠٠	٪٨٢
قرغيزيا	٣,٤٥١,٠٠٠	٣,٦٢٢,٠٠٠	٪٧٦
أوزبكستان	١٤,٤٨٥,٠٠٠	١١,٢٩٨,٠٠٠	٪٧٨
تركمان	٢,٥٢٠,٠٠٠	٢,٢٠١,٠٠٠	٪٨٣
قازاخستان	١٤,٥٢٧,٠٠٠	٦,٢٤٦,٠٠٠	٪٤٣
داغستان	٢,٠٠٠,٠٠٠	١,٥٠٠,٠٠٠	٪٧٥
أذربيجان	٥,٧٨٦,٠٠٠	٤,٣٩٧,٠٠٠	٪٧٦
جورجيا	٤,٩٩٩,٠٠٠	٠,٧٤٩,٠٠٠	٪١٥
أرمينيا	٢,٨٩٤,٠٠٠	٠,٣٠٠,٠٠٠	٪١٠,٣
سيبيريا الغربية	١٠,٠٠٠,٠٠٠	٢,٥٠٠,٠٠٠	٪٢٥
المجموع	٦٤,٣٨٣,٠٠٠	٣٤,٧٥٥,٠٠٠	٪٥٤
شاشان	١,١٥٠,٠٠٠	٠,٨٦٢,٠٠٠	٪٧٥
بلكاريا	٠,٦٦٦,٠٠٠	٠,٤٩٩,٠٠٠	٪٧٥
القرم ((ألغيت بعد الحرب العالمية الثانية)) تقدير	٧,٠٠٠,٠٠٠	٥,٠٠٠,٠٠٠	٪٧١

ماري	٠,٧٠٦,٠٠٠	٠,٣٦٠,٠٠٠	٪٦٠
أدمورت	١,٠٠٠,٠٠٠	٠,٦٠٠,٠٠٠	٪٦٠
تتاريا	٣,٣٧١,٠٠٠	٢,١٩١,٠٠٠	٪٦٥
باشكيريا	٣,٨٤٣,٠٠٠	٣,٣٠٥,٠٠٠	٪٦٠
أوستيا الشمالية	٠,٥٩٩,٠٠٠	٠,٣١٧,٠٠٠	٪٥٣
موردوف	٠,٩٨٠,٠٠٠	٠,٥٣٩,٠٠٠	٪٥٥
قرتشاي الشركسية	٠,٤٣٤,٠٠٠	٠,٢٦٧,٠٠٠	٪٦١
الأد يجا	٠,٤٠٠,٠٠٠	٠,٣٢٠,٠٠٠	٪٨٠
أورنبرج	٢,٠٠٠,٠٠٠	١,٠٦٠,٠٠٠	٪٥٣
الجوفاش	١,٥٠٠,٠٠٠	٠,٨٧٠,٠٠٠	٪٥٨
	٢٣,٥٤٩,٠٠٠	١٥,١٩٠,٠٠٠	
المجموع الكلي	٨٧,٩٣٢,٠٠٠	٤٩,٩٤٥,٠٠٠	٥٦,٨

سكان الاتحاد السوفياتي ((سابقاً))

١٣٩٧هـ/ ١٩٧٧م	٢٥٩,٠٠٠,٠٠٠	٤٩,٩٤٥,٠٠٠	٪١٩,٢٨
١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م	٢٨٤,٤٩٦,٠٠٠	٦٢,٦٣٠,٠٠٠	٪٢٢
١٤١١هـ/ ١٩٩٠م	قدر عدد المسلمين بالاتحاد السوفياتي بحوالي ٧٠ مليون نسمة ((انـ الملاحظات بعد الجداول)) وبذلك تكون النسبة ٢٤٪.		

المسلمون بالاتحاد السوفياتي «سابقاً»

١٣٩٧هـ/ ١٩٧٧م

حسب القوميات

ومية	عددها	المسلمون
- أوزبك	١٠,٧٤٦,٠٠٠	١٠,٧٤٦,٠٠٠
- تتار	٦,٥٥٠,٠٠٠	٦,٥٥٠,٠٠٠
- كزاخ	٦,١٩٥,٠٠٠	٦,١٩٥,٠٠٠
- أذري	٥,١٢٠,٠٠٠	٥,١٢٠,٠٠٠
- تركمان	١,٧٨٢,٠٠٠	١,٧٨٢,٠٠٠
- قرغيز	١,٦٩٩,٠٠٠	١,٦٩٩,٠٠٠
- بشكير	١,٤٥١,٠٠٠	١,٤٥١,٠٠٠
- كراكلباك	٢,٧٧٠,٠٠٠	٢,٧٧٠,٠٠٠
- كوميك	٢٢٠,٠٠٠	٢٢٠,٠٠٠
١- ويغور	٢٠٢,٠٠٠	٢٠٢,٠٠٠
١- قارتشاي	١٣٢,٠٠٠	١٣٢,٠٠٠
١- بلكار	٠٧٠,٠٠٠	٠٧٠,٠٠٠
١- نوجاي	٠٧٠,٠٠٠	٠٧٠,٠٠٠

- مجموع المسلمين الأتراك		٣٧,٠٠٧,٠٠٠
١٤- شاشان	٧١٧,٠٠٠	٧١٧,٠٠٠
١٥ - شركس	٤٩٢,٠٠٠	٤٩٢,٠٠٠
١٦- كابردنيان	٣٢٩,٠٠٠	٣٢٩,٠٠٠
١٧- أديجا	١١٦,٠٠٠	١١٦,٠٠٠
١٨- شركس ((آخرون))	٠٤٧,٠٠٠	٠٤٧,٠٠٠
- أفار	٤٦٤,٠٠٠	٤٦٤,٠٠٠
١٩- لزجين	٣٧٨,٠٠٠	٣٧٨,٠٠٠
٢٠- درجين	٢٦٩,٠٠٠	٢٦٩,٠٠٠
٢١- اينجوش	١٨٤,٠٠٠	١٨٤,٠٠٠
٢٢- ابخاز	١٢٧,٠٠٠	١٢٧,٠٠٠
٢٣- أبخاز ((آخرون))	٠٩٦,٠٠٠	٠٩٦,٠٠٠
٢٤- أباظة	٠٣١,٠٠٠	٠٣١,٠٠٠
٢٥- لاك	١٠١,٠٠٠	١٠١,٠٠٠
٢٦- تاباساران	٠٦٥,٠٠٠	٠٦٥,٠٠٠
٢٧- روتول	٠١٦,٠٠٠	٠١٦,٠٠٠
٢٨- تساخور	٠١٣,٠٠٠	٠١٣,٠٠٠
٢٩- أجول	٠٠٨,٠٠٠	٤,٠٨٠

- المسلمون القوقازيون		٠٠٨,٠٠٠
٣٠- طادجيك	٢,٤٩٧,٠٠٠	٢,٤٩٧,٠٠٠
٣١- أوسيزيان ((الأوسيت))	٥٦٥,٠٠٠	٢٢٠,٠٠٠
٣٢- أكراد	١٠٤,٠٠٠	١٠٤,٠٠٠
٣٣- فرس	٠٤٧,٠٠٠	٠٤٧,٠٠٠
٣٤- طاط	٠١٨,٠٠٠	٠١٨,٠٠٠
٣٥- بالوش	٠١٣,٠٠٠	٠١٣,٠٠٠
٣٦- بشت	٠٠٤,٠٠٠	٠٠٤,٠٠٠
- المسلمون الإيرانيون		٢,٩٠٣,٠٠٠
٣٧- هوي ((صينيون))	٠٤٧,٠٠٠	٠٤٧,٠٠٠
٨٣- عرب	٠١٣,٠٠٠	٠١٣,٠٠٠
المجموع	٤٤,٣٩٥,٠٠٠	٤٤,٠٥٠,٠٠٠

جملة سكان الاتحاد السوفياتي ((سابقاً))		نسبة المسلمين
سنة ١٣٩٧هـ/ ١٩٧٧م	٢٥٩,٠٠٠,٠٠٠	٪١٧



ملاحظات:

١ - الفرق بين مجموع المسلمين بالاتحاد السوفيتي حسب الوحدات الإدارية، ومجموعهم حسب القوميات، يود إلى تقدير بعض القوميات بأقل من عددهم، وهناك قوميات أخرى لم تذكر. والتهجير إلى سيبريا، سبب آخر.

٢ - تمثل القوميات التركية مركز الثقل الإسلامي، لاسيما في وسط قارة آسيا (٨٥٪).

٣ - تهجير الروس الأوروبيين إلى مناطق الأغلبية الإسلامية تسبب في انخفاض نسبة المسلمين، وأسهمت في هذا سياسة تهجير المسلمين من مناطق الأغلبية المسلمة.

٤ - يتوقع أن يصل عدد المسلمين بالاتحاد السوفيتي سنة ٢٠٠٠م إلى أكثر من ١٠٠ مليون نسمة، وذلك حسب معدل زيادة المواليد.

٥ - كما يلاحظ أن تقدير نسبة المواليد في سنة ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م حقق زيادة قدرها ٤,٧٪ عن نسبة المسلمين بالنسبة إلى مجموع سكان الاتحاد السوفيتي في سنة ١٣٩٧هـ/ ١٩٧٧م، وهذا راجع إلى ارتفاع نسبة المواليد عند القوميات المسلمة عنها عند باقي القوميات المسلمة عنها عند القوميات السوفياتية، فأصبحت حوالي ٢٤٪، هذا ويتكون المسلمون في الاتحاد السوفياتي «سابقاً» من ٣٩ قومية موزعة بين الأتراك والقوقازين والإيرانيين والصينين والعرب، كما هو واضح بالجدول.

ولقد مرت على المسلمين بالاتحاد السوفياتي «سابقاً» مراحل قاسية في الفترة المحصورة بين سنتي ١٣٣٦هـ/ ١٩١٧م إلى سنة ١٣٥٠هـ/ ١٩٣١م مما أثر في حالة المسلمين الديموغرافية، فقتل الروس مئات الألوف من المسلمين الباشكير والقرغيز على أثر ثورتهم بعد عام ١٣٣٦هـ/ ١٩١٧م ومات مليون من المسلمين الكزاخ والقرغيز في مجاعات ١٣٤٠هـ/ ١٩٢١م واستشهد حوالي المليون من مسلمي قزاخستان عندما طبق

الشيوعيون مبادئهم على ثروات هذه الجماعات الرعوية، وجاء الروس بمهاجرين جدد إلى المنطقة الإسلامية بوسط آسيا بلغ عددهم ٥,٠٧٨,٠٠٠ نسمة في سنة ١٣٥٨هـ/ ١٩٣٩م ووصل عدد المهجرين الروس إلى المناطق الإسلامية بوسط آسيا ١٢,٧٩٢,٠٠٠ روسي في سنة ١٣٩١هـ/ ١٩٧١م[١]. وسياسة التهجير تهدف إلى استغلال ثروات المناطق الإسلامية بوسط آسيا وخفض نسبة المسلمين.

القوميات الإسلامية:

ينتمي المسلمون إلى العديد من القوميات، منها القوميات التركية، وأبرز هذه الجماعات: الأوزبك- التتار- الكزاك- الأذربيجان- التركمان- الباشكير- القرغيز- الكراكلباك- الويغور- البلكار، ومن أبرز الجماعات التي تنتمي إلى القومية الإيرانية: الطاجيك- الأوسيت- الأكراد- الفرس- البلوخ- الطوط الأنغوش، ومن الجماعات القفقاسية: التشيش- الشركس- الكباردبا- الأباظ- الأديجار- الشاشان- الأبخاز، ويتحدث المسلمون في الاتحاد السوفياتي ١٣ لغة تركية، و ٨ لغات إيرانية، و١٥ لغة قفقاسية وصينية ومنغولية.

ولقد اتبع الروس سياسة تطعيم هذه القوميات بمهاجرين جدد للحد من أغلبيتها الإسلامية، ونجحت في خفض النسبة عن ذي قبل مثلما حدث في جمهورية قزاخستان[٢].

سياسة الاستيلاء على الأراضي الإسلامية:

بدأت محاولات روسيا في عهد بطرس الأول لضم الأراضي الإسلامية، بدأت كمرحلة

(١) الكتاني: المسلمون في المعسكر الشيوعي، (ص:٥٩)، وما بعدها.

(٢) د. داوود دورسون: بعض الملاحظات حول البناء الاجتماعي للمسلمين السوفيت.
Religon In The Middle East V.2-P. 170.

أولى منذ ١١٨٨هـ/ ١٧١٤م حتى سنة ١٣٦٩هـ/ ١٨٥٢م، ثم حركة الضم الثانية، وكانت ضد الخانات، وانتهت إمبراطورية بوغر في سنة ١٢٨٥هـ/ ١٨٦٨م، ثم الاستيلاء على البامير في سنة ١٣١٥هـ/ ١٨٩٧م[١].

وفي أثناء هذه المراحل استولى الروس على القرم سنة ١١٩٨هـ/ ١٧٨٣م واستولوا علي قوغيزيا في أواخر القرن الثامن عشر الميلادي، وعلى جبال القفقاس في أوائل القرن التاسع عشر الميلادي، وتم الاستيلاء على منطقة التركستان في أواخر سنة ١٢٩٩هـ/ ١٨٨١م[٢].

ولقد أمضى الروس ١٨٢ سنة في إخضاع منطقة التركستان الإسلامية، واستولت روسيا القيصرية على منقطة قفقاسية سنة ١٢٨٠هـ/ ١٨٦٣م.

الأراضي الإسلامية التي استولى عليها الروس

وحدة الإدارية	المساحة كم٢	الوحدة الإدارية	المساحة كم٢
زاخستان	٢,٧٧١,٠٠٠	موردوف	٢٥,٠٠٠
زبكستان	٤٤٧,٤٠٠	ادمورت	٤٢,١٠٠
غيزيا	٠,١٩٨,٥٠٠	ماري	٢٣,٨٠٠
ادجيكستان	٠,١٤٣,١٠٠	أورنبرج	٨٥,٠٠٠
كمانيا	٠,٤٨٨,١٠٠	القرم	٢٦,١٥٠

(١) المصدر السابق

Journal Institute Of Muslim Minority P. 38.

(٢) الكتاني: المسلمون في المعسكر الشيوعي، (ص٥٧).

أذربيجان	٠,٠٨٦,٦٣٠	شاشان	١٩,٣٠٠
داغستان	٠,٠٥٠,٣٠٠	بلكاريا	١٢,٥٠٠
باشكيريا	٠,١٤٣,٦٠٠	أوستينا الشمالية	٠٠٨,٠٠٠
تتاريا	٠,٦٨,٠٠٠	قرتشاي	٠١٤,٠٠٠
جوفاش	٠,١٨,٣٠٠	الاديجا	٠٠٧,٦٠٠
أبخازيا	٠٠٨,٦٠٠		
المجموع:			٤,٦٨٤,٩٨٠(٣)

وتضم هذه المناطق معظم المواد الخام بالاتحاد السوفياتي «سابقاً»، حيث الغنى في الموارد الطبيعية لدرجة السيطرة على معظم الخامات، فينتج من البلدان الإسلامية بوسط آسيا والقوقاز أكثر من ٥٠٪ من نفط الاتحاد السوفياتي «سابقاً»، ٩٥٪ من الفوسفات، و٩٦٪ من قطن السوفيات، و٩٠٪ من اليورانيوم، و٧٦٪ من النحاس، و١٠٠٪ من الزئبق، و٨٦٪ من الرصاص والقصدير، و٩٠٪ من معدن الكروم، و٧٨٪ من الصوف، و٩٦٪ من الحرير المنتج من الاتحاد السوفياتي، وأكثر من ٣٧٪ من خام الحديد، و٢٧٪ من فحم السوفيات[١]، يضاف إلى هذا كميات ضخمة من البنجر والحبوب وثروة حيوانية، تعطي أكثر من ثلاثة أرباع إنتاج الاتحاد السوفياتي «سابقاً» من الصوف، كل هذه الموارد مكنت الاتحاد السوفياتي من اتباع سياسة الاكتفاء الذاتي. فمهما قدم من

(٣) الكتاني: المسلمون في المعسكر الشيوعي: (ص٦٦).

Europa Yearbook Vo1. 2-1987.

(١) Journal Institute Of Muslim Minority Affairs Vol. Ip.45.

خطط تطوير اقتصاديات بلدان وسط آسيا والقوقاز، فهذا لن يفي حق هـذه المناطق فيما تقدم من الخامات.

في عهد الشيوعيين:

أخذ السوفيات في ابتلاع المناطق الإسلامية الواحدة تلو الأخرى، ففي سنة ١٣٣٩هـ/ ١٩٢٠م امتد نفوذهم إلى أذربيجان، وأصبحت جمهورية اتحادية سنة ١٣٥٥ه/ ١٩٣٦م كما تحولت أوزبكستان إلى جمهورية اتحادية في سنة ١٣٤١هـ/ ١٩٢٤م واستولى السوفيات على طاجيكستان في سنة ١٣٤٣هـ/ ١٩٢٤م وأصبحت جمهورية اتحادية ١٣٤٨ه/ ١٩٢٩م واتحدت تركمانستان في سنة ١٣٤٣ه/ ١٩٢٤م وامتد نفوذهم إلى قازاخستان في سنة ١٣٣٩ه/ ١٩٢٠م واتحدت في سنة ١٣٥٥هـ/ ١٩٣٦م. وضمت جمهورية قرغيزيا للاتحاد في سنة ١٣٥٥ه/ ١٩٣٦م[١].

واستولى السوفيات على باشكيريا وتتاريا في سنة ١٣٣٩هـ/ ١٩٢٠م وألغوا جمهورية القرم بعد الحرب العالمية الثانية، ونقلوا معظم سكانها إلى سيبيريا، وضموا داغستان سنة ١٣٤٠هـ/ ١٩٢١م، تم ذلك في فترة تقدر بحوالي ست عشرة سنة، بينما استغرق القياصرة ١٨٢ سنة ليبسطوا نفوذهم على المناطق الإسلامية بوسط آسيا.

ولقد ثار المسلمون في روسيا ضد حكم القيصر، قبل الثورة الشيوعية، ففي مارس سنة ١٩١٧م تشكل المجلس الإسلامي في وسط آسيا وضم المثقفين من مسلمي وسط آسيا، كما كون الأئمة جمعية العلماء في التاريخ السابق، وتشكل من المؤتمرين المؤتمر الإسلامي في طشقند، وناقش في الفترة من ١٦ إلى ٢٣ أبريل سنة ١٩١٧م مستقبل علاقة المسلمين في وسط آسيا بالروس، كما ناقش قضية احتلال الروس لوسط آسيا، ونادى بالاستقلال

---

(١) المصدر السابق: (ص٥٧) و«البلدان الإسلامية»: (ص٣١٢)، وما بعدها.

وانتخب المجلس المركزي التركستاني وعرف باسم «المركز المالي» ولقد حضر مؤتمر طشقند ٤٠٠ مندوب.

وعقد مؤتمر إسلامي عام في موسكو في الفترة من ١ إلى ١١مايو سنة ١٩١٧م نتيجة جهود تتار قازان ومسلمي شمالي القوقاز، وضم ٨٠٠ مندوب، كان من بينهم ٣٠٠ من علماء الدين الإسلامي، وكانت علاقة المسلمين في روسيا بالسلطات هي محور بحث المؤتمر، وقامت ثورة في سهوب قازاخستان ضد المستوطنين الروس، وطالبت بوضع حد للاستعمار الروسي وشكلت منظمة عرفت باسم Alash - Drda في مارس ١٩١٧م وفي أبريل ١٩١٧م عقد مؤتمر عام للقرغيز في أورنبرج، وقرر استخدام لغة القازاخ في المدارس والمحاكم الإسلامية والدواوين الحكومية، وفي يوليو ١٩١٧م عقد مؤتمر آخر في أورنبرج ضم التتار والقرغيز، وقرر المؤتمر تشكيل منظمة إسلامية للدفاع عن حقوقهم وفي سبتمبر ١٩١٧م عقد المؤتمر الثاني لمسلمي وسط آسيا في مدينة طشقند، ومثلت فيه كل الفئات المسلمة من رجال الدين والمنظمات العمالية، وقرر قيام جمهورية إسلامية مستقلة في طشقند، تحكم بالشريعة الإسلامية، ويرأسها شيخ الإسلام. كل هذه الانتفاضات والثورات ضد حكم قياصرة روسيا كانت قبل الثورة الشيوعية[١].

وأمام هذه الثورات توجه الشيوعيون بالنداء المعروف في سنة ١٩١٧م بأن الثورة الشيوعية تكفل حرية العقيدة والمحافظة على عادات وتقاليد الشعوب الإسلامية، ووقع هذا النداء من لينين وستالين في نوفمبر ١٩١٧م، وذلك لاستقطاب الثورات الإسلامية وكسب تأييدها، ثم كان الاستيلاء على الأراضي الإسلامية، وإعلان الحرب على الدين. ولقد ضم السوفيات مساحة واسعة من الأراضي الإسلامية في وسط وشمالي آسيا وفي شرقي قارة أوروبا، وبلغت جملتها ٤,٦٨٤,٩٨٠ كيلومتر، يضاف إلى هذه المساحة مثلها تقريباً في شرقي سيبريا.

---

(١) Journal Institute Of Muslim Minority Affairs Vo.2-p.28-45.

سياسة السوفيات في إدارة المناطق الإسلامية:

اتبع السوفيات تجزئة وحدة المسلمين وتفتيتهم إلى قوميات، ودعموا قيام الشعوبية بينهم، وقضوا على كتابة لغتهم بحروف عربية، حتى تقضي على صلتهم بالتراث الإسلامي، ثم اتبعوا نظام التهجير من المناطق الإسلامية وإلى المناطق الإسلامية، حتى يضعفوا من شأن الأغلبية المسلمة، ويحولونهم إلى أقلية في عقر دارهم، ولقد شكلت من مناطق الأغلبية المسلمة ست جمهوريات ذات حكم فيدرالي، وفي المناطق الأخرى جمعت المناطق الإسلامية في ١١ جمهورية ذات حكم ذاتي ٩ منها ملحقة في جمهورية روسيا، واثنتان مع جمهورية جورجيا (أبخازيا وأجاريا)، ثم كونت للمناطق الأقل أهمية حكما ذاتيا (أديجا والشركس) والحقتهما بجمهورية روسيا، والأوسيت الجنوبية الحقتها بجمهورية جورجيا.

ويوهم الروس العالم بأن الجمهوريات الفيدرالية مستقلة، حسب الدستور الاتحادي، وهذا في الواقع ليس إلا حبراً على ورق، فموسكو لا تثق في حكام هذه الجمهوريات خصوصا التركستانية، فكل القادة العسكرين في آسيا الوسطى روس، ورؤساء الشرطة والأمن ومديرو السكك الحديد والبريد والبرق والهاتف روس، وأيضاً رؤساء المؤسسات الصناعية روس. ولكل رئيس جمهورية من جمهوريات التركستان مساعدان من الروس، والحال كذلك بالنسبة لرؤساء الوزارات، ورغم أن المادة ٧٢ من الدستور السوفياتي تنص على أن لكل جمهورية حق الانفصال[١]، ولكن هذا أمر في حكم المستحيلات، أما الآن فأصبح الحلم حقيقة، وبدأت بعض الجمهوريات السوفياتية تنفصل عن الاتحاد.

---

(١) Journal Institute Of Muslim Minority Affairs Vo.1.1.

الإسلام على طريقة السوفيات:

لا يؤمن الشيوعيون بدين، ومن أجل هذا يحاربون الأديان، ولقد واجه الإسلام م
التحديات الشيء الكثير، فلا يدع الشيوعيون وسيلة ولا يدخرون وسعاً في القضاء عل
الإسلام، ففي سنة ١٣٤٥هـ/ ١٩٢٦م ألغيت المحاكم الشرعية في المناطق الإسلا
الخاضعة لحكمهم، وفي سنة ١٩٤٦م منعت جميع الأنشطة الإدارية الدينية، وقبض عل
مليون ونصف عضو من الحركة الإسلامية بين سنتي ١٣٤٧هـ/ ١٣٥١هـ، ١٩٢٨
١٩٣٢م، وبدأ الروس حملة إغلاق المساجد منذ عام ١٣٤٨هـ/ ١٩٢٩م فأغلقوا وهده
١٠,٠٠٠ مسجد وأغلقوا أكثر من ١٤,٠٠٠ مدرسة ابتدائية إسلامية، وبدأت حر
مقاومة ضد التسلط الشيوعي في التركستان، واستمرت هذه الحركة من سنة ١٩٣٦م إ
١٩٨٠م، وهدفها استعادة القومية التركستانية[١].

التعليم:

رسم السوفيات سياسة تعليمية هدفها تثقيف جيل يدين بالولاء للنظام حتى تتحق
سيادة السوفيات على البلاد الإسلامية، كما يهدف التعليم إلى تبسيط الأيديولوج
الماركسية حتى يفهمها جميع السكان، وكذلك نشر الثقافة السوفياتية، وكان في روس
قبل استيلاء الشيوعيين على الحكم ٢٤,٣٢١ مدرسة إسلامية[٢].

ومنذ عام ١٣٤٧هـ/ ١٩٢٨م استخدمت الحروف اللاتينية بدلاً من الحروف العربية
التعليم داخل المناطق الإسلامية، وبعد أن ساد استخدام الحروف اللاتينية استبدل

---

(١) الدعوة: العدد (٣٣ ربيع الأول ١٤٠٠هـ).
Journal Institute Of Muslim Minority Affairs Vo1.2-1988.
وداوود درسون المرجع السابق.

(٢) مجلة المجلة ربيع الثاني ١٤٠٠هـ.

بالحروف الروسية منذ سنة ١٣٥٩هـ/ ١٩٣٨م ومعنى هذا إلغاء كل الكتب الإسلامية التي ترجمتها تلكم الشعوب إلى لغاتها وكتبتها بالحروف العربية، وسبق هذا بفترة قرار الحزب والقيادة السوفياتية في سنة ١٣٥٧هـ[١] بجعل اللغة الروسية لغة رسمية لجميع الشعوب التي تخضع لحكمهم، وأصبحت تدرس إلى جانب اللغات المحلية، وسعى السوفيات لتقويتها لتفتيت القومية الواحدة، فأصبح بالاتحاد السوفياتي ٧٠ لغة محلية، ومن أجل هذا أغلق الروس آلاف المدارس الابتدائية الإسلامية، و٥٠٠ مدرسة عالية، ولم يتبق بمنطقة التركستان الإسلامية، والتي كانت تزخر بالمدارس والمعاهد الإسلامية، منها غير مدرسة «مير عرب» في بخارى، ومدرسة «مبارك خان» بطشقند[٢] ليتخرج فيها كل عام ٥٠ طالباً يتمون دراستهم الدينية، فأين هذا من حالة المسلمين قبل سيطرة السوفيات؟ فلقد كان في مدينة قازان وحدها جامعة إسلامية كانت تضم ٧ آلاف طالب ومطبعة إسلامية طبعت مليوني كتاب في سنة ١٣٢٠هـ/ ١٩٠٢م، وكان بها مكتبة إسلامية يزورها ٢٠ ألف قارئ في السنة، وكان بالأراضي الإسلامية قبل سيطرة السوفيات ٢٣ دارا إسلامية للنشر والطباعة و٥١٨ صحيفة إسلامية دورية و١٩٦ مكتبة متخصصة في الإسلاميات[٣]، أما الآن فلا يوجد غير ما يصدر عن الإدارة الدينية من نشرات، ومدرسة بخارى «مير عرب» مدة الدراسة بها ٧ سنوات، وبها ٥٠ طالباً يتخرج منهم خطباء المساجد وأئمتها والمقرئون، وبعد إتمام الدراسة ينتقل الطلاب لمعهد طشقند، ومدة الدراسة به ٤ سنوات، وبهذا المعهد «براق خان» ٥٨ طالباً. وبمجرد معرفة عدد طلاب المعهدين يمكن ببساطة استنتاج مدى الأهمية التي توليها السلطات للتعليم

---

(١) Journal Institute Of Middle East p.152.

(٢) مجلة المجلة.

(٣) المسلمون في المعسكر الشيوعي: ٥٨.

+ Religon In The Middle East P.152.

الديني، فهذا العدد لا يكفي حاجة المسلمين بالاتحاد السوفيتي وقد فاق عددهم ٧٠ مليون نسمة، ولا تعترف السلطات السوفياتية بشهادات المعهدين، وإنما تعيّن إدارة الشئون الدينية الخريجين أئمة وخطباء ووعاظاً أو مدرسين بالمعهد، فإذا أضفنا إلى هذا تحريم تعليم الدين بالمدارس الحكومية، واختفاء المدارس الدينية، أدركنا مدى معاناة أبناء المسلمين بالاتحاد السوفياتي في تعليم قواعد الدين الإسلامي، فالمصدر الوحيد لتلقي قواعد الدين الإسلامي ينحصر في الوالدين، وهذا الجيل الذي ولد مسلما قبل سيطرة السوفيات ينقرض تدريجيا، وهكذا تتلاشى المصادر ويخرج جيل ضعيف ينتسب للإسلام اسماً فقط، وبهذه الطريقة يقضي السوفيات على تمكن الإسلام من نفوس المسلمين بالاتحاد السوفياتي، هذا بينما يوجد في أوزبكستان وحدها ١٤ جامعة ومعهداً تستخدم اللغة الروسية.

صحوة تعليمية إسلامية:

نتيجة للتغير الذي حدث في الاتحاد السوفياتي أخيراً والتسامح مع الأديان تم فتح معهدان إسلاميان في كل من مدينتي أوفا - في بشكيريا، وباكو عاصمة أذربيجان[١]،لي كذلك عقدت دورة لإعداد الأئمة في القفقاس في سنة ١٩٨٩م، وبدأت صحوة تعليمية إسلامية، وظهرت الدعوة إلى إعادة الكتابة بالحروف العربية في المناطق الإسلامية، كما نشط المسلمون في بناء بعض المدارس الإسلامية في الجمهوريات الإسلامية بوسط آسيا، وبدأت محاولات جلب مطابع بالحروف العربية.

المساجد:

لقد بلغ عدد رجال الدين الإسلامي من أئمة ووعاظ ومقيمي الشعائر في الإمبراطورية

---

(١) محمد صفوت السقا: ((المسلمون في الاتحاد السوفياتي))، و((أخبار العالم الإسلامي)) (١٤١١/٥/٢هـ).

الروسية قبل استيلاء السوفيات على السلطة في سنة١٣٣٦هـ/ ١٩١٧م، بلغ عددهم ٤٥,٣٣٩ هذا أيام كان عدد المسلمين بروسيا ١٧ مليوناً، فقياسا على هذا، وبعد أن وصل عدد المسلمين في الاتحاد السوفياتي ٧٠ مليوناً، كم يلزم هؤلاء من أئمة ووعاظ ومقيمي الشعائر الدينية؟

لا شك أنه أضعاف العدد السابق، فكم يوجد الآن ؟ ٩٠٠٠[1] من رجال الدين الإسلامي، والأسباب واضحة في موقف الشيوعية من الإسلام في هدم وإغلاق عشرات الآلاف من المساجد، فقبل استيلاء الشيوعيين على الحكم في الإمبراطورية الروسية كان عدد المساجد ٢٦,٢٧٩ مسجدا ومصلى في سنة ١٣٣٢هـ/ ١٩١٣م، وكان بمنطقة التركستان وحدها ١٢,٤٩٩ مسجداً ومصلى؛ أي مسجد لكل ٤٧٠ مسلماً، وبعد أن حكم السوفيات الأراضي الإسلامية. ففي سنة ١٣٦١هـ/ ١٩٤٢م أي في أثناء الحرب العالمية الثانية، أذاعت جريدة أخبار الحرب السوفياتية، أن عدد المساجد ١٣١٢ مسجداً في أنحاء الاتحاد السوفياتي، فأين المساجد الباقي؟، وتوزيع المساجد على أنحاء المناطق الإسلامية يوضح مدى النقص في عدد بيوت الله، ففي مدينة طشقند، التي بلغ عدد سكانها في الآونة الأخيرة ٢ مليون نسمة، ٤ مساجد، وفي سمرقند كان عدد المساجد قبل استيلاء السوفيات عليها ١٠٠ مسجد (الآن ٣ مساجد). وكان في بخارى ٣٦٠ مسجداً في سنة ١٣٣٦هـ/ ١٩١٧م (الآن بها ٦ مساجد)، وفي جمهورية داغستان ٢٧ مسجداً حالياً، وفي منطقة التتار «تتاريا» ١٢ مسجداً، وفي جمهورية قرغيزيا ٣٣مسجداً، وفي جمهورية أذربيجان ١٦ مسجداً، والنتيجة هي تلاشي أعداد المساجد، وهذه ظاهرة خطيرة، ولقد نشر أخيراً أن عدد المساجد في خمس جمهوريات إسلامية (التركستان) وصل

(١) The Religon In The Middle East V.1p.156.

إلى ١٠٠ مسجد[1]، وإذا أضفنا إلى هذا أن الذين يذهبون للصلاة من كبار السـ
والشيوخ - ولا يظهر الشباب بينهم، أصبح الأمر يعطي ظلالا قاتمة لمستقبل المسلم
بالاتحاد السوفيات «سابقاً»، بعد هذا الجيل من الشيوخ، ولكن بعد أن ظهرت صحو
إسلامية في آسيا الوسطى تم بناء ٥ آلاف مسجد بها خلال عام ١٤٠٩هـ/ ١٩٨٩
صرح بذلك القاضي عبدالغني عبدالله نائب مفتي آسيا الوسطى، وسوف يزداد عـ
المساجد بعد التغييرات الأخيرة في الاتحاد السوفياتي.

الإدارة الدينية:

يعتبر تشكيل الإدارة الدينية الإسلامية بالاتحاد السوفياتي «سابقاً» تنظيماً حكومياً، وه
التنظيم مرتبط بوزارة الأديان ومقرها موسكو، ويرأس إدارة شؤون المسلمين مفتي، ويمث
باقي المفتيين مفوض من مجلس السوفيات في كل جمهورية، وممثل عن وزارة الأديا
ويوجد ممثل مقيم في موسكو، ويوجد أربع إدارات للمسلمين بالاتحاد السوفياتي، إد
مسلمي آسيا الوسطى وقازاخستان ومركزها في طشقند، وتتبعها جمهوريات أوزبكستا
وطادجيكستان وقرغيزيا، وجمهورية التركمان، وجمهورية قازاخستان، ويتولى الشؤ
الدينية في كل جمهورية من الجمهوريات السابقة قاض وهو مسؤول أمام المفتي، وقد ذ
مفتي آسيا الوسطى أن المسلمين قد عادوا لتدوين لغاتهم بالحروف العربية، وأكد هـ
الشيخ محمد صادق مفتي كزاخستان، ويرى أن انتشار اللغة العربية أصبح أمراً ضرور
والإدارة الدينية الإسلامية الثانية هي إدارة مسلمي شمال القفقاس، ومركزها في داغستا

---

(١) مجلة المجلة: العدد الثاني ربيع الثاني ١٤٠٠هـ.
جريدة المدينة المنورة: (١٦ جمادي الثاني ١٤٠١هـ).
جريدة الأهرام: (١١/٥/١٩٩٠م).
أخبار العالم الإسلامي: (١٩/٣/١٤١١هـ).
أخبار العالم الإسلامي: (٢/٥/١٤١١هـ).

وتشـمل منـاطق الشيشـان وأوسـيتي الشـمالية، والبلكـار، وداغسـتان، ومنـاطق الأوديجـا وكارتشاي الشركسي.

والإدارة الدينية الثالثة هي إدارة مسـلمي القسـم الأوربـي وسـيبريا، ومركزهـا أوفـا في بشكيريا، والإدارة الرابعة لمسلمي ما وراء القفقاس، ومقرها باكو عاصمة أذربيجان، وبها الإدارة الخاصة بالمسلمين الشيعة[1].

كيف يؤدي المسلمون السوفيات شعائر دينهم؟

لقد تعامل السوفيات مع الإسلام في الجمهوريات الإسلامية السوفياتية بعنف وتحد منـذ أن بسطوا نفوذهم على تلك الأراضي، فلقد اسـتولت الشـرطة علـى جميـع نسـخ القـرآن الكريم، وأحرقتها في الفترة من سـنة ١٣٤٨هـ/ ١٩٢٩م إلى ١٣٥٥هـ، ولقـد عـاون في هذا الجمعيات الإلحادية بالدعاية ضد الإسلام، واستخدمت الحكومة جميع وسائل الإعـلام لتحقيـق هدفهـا، ففـي عـام ١٣٨٢هـ/ ١٩٦٢م ألقيـت ٢٣ ألـف محـاضرة في جمهوريـة أوزبكستان ضد الدين، واستخدمت دور السينما والإذاعة لمحاربـة الديـن وتشـويه صـورة المسـلمين، الذيـن يذهبـون للمسـاجد، أو يصومـون رمضـان، أو يحتفلـون بالأعيـاد الإسلامية[2]، ولهذه الغاية أسس الشـيوعيون اتحاد الملحديـن منـذ سـنة ١٣٤٢هـ ومنعـوا الحجاج من الذهاب إلى بيت الله الحرام، فقبل استيلاء السوفيات على الأراضي الإسلامية كان عـدد الحجـاج مـن هـذه المنـاطق سـنويا حـوالي ٣٥ ألفـاً، وصـل عددهـم في حكـم السوفيات بين ١٥ و٢٠ حاجاً في بعض السنوات, وفي سـنوات كثيرة لا يصـل الحجـاج السوفيت.

---

(١) صفوت السقا: المسلمون في الاتحاد السوفياتي، (ص٧٨).
كلكجي + المسلمون في الاتحاد السوفياتي.
(٢) مجلة الدعوة: (العدد ٧٣٣).

في هذه الظروف يؤدي المسلمون شعائر دينهم وسط موجات من الرعب, لهذا لا يظهر غير المسنين كرواد المساجد، بسبب منع الصلاة والصوم والحج, بحجة أن هذا يؤثر اقتصادياً في المجتمع السوفياتي، وأمام هذا اضطر بعض رجال الدين في روسيا إلى إصدار فتاوى تنسجم مع أهداف السوفيات، ويستطيع المسلم من خلالها تأدية شعائره الدينية بشكل لا يؤثر في مستقبل الاقتصاد السوفياتي، فقد أباحت هذه الفتاوي للمسلم أن يجمع الصلاة مرة واحدة في اليوم، ويصوم يوماً واحداً في شهر رمضان، ولقد أصدرت السلطات أمراً بمنع ذبح الأضاحي حتى ولو كانت ملكاً خاصاً، بحجة الأضرار الاقتصادية، وبالنسبة لفريضة الحج، فيصعب على المسلمين في الاتحاد السوفيتي تأديتها لأسباب عديدة. هذه هي الظروف التي يمارس فيها المسلمون شعائر دينهم.

علاقة السوفيات بالعالم الإسلامي:

تحكم هذه العلاقة عدة ظروف منها ظروف الأحوال الداخلية بالاتحاد السوفياتي، أو المصلحة الخارجية وفقا للظروف الدولية، ففي السنوات الأولى للثورة الشيوعية لم يقع أي هجوم مباشر على الإسلام، فالقادة الجدد كانوا بحاجة للدعم الشعبي، وكانوا مجبرين على تقديم بعض التنازلات تنفيذا لوعودهم حول الحريات، غير أنهم لم يتأخروا في اتخاذ بعض الإجراءات التي حددت ملكية الأوقاف وحولت المحاكم الشرعية إلى مدنية وقلصت التعليم الديني. ثم تنمّر الشيوعين فاستعملوا العنف مع رجال الدين المسلمين. وزجوا بهم في السجون. ولما قامت الحرب العالمية الثانية هادن الشيوعيون رجال الدين عندما.هاجم الألمان روسيا، فخفف السوفيات من عنفهم مع رجال الدين ليكسبوا العالم الإسلامي إلى جانبهم، ولما تولى خروشوف حكم الاتحاد السوفياتي، عادت سياسة الاضطهاد في شكل حملات مركزة ضد الدين الإسلامي، بلغت ذروتها فيما بين سنتي ١٣٨٠هـ - ١٣٨٤هـ

وقد أمرت السلطات السوفياتية بإغلاق بعض المساجد بسبب دورها في حياة المسلمين، وقد انتهت هذه السياسة بنهاية خروشوف[1]لي غير أن سياسة الحزب المبنية على القضاء على الأديان، تتكيف مع مصلحتها ووفقا للظروف الدولية، ففي الوقت الراهن يسود العالم الإسلامي نهضة روحية تتجه إلى جمع صفوف المسلمين وتوحيد كلمتهم، وإبراز قوة العالم الإسلامي دولياً، في هذه الظروف يهادن الشيوعيون الدين مؤقتاً، فلقد اختفت المنشورات التي كانت تهاجم الدين وتؤكد على الغياب الحتمي له، وبدأت هذه الفكرة تتراجع، وحلت محلها منشورات تعترف بقدرة الأديان على الاستمرار، وتمكنها من التأقلم مع المجتمع الاشتراكي.

وربما يكون قادة السوفيات أدركوا الدور الأخلاقي الذي يؤديه الدين في حياة المجتمعات، بمأو ربما تكون هذه الظاهرة مهادنة مؤقتة نتيجة صحوة العالم الإسلامي، ومما يدعم هذا ما قام به السوفيات من دعوات لعقد مؤتمرات إسلامية دولية، وهذا أمر غير مألوف عند السوفيات، فلقد دعت الإدارة الدينية لمسلمي آسيا الوسطى وقازاخستان لعقد مؤتمر إسلامي للبحث في موضوع: الإمام البخاري والعصر الحديث، وعقد المؤتمر في مدينة سمرقند في سنة ١٣٩٤هـ، وحضره مندوبون عن رابطة العالم الإسلامي بمكة المكرمة, ومندوبون من دول إسلامية عديدة.

وقبل مؤتمر الإمام البخاري والعصر الحديث السابق ذكره، عقد مؤتمر إسلامي في سنة ١٣٩٣هـ لتأييد الدول العربية ضد إسرائيل، وعقد مؤتمر إسلامي في مدينة طشقند في نهاية سنة ١٤٠٠هـ بمناسبة بداية القرن الخامس عشر الهجري، وهذا رد من السوفيات على المؤتمر الإسلامي الأخير الذي عقد في إسلام أباد. ومهما كانت غاية هذه المؤتمرات، إلا أنه من الأفضل إعطاء حرية العبادة للمسلمين داخل الاتحاد السوفيتي «سابقاً» الأمر

(١) المصدر السابق.

الذي حرموا منه طيلة ٦٠ عاماً، فهو أولى وأحق من المؤتمرات الدعائية.

بوادر التغيير الجديد:

كانت سياسة السوفيت تتلون حسب مصالحهم، غير أنه في الآونة الأخيرة, وفي عهد جورباتشوف، حدثت مهادنة الأديان، وكنتيجة لتطور الأحداث في الكتلة الشيوعية، والتخلي عن النظام الماركسي، بعد التجارب المريرة التي خاضتها الشعوب، ظهرت هذه السياسة الجديدة في معاملة السلطات السوفياتية للشعوب المسلمة في روسيا، ونستطيع ذكر بعض هذه الملامح:

١- تم السماح بدخول مليون نسخة من القرآن الكريم إلى بلدان الاتحاد السوفياتي، أرسلتها المملكة العربية السعودية هدية من مشروع خادم الحرمين الشريفين.

٢- تم افتتاح ٥٥ جمعية إسلامية.

٣- أعيد تسليم ١٩ مسجداً.

٤- شهدت بعض المدن نشاطاً إسلامياً ملحوظاً، وعقدت عدة مؤتمرات إسلامية.

٥- بدأ تكوين بعض الأحزاب الإسلامية، مثل حزب اليقظة الإسلامي في موسكو، ويرأسه صدوري أحمد التتري، وبدأ المسلمون في تشكيل حزب النهضة الإسلامية في ٩/٦/١٩٩٠م في مدينة استراخان، وافتتحت له فروع في مدن عديدة بلغت ٢٠٠ فرع[1].

---

(١) نشرة معهد شئون الأقليات المسلمة جمادى الأولى ١٤٠٠هـ، وأخبار العالم الإسلامي: حديث لمفتي القسم الأوربي، وسيبيريا: (٨/٤/١٤١٠هـ)، وأخبار العالم الإسلامي: (٢٥/٤/١٤١١هـ).

المؤتمر الإسلامي العالمي عن الإمام الترمذي والعصر الحديث:

عقد هذا المؤتمر في مدينة طشقند عاصمة جمهورية أوزبكستان في جمادى الأولى ١٤١١هـ، وحضره وفود عديدة من الدول الإسلامية والهيئات المسلمة، واتخذ المؤتمر عدة توصيات منها:

١- أعرب المشاركون عن ارتياحهم لسياسة الانفتاح (البروسترويكا) وما تبشر به من انفتاح وتسامح مع الأديان في الاتحاد السوفياتي.

٢- أوصى المشاركون في المؤتمر بالتوسع في دراسة الحديث النبوي الشريف والسنة، وتطبيق ذلك على حياة المسلمين.

٣- أوصى المشاركون بعقد لقاء سنوي في الأراضي الإسلامية بالاتحاد السوفياتي، وتخصيص هذا للدراسات الإسلامية.

٤- أوصى المشاركون بالتعاون مع الهيئات الإسلامية لتأسيس المعهد الإسلامي العالمي لعلوم الحديث والدراسات الإسلامية في الجمهوريات الإسلامية في الاتحاد السوفياتي.

٥- أصدر المشاركون توصية بإعادة إعمار المساجد التي تهدمت.

٦- أوصى المؤتمر بإنشاء جامعة إسلامية باسم الإمام الترمذي.

٧- توصية خاصة بتداول الكتب الإسلامية.

٨- أوصى المؤتمر بتنشيط الاستثمار الاقتصادي بالجمهوريات الإسلامية بالاتحاد السوفياتي.

متطلبات العمل الإسلامي في الاتحاد السوفياتي ((سابقاً)):

تتمثل هذه المتطلبات فيما يلي:

١- مساعدة المجهودات الشعبية التي بدأت بتعمير وإعادة بناء المساجد والمدارس الإسلامية.

٢- الحاجة ماسة إلى الدعاة لتصحيح مفاهيم الدين الإسلامي في أذهان المسلمين بعد فترة طويلة من المسخ.

٣- الحاجة إلى المراكز الإسلامية التي تضم مجموعة من المؤسسات الإسلامية (مسجد، ومدرسة، ومكتبة) في عواصم الجمهوريات الإسلامية بالاتحاد السوفياتي، وهناك مشروع لإقامة ٢٢ مركزاً إسلامياً قدم إلى اتحاد المنظمات الإسلامية في أوروبا.

٤- هناك حاجة إلى الكتب الإسلامية المترجمة إلى اللغات التركية ولغات القوميات الأخرى، وأيضاً باللغة الروسية.

٥- وضع مناهج موحدة للتعليم الإسلامي تطبق في جميع المدارس الإسلامية بالاتحاد السوفياتي.

٦- قيام مشاريع تجارية لبيع الأكلات الإسلامية وهذا مشروع اقتصادي هام يمكن أن يرصد عائده لتنشيط العمل الإسلامي في الاتحاد السوفياتي.

٧- محاولة حل مشكلة الحج، فعدد المسلمين الذين يصرح لهم بالحج قليل جداً بالنسبة لعدد المسلمين في روسيا.

٨- الحاجة إلى مطابع بالحروف العربية، ويوجد مشروع سعودي خاص ببناء مطبعة في طشقند.

٩- مكافحة الشعوذة والدجل عند بعض الفرق.

١٠- التركيز على توعية الشباب المسلم في الاتحاد السوفياتي.

١١- مراعاة تعدد اللغات بسبب تعدد القوميات.

١٢- الحاجة إلى الثقافة الإسلامية الصحيحة لمحو الإلحاد، ومكافحة التشويش الإعلامي الروسي.

انهيار الاتحاد السوفياتي:

توالت أحداث سياسية متلاحقة شهدها النصف الثاني من سنة ١٩٩١م، أدت إلى تفكك الاتحاد السوفياتي وانهياره، حيث لم يعمر أكثر من ٧٠ عاماً، فما كاد أن يحل شهر ديسمبر من العام المذكور إلا أن ظهرت خريطة سياسية جديدة لما كان يسمى بالاتحاد السوفياتي، فأعلنت بعض جمهورياته استقلالها، وأعلنت الأخرى تكتلات جديدة بزعامة جمهورية روسيا الاتحادية. وأسأل الله أن يعود الكيان الإسلامي لجمهورياته الإسلامية بوسط قارة أسيا وشرقي قارة أوربا.

المصادر

١- Richard V. Weekes Muslim peoples. Survey 1978.

٢- The Europa year book -Vo1. I . 1978.

The Europa year book -Vo1. I . 1985.

٣- علي المنتصر الكتاني: المسلمون في المعسكر الشيوعي.

٤- محمد السيد غلاب، حسن عبدالقادر صالح، محمود شاكر - البلدان الإسلامية والأقليات المسلمة.

٥- بعض نشرات معهد شؤون الأقليات المسلمة - جامعة الملك عبدالعزيز جدة.

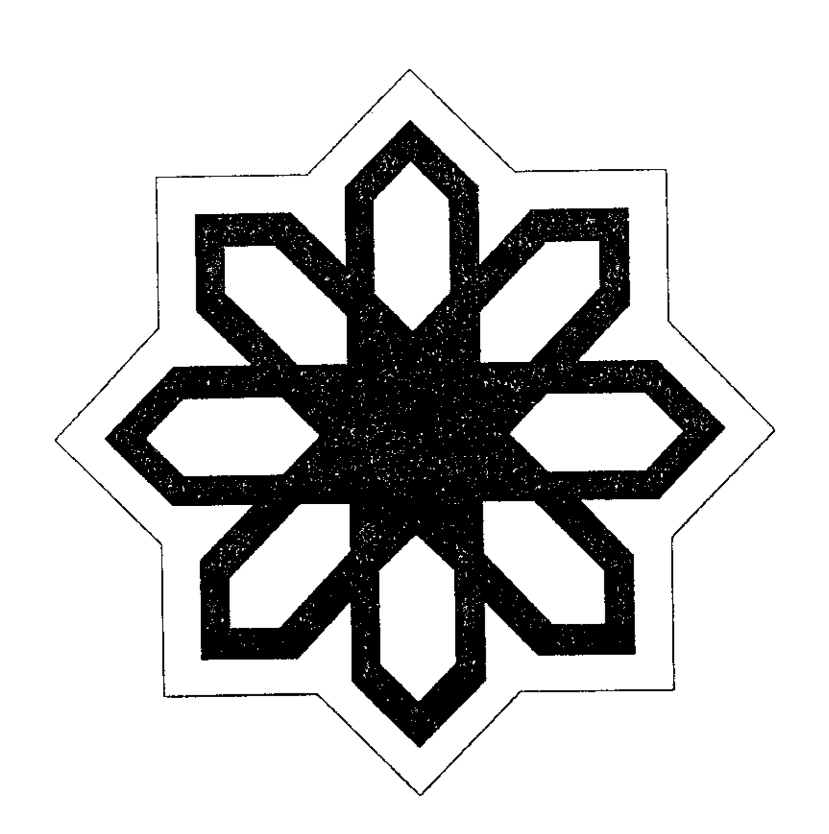
٦- journal institute of muslim minority affairs king.

٧- Abdullaziz University - Jeddh V. 2 1980. P. 45.

The World Almanac 1990

٨- د. داوود درسون، المصدر السابق.

٩ - تصريح الشيخ محمد كيكي رئيس الإدارة الدينية لمسلمي شمال القفقاس. وتصريح الشيخ محمد صادق مفتي المسلمين في كزاخستان، والشيخ طلعت تاج الدين رئيس الإدارة الدينية لمسلمي القسم الأوربي وسيبيريا.





أصول السُّنَّة

تأليف الحافظ أبي بكر عبدالله بن الزبير الحميدي

تحقيق عبدالله بن يوسف الجديع

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله حمداً كثيراً طيباً مباركاً فيه، مباركاً عليه، كما يحب ويرضى وأشهد أن لا إله إلا هو وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، صلى الله عليه وسلم تسليماً كثيراً، أما بعد، فهذه الرسالة (أصول السُّنَّة) لإمام قدوة من أئمة السلف، أهل السُّنَّة والجماعة، أصحاب الحديث، ممن يعوَّلُ على نقله وقوله في ذلك.

إنه الإمام العلَم أحدُ أعيانِ رواة البخاري، ومن طبقة إمام السُّنَّة أحمد ابن حنبل، أبوبكر الحُميديُّ صاحب «المسند» المشهور، قد ذيل بها «مسنده» وختم بها، ونعمت الخاتمة، فهي على إيجازها، وصغر حجمها, تضمنت جملاً عظيمة في الاعتقاد، تعد في أبرز القضايا التي اختلف فيها أهل القبلة.

ورأيت نشرها مستقلة; لتيسير الوقوف عليها، ولأضيف بها برهاناً آخر على صحّة اعتقاد أهل السُّنَّة والحديث وسلامته من بدع أهل الكلام وأضرابهم. والله تعالى أسأل أن يعم نفعها بمنه وكرمه.

وكتبه أبو محمد عبدالله بن يوسف الجديع

التعريف بالمؤلف[1]

هو الحافظ الإمام الفقيه أبو بكر عبدُالله بن الزّبير بن عيسى القُرشيُّ الأسديُّ الحُميد

سمع العلم من خلق كثير، منهم: وكيعُ بن الجرَّاح، والوليد بن مُسْلم ويعلى بن عبي ومروان الفزاري.

ولازم سفيان بن عُيينة، فأكثر عنه، حتى قال الشافعيُّ: «كان يحفظ لسفيان بن عُيي عشرة آلاف حديث».

وقال أبوحاتِمْ الرازيُّ: «أثبت الناس في ابن عيينة وهو رئيس أصحاب ابن عيينة، وه ثقة إمام».

ووصفه بالإمامة أحمد بن حنبل، وإسحاق بن راهويه، والبخاري، وكان من أعيا أصحاب الشافعي بمكة.

حمل عنه العلم كثيرون، منهم: البخاري، واحتج به في «الصحيح», وهو أول رجل كتابه, روى عنه في صدره حديث: «الأعمال بالنيات», ومنهم: الرازيان: أبوزرع وأبوحاتِمْ, ومحمد بن يحيى الذهلي، ويعقوب بن سفيان، وراوي مسنده عنه بشر بن موس الأسدي.

مات بمكة سنة (٢١٩هـ).... رحمه الله.

(١) انظر ترجمته في «تهذيب الكمال للمزّي»: (٥١٢/١٤)، «سير أعلام النبلاء للذهبي»: (٦١٦/١٠).

النسخة المعتمدة في التحقيق:

هذه الرسالة -كما أشرت في الافتتاح- ذَيَّلَ بها الحُميديُّ «مسندَه» المعروف، وهو مطبوع بتحقيق الشيخ حبيب الرحمن الأعظمي سنة (١٩٦٣م).

وقد اعتمدت لإخراج هذه العقيدة نسخة خطية قيمة من «المسند»، من محفوظات دار الكتب الظاهرية بدمشق، والواقعة فيها تحت رقم (حديث- ٥٤١)، وقد فرغ من نسخها سنة (٦٨٩هـ).

وهذه النسخة وقعت للشيخ الأعظمي بأخرة، والكتاب يطبع, ولم يتهيأ له اعتمادها أصلاً، وإن ما قابل عليها نسخته التي اعتمد لها أصولا متأخرة أقدمها يعود تاريخ نسخه إلى سنة (١١٥٠هـ).

نسبة الرسالة إلى مصنفها:

صحة هذه الرسالة عن مؤلفها كصحة «مسنده»، وصحته عند أهل الحديث في غنى عن الاستدلال.

كما تلقاها أئمة السُنّة بالقبول، واعتمدوها في حكاية اعتقاد السلف، فمن ذلك:

١- ذكرها الإمام موفق الدين ابن قدامة في: «ذم التأويل» (النص:٩٣), بإسناده إلى أبي علي الصواف، راوي «المسند» عن بشر بن موسى، عن الحميدي، قال: «أصول السُنّة... فذكر أشياء، ثم قال: وما نطق به القرآن..» فذكر ما سيأتي في الفقرة (٧-٨).

٢- شيخ الإسلام ابن تيمية، حيث قال: «وثبت عن الحميدي أبي بكر عبدالله بن الزبير أنه قال: أصول السُنّة, فذكر أشياء» فساق مثل ما ذكر ابن قدامة (مجموع

الفتاوى: ٤/٦).

٣- وكذا نقل النص نفسه من هذه الرسالة الإمام ابن القيم في: «اجتماع الجيوش الإسلامية» (ص:٦٨).

٤- والحافظ الذهبي في:

- تذكرة الحفاظ: (٢/٤١٤), بإسناده عن ابن قدامة، كما تقدم.

- العلو: (ص:١٣٣) كالذي قبله.

- الأربعين في صفات رب العالمين (النص:٧٥)، نقلاً عن آخر «المسند».

اسم الرسالة:

ورد في أولها بعد الفراغ من: «المسند» العنوان التالي: «أصول السُنَّة».

ثم «حدث بها بشر بن موسى عن الحميدي» فأثبته اسماً للرسالة.

التعليق عليها:

علقت على الرسالة تعليقات اقتضاها الحال.

والله المستعان

نص الرسالة

بسم الله الرحمن الرحيم

حدثنا بشْرُ بن موسى، حدثنا الحميدي، قال:

١- السُنّة: أن يؤمن الرجل بالقدر خيره وشره، حلوه ومره، وأن يعلم أن ما أصابه لم يكن ليخطئه، وأن ما أخطأه لم يكن ليصيبه، وأن ذلك كله فضل من الله عز وجل[١].

٢- وأن الإيمان قول وعمل، يزيد وينقص، ولا ينفع قول إلا بعمل, ولا عمل وقول إلا بنية، ولا قول وعمل بنية إلا بسنة.

٣- والترحم على أصحاب محمد ﷺ كلهم، فإن الله عز وجل قال: ﴿والذين جاءوا من بعدهم يقولون ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان﴾ [الحشر: ١٠-]، فلم يؤمر[٢] إلا باستغفارٍ لهم، فمن يسبهم أو ينقصهم أو أحداً منهم، فليس على السُنّة، وليس له في الفيء حق.

أخبرنا بذلك غير واحد عن مالك بن أنس أنه قال: قسم الله تعالى الفيء فقال: ﴿للفقراء المهاجرين الذين أخرجوا من ديارهم﴾ [الحشر:٨]، قال: ﴿والذين جاءوا من بعدهم يقولون ربنا اغفر لنا﴾ [الحشر: ١٠] الآية, ف (من)[٣]لم يقل هذا لهم، فليس ممن له الفيء[٤].

---

(١) يصدق ذلك حديث صهيب عند مسلم في «صحيحه»: (رقم ٢٩٩٩)، قال: قال رسول الله ﷺ: (عجباً لأمر المؤمن، إن أمره كله خير، وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن، إن أصابته سراء شكر، فكان خيراً له، وإن أصابته ضراء صبر، فكان خيراً له).

(٢) في الأصل: (يؤمن)، وهو تصحيف، وكذا أشار الأعظمي إلى تصويبه.

(٣) زيادة من المطبوع لا بد منها.

(٤) صحيح عن مالك، وقد أخرجه اللالكائي في «اعتقاد أهل السُنّة» رقم: (٢٤٠٠)، من طريق معن بن عيسى، قال:

=

٤- والقرآن كلام الله[1].

سمعت سفيان[2] يقول: القرآن كلام الله, ومن قال (مخلوق) فهو مبتدع، لم نسمع أحداً يقول هذا.

٥- وسمعت سفيان يقول: الإيمان قول وعمل، ويزيد وينقص. فقال له أخوه إبراهيم بن عيينة: يا أبا محمد, لا تقل: ينقص. فغضب، وقال: اسكت يا صبي، بلى، حتى لا يبقى منه شيء[3].

٦- والإقرار بالرؤية[4] بعد الموت.

٧- وما نطق به القرآن والحديث، مثل: ﴿وقالت اليهود يد الله مغلولة، غلت أيديهم﴾ [المائدة:٦٤]، ومثل: ﴿السموات مطويات بيمينه﴾ [الزمر:٦٧]، وما أشبه هذا

سمعت مالك بن أنس يقول: من سب أصحاب رسول الله ﷺ فليس له في الفيء حق، يقول الله عز وجل: ﴿للفقراء المهاجرين الذين أخرجوا من ديارهم وأموالهم يبتغون فضلاً من الله ورضواناً﴾ الآية، هؤلاء أصحاب رسول الله ﷺ الذين هاجروا معه، ثم قال: ﴿والذين تبوءوا الدار والإيمان﴾ الآية، هؤلاء الأنصار، ثم قال: ﴿والذين جاءوا من بعدهم يقولون ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان﴾ فالفيء لهؤلاء الثلاثة، فمن سب أصحاب رسول الله ﷺ فليس من هؤلاء الثلاثة، ولا حق له في الفيء.

قلت: وإسناده سحيح.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: ((وهذا معروف عن مالك وغير مالك من أهل العلم، كأبي عُبيدالقاسم بن سلام)) (منهاج السُّنة: ٢/٢٠).

(١) على الحقيقة بحروفه ومعانيه، وهذه العقيدة أبرز ما اختلفت فيه طوائف أهل القبلة، وقد شرحت ذلك مفصلاً في كتابي ((العقيدة السلفية في كلام رب البرية)) فارجع إليه.

(٢) هو ابن عيينة.

(٣) أخرجه الآجري في ((الشريعة)): (ص١١٧)، أخبرنا خلف بن عمرو العُكْبري واللاكائي في ((اعتقاد أهل السنة)) رقم (١٧٤٥)، من طريق حنبل بن إسحاق، كلاهما عن المصنف به.

(٤) أي رؤية ربّهم تبارك وتعالى، والأخبار في هذه العقيدة صحيحة متواترة جمعها كثير من الإئمة، أفردها منهم الاجرّي، وابن الاعرابي، والدار قطني، وغيرهم.

من القرآن والحديث، لا نزيد فيه ولا نفسره.

نقف على ما وقف عليه القرآن والسُنّة.

٨- ونقول: ﴿الرحمن على العرش استوى﴾ [طه:٥]، ومن زعم غير هذا فهو معطل جَهْمِيٌّ.

٩- وأن لا نقول كما قالت الخوارج: «من أصاب كبيرةً فقد كفر».

١٠- ولا نكفر بشيء من الذنوب، إن ما الكفر في ترك الخمس[1], التي قال رسول الله ﷺ: «بني الإسلام على خمس، شهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله -ﷺ- وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة, وصوم رمضان، وحج البيت»[2].

فأما ثلاث منها فلا يناظر تاركها: من لم يتشهد، ولم يصل، ولم يصم، لأنه لا يؤخر من هذا شيء عن وقته; ولا يجزئ من قضاه بعد تفريطه فيه عامداً عن وقته.

فأما الزكاة، فمتى ما أداها، أجزأت عنه، وكان آثما في الحبس.

وأما الحج، فمتى وجب عليه، ووجد السبيل إليه، وجب عليه، ولا يجب عليه في عامه ذلك، حتى لا يكون له منه بد، متى أداه، كان مؤدياً، ولم يكن آثماً في تأخره إذا أداه، كما كان آثما في الزكاة; لأن الزكاة حقٌ لمسلمين مساكين، حبسه عليهم، فكان آثما حتى وصل إليهم. وأما الحج، فكان فيما بينه وبين ربه, إذا أداه، فقد أدى، وإن هو مات, وهو

---

(١) لا خلاف بين أهل الإسلام في كفر تارك الشهادتين.

وكذا لا خلاف بينهم في كفر من جحد وجوب واحد من الأركان الأربعة الأخرى، إذا بلغته الحجة.

لكن اختلفوا في تارك هذه الأربعة ترك عمل، على مذاهب.

وانظر: كتاب «الإيمان» لشيخ الإسلام ابن تيمية: (ص٢٤٥، ٢٨٧، ٣٥٤) و«مجموع الفتاوى»: (٧/٦٠٨-٦١٦).

(٢) متفق عليه من حديث عبدالله بن عمر.

واجد مستطيع، ولم يحج، سأل الرجعة إلى الدنيا أن يحج[1] ويجب لأهله أن يحج واعنـ
ويرجوا أن يكون ذلك مؤدّياً عنه، كما لو كان عليه دين فقضي عنه بعد موته.

(١) ورد هذا المعنى في حديث لا يصح، أخرجه عبد بن حميد: (رقم ٦٩٣)، المنتخب، وعند الترمذي في ((جامع
عقب برقم (٣٣١٣)، وابن جرير في تفسيره: (١١٨/٢٨)، والطبراني في ((الكبير)): (١١٤/١٢-١١٥)، وا
عدي في ((الكامل)): (٢٦٧٠/٧)، من طريق أبي جناب الكلبي، عن الضحاك بن مزاحم، عن ابن عباس، قال: ق
رسول الله ﷺ: (من كان عنده مال يبلغه الحج، أو عنده مال، تجب فيه الزكة فلم يزكه سأل الرجعة عند الموت
قالوا: يا بن عباس، إنما كنا نرى هذا للكافر.
قال: أنا أقرأ عليكم بذلك قرآناً، ثم قرأ ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تلهكم أموالكم ولا أولادكم عن ذكر الله﴾ حتى بل
﴿فأصدق وأكن من الصالحين﴾. اللفظ لعبد بن حميد.
قلت: وإسناده ضعيف، لثلاث علل:
الأولى أبوجناب هذا -وهو يحيى بن أبي حية- ضعيف الحديث، ليس بالقوي، وكان قبيح التدليس.
والثانية: الضحاك لم يسمع من ابن عباس.
والثالثة: اختلف فيه على أبي جَناب رفعاً ووقفاً.
فرواه الثوري، وعمر بن علي، عنه مرفوعاً، ورواه جعفر بن عون -كما أخرجه الترمذي، (رقم ٣٣١٣)، وسفيان
عيينة -كما ذكره الترمذي أيضاً- عنه موقوفاً قلت: فإذا ضممت إلى هذه الثلاث تدليس أبي جَناب أتممت أرب



تأليف: الحافظ أبي بكر الخطيب البغدادي

تحقيق: عبدالله بن يوسف الجديع

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستهديه، ونعوذ به من شرور أنفسنا، وسيئات أعمالنا من يهده الله، فلا مضل له، ومن يضلل، فلا هادي له, وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، صلى الله عليه وسلم تسليما كثيراً.

أما بعد،

فهذه الرسالة (مسألة في الصفات) تضمنت حكاية مسألتين:

الأولى: رواية للحافظ الخطيب، مسألة من مسائل الإمام أبي عبدالله أحمد ابن حنبل في العقيدة في كلام الله عز وجل وإنكار قول الجهمية.

والثانية: فتوى للخطيب في مسألة الصفات, ذكر فيها جملة عقيدة السلف في صفات الله عز وجل، وقرر فيها أن طريقة السلف هي الطريقة الوسط، كماقرر القاعدة السلفية: الكلام في الصفات فرع عن الكلام في الذات، فأثبت الصفات مع التنزيه، وأبطل التأويل.

وأنكر على أهل البدع طعنهم على أهل السنة والأثر بسبب روايتهم الأحاديث في الصفات، وبين وجوب رد المتشابه إلى المحكم, والإيمان جملة بكل ذلك، والتسليم له.

ثم أتى على تقسيم الأحاديث الواردة في الصفات إلى ثلاثة أقسام، من جهة القبول والرد، وبيّن أن ما ثبت منها يجري مجرى ما ورد به القرآن من ذلك، على الإثبات، ونفي التشبيه.

وهذه الصفة تثبت كون الحافظ الخطيب على اعتقاد السلف, أهل السنة والحديث
كما زعم بعضهم، فألحقه بأصحاب الأشعري، وإن كان قوله في الإثبات إجمالاً يوافق ق
الأشعري في «الإبانة»، حيث جرى فيها على ذلك، فهذا لا يصلح أن يكون حجة :
إلحاقه به، فالإثبات مذهب السلف قبل وجود الأشعري، والخطيب إمام أهل الحديـ
وقته، فإلحاقه بهم هو الواجب الذي لا ينبغي سواه.

بل إنك ترى في المسألة الأولى في هذه الرسالة ما يبرئ الخطيب كلية من كونه :
مذهب الأشعري، من أجل كون قضية اللفظ بالقرآن من أبرز ما خرجت به الأشعرية
عقيدة السلف، أهل السنة والحديث.

أسأل الله عز وجل لي ولك العصمة من الضلالة، ولاحول ولا قوة إلا به.

وكتبه أبومحمد عبدالله بن يوسف الج

هذه الرسالة

النسخة المعتمدة في التحقيق:

اعتمدت في تحقيق هذه الرسالة النسخة الوحيدة المحفوظة في دار الكتب الظاه
بدمشق، ضمن مجموع رقم: (١٦).

تحقيق القول في نسبة الرسالة للخطيب:

تضمّنت الرسالة مسألتين -كما ذكرت في الافتتاح-، الأولى: من رواية الحافظ
ناصر السلامي بإسناده إلى الخطيب رواية، والثانية: من رواية أبي طالب الصيرفي بإسـ
إلى الخطيب من كلامه, وراوي النسخة التي اعتمدتها عنهما لم يتعين لي; لأنها اتصـ
برسالة (اعتقاد السنّة) للإسماعيلي، وكانت تلك من رواية الإمام موفق الدين ابن قدا

برسالة (اعتقاد السنّة) للإسماعيلي، وكانت تلك من رواية الإمام موفق الدين ابن قدامة، ضمن جماعة آخرين من الأئمة، وقد وقعت رواية ابن قدامة للمسألة الثانية من هذه الرسالة في كتابه «ذم التأويل» (النص:١٥)-, كما رواه من طريقه الذهبي في «العلو» (ص:١٨٥)- عن أبي طالب الصيرفي بإسناده، وذكر جزءاً منها.

فاحتمل أن تكون من روايته احتمالاً قوياً.

وفي السماعات المثبتة ما يبين وقوع هذه الرسالة من رواية أبي الحسن علي ابن أبي عبدالله بن علي المقَيَّر البغدادي، بإجازته من الحافظ ابن ناصر, ومن أبي طالب الصيرفي.

وابن المقَيَّر هذا مسند مكثر صالح.

وقد سمع الرسالة عليه جماعة بتاريخ: السابع من شعبان سنة (٦٣٣هـ).

ولابن المقَيَّر بالرسالة إجازة أيضاً عن ابن المعالي الفضل بن سهل الإسفراييني، بإجازته عن الخطيب، كما في السماع آخر النسخة.

قلت: وأبوالمعالي هذا صحيح السماع، لكنه اتهم بالكذب في لهجته[1].

وهناك سماع آخر لجماعة، مؤرخ في: يوم السبت تاسع وعشرين من ذي الحجة سنة (٧٣٠هـ) على الشيخة الصالحة أم عبدالله زينب بنت أحمد ابن عبدالرحيم الصالحية، بإجازتها من الشيخة المسندة الفاضلة عجيبة بنت محمد بن أبي غالب الباقداري البغدادية، بإجازتها من أبي الفرج مسعود بن الحسن الثقفي، بإجازته من الخطيب.

وهذا إسناد ثالث للرسالة، لكنه ضعيف؛ لأنهم تكلموا في إجازة الخطيب للثقفي

(١) سير أعلام النبلاء: (٢٠/٢٢٦).

ووهنوها[1].

وفيما تقدم غنية في إثبات صحة هذه الرسالة عن الخطيب.

وقد تابع الحافظ أبو طاهر السلفي أبا طالب الصيرفي، فروى المسألة الثانية عن الزعفراني.

أخرج ذلك الذهبي في «سير أعلام النبلاء»: (١٨/٢٨٣-٢٨٤)، و«تذكرة الحفاظ»: (٣/١١٤٢-١١٤٣), وذكر المسألة إلى قوله ﴿كفواً أحد﴾.

اسم الرسالة:

لم تسم الرسالة في أصلها المعتمد, فسميتها بمضمونها وابتداء جواب الخطيب: «أما الكلام في الصفات...».

التعليق على الرسالة:

لم أخل حواشي الرسالة من تعليق اقتضاه المقام، من تعريف برواتها وحكم على إسناد، وتنبيه على فائدة، وإليك نصها.

(١) انظر: سير أعلام النبلاء: (١٨/٢٨٥، ٣٠/٤٧٠).

نص الرسالة

بسم الله الرحمن الرحيم

(١)

أخبرنا الحافظ أبوالفضل محمد بن ناصر بن محمد بن علي البغدادي[١]، قال: أخبرنا أبوالحسين المبارك بن عبدالجبار بن أحمد الصيرفي[٢]- قراءة عليه، وأنا أسمع، في شوال سنة أربع وتسعين وأربع مئة، أخبرنا أبوبكر أحمد بن علي بن ثابت الخطيب:

أخبرنا أبو منصور محمد بن عيسى البزار[٣] -بهمذان-، حدثنا صالح ابن أحمد الحافظ[٤]، قال: سمعت عبدالله بن إسحاق بن سيامرد[٥] يقول:

التقيت مع المروذي[٦]لي بطرسوس، فقلت له: يا أبا بكر، كيف سمعت أبا عبدالله يقول في القرآن؟.

---

(١) المعروف بـ ((السلامي)): (٤٦٧-٥٥٠هـ). ثقة حافظ متقن، صاحب سنة، زاهد، وقد كان أشعرياً أول مرة، ثم انتقل إلى مذهب أهل السنة والحديث. ترجمته في سير أعلام النبلاء: (٢٠/٢٦٥).

(٢) يعرف بـ ((ابن الطيوري)) (٤١١- ٥٠٠هـ)، بغدادي ثقة ثبت، صحيح الأصول، مع استقامة في الدين، وحسن خلق، ترجمته في: سير أعلام النبلاء: (١٩/٢١٣).

(٣) الهمذاني: (٣٥٤-٤٣١هـ)، صدوق ثقة، رجل صالح، ترجمته في: سير أعلام النبلاء: (١٧/٥٦٣).

(٤) التميمي الهمذاني: (٣٠٣-٣٨٤هـ). ثقة حافظ ثبت مصنف، ترجمته في: سير أعلام النبلاء: (١٦/٥١٨).

(٥) النهاوندي، أبو عبدالرحمن. قال الحافظ صالح بن أحمد: ((سمعت منه مع أبي، وكان ثقة هيوباً ذا سنة، يحفظ ويذاكر، قدم علينا في سنة ثمان عشرة وثلاث مئة)).
ترجمته في: سير أعلام النبلاء: (١٥/٢٤٧).

(٦) هو أحمد بن محمد بن الحجاج، أبوبكر،(٠٠٠-٢٧٥هـ). بغدادي إمام قدوة، رأس في الذب عن السنة والدعوة إليها، وهو أخص أصحاب الإمام أحمد به، ورأس طبقتهم، ولم يكن أحمد يقدم عليه أحداً. ترجمته في: سير أعلام النبلاء: (١٣/١٧٣).

قال: سمعت أبا عبدالله[1] يقول:

القرآن كلام الله غير مخلوق، فمن قال: (مخلوق)، فهو كافر.

قلت: كيف سمعته يقول فيمن وقف؟

قال: هذا رجل سوء، وأخاف أن يدعو إلى خلق القرآن.

قلت له: يا أبا بكر، كيف سمعت أبا عبدالله يقول في اللفظ؟

قال: من قال: لفظه في القرآن مخلوق فهو جهمي.

قلت أنا له: وأيش الجهمي[2]؟.

قال: شك في الله أربعين صباحاً[3].

قلت: من شك في الله، فهو كافر.

قال: نعم[4].

---

(١) يعني أحمد بن حنبل.

(٢) أي: من الجهمي الذي تنسب إليه هذه المقالة؟.

(٣) روى عبدالله بن أحمد في «السنة»: (رقم ١٨٩)، بإسناد صحيح عن يزيد ابن هارون قال:
«لعن الله الجهم ومن قال بقوله، كان كافراً جاحداً، ترك الصلاة أربعين يوماً، يزعم أنه يرتاد ديناً، وذلك أنه شك في الإسلام».
قلت: والجهم هو ابن صفوان رأس البدعة وإمام الضلالة، قبحه الله.

(٤) إسناد هذه المسألة صحيح عن الإمام أحمد. وأراد بمن وقف من يقول: (القرآن كلام الله) ويسكت، فلا يقول (مخلوق) ولا (غير مخلوق)، وقد كان هذا يغني قبل ظهور بدعة القول بخلق القرآن، أما بعد ظهورها وانتشارها، فلا يجوز السكوت، لما يجب من رد البدعة، وإظهار السنة، كما أن الساكت ربما أضمر اعتقاد الجهمية، فإنهم يقولون: (القرآن كلام الله)، وبدعتهم إنما هي بقولهم (مخلوق)، فإذا لم ينفها، فما الذي يميزه عنهم؟
وأما قضية اللفظ، فإنما جهّم الإمام أحمد من يقول بها؛ لأن أصحاب الضلالة بعد أن كشف الله عز وجل باطلهم فروا من القول (القرآن مخلوق) إلى القول (لفظي بالقرآن مخلوق)، يريدون به القرآن، وهو الاعتقاد الذي صارت
=

(٢)

أخبرنا الشيخ أبوطالب المبارك بن علي الصيرفي[١] -إذناً- قال: أخبرنا أبوالحسن محمد بن مرزوق بن عبدالرزاق الزعفراني[٢]لي- قراءة عليه، وأنا أسمع في ربيع الأول من سنة ست وخمس مئة - قال: أخبرنا الخطيب الحافظ أبوبكر أحمد بن علي البغدادي، قال:

كتب إلي بعض أهل دمشق يسألني عن مسائل -ذكرها-، فأجبته عن ذلك -وقرأه لنا في جواب ما سئل عنه- فقال:

وقفت على ما كتب به الشيخ الفاضل، أدام الله تأييده وأحسن توفيقه وتسديده، وسكنت إلى ما تأدى إلي من علم أخباره، أجراها...[٣]لي على آثاره، وأجيبه بما أرجو أن يقع وفاق اختياره، وأسأل الله العصمة من الزلل والتوفيق، لإدراك صواب القول والعمل، بمنه ورحمته.

أما الكلام في الصفات:

فإن ماروي منها في السنن الصحاح مذهب السلف -رضوان الله عليهم- إثباتها، وإجراؤها على ظواهرها، ونفي الكيفية والتشبيه عنها.

إليه الأشعرية، حيث فروا من بدعة المعتزلة الصريحة إلى بدعة موهمة خلافهم لهم، ذلك لأن الأشعرية يوافقون المعتزلة في أن القرآن العربي الذي يعرفه الخاصة والعامة، المؤلف من الحروف، المفتتح بالفاتحة والمختتم بالناس مخلوق، وهو مرادهم باللفظ، وغير المخلوق إنما هو معنى قائم في نفس الله، ليس بحروف وآيات.

وأنت ترى الإمام أحمد رحمه الله أنكر هذه البدعة، وهي في مهدها، قبل أن يوجد الأشعري.

وقد فصلت ذلك وبينته ببراهينه في كتابي: «العقيدة السلفية في كلام رب البرية» فارجع إليه.

(١) يعرف بـ«ابن خضير» (٤٨٣-٥٦٢هـ). بغدادي صدوق مكثر، رجل صالح. ترجمته في: سير أعلام النبلاء: (٢٠/٤٨٧).

(٢) الجلاب (٤٤٢-٥١٧هـ). بغدادي فقيه، محدث ثبت. ترجمته في: سير أعلام النبلاء: (١٩/٤٧١).

(٣) قدر كلمة لم أتمكن من قراءته.

وقد نفاها قوم، فأبطلوا ما أثبته الله سبحانه. وحققها من المثبتين قوم، فخرجوا في ذلك إلى ضرب من التشبيه والتكييف.

والقصد إن ما هو سلوك الطريقة المتوسطة بين الأمور، ودين الله بين الغالي فيه والمقصر عنه.

والأصل في هذا:

أن الكلام في الصفات فرع على الكلام في الذات، ويحتذي في ذلك حذوه ومثاله، فإذا كان معلوماً أن إثبات رب العالمين عز وجل هو إثبات وجود، لا إثبات كيفية، فكذلك إثبات صفاته، إنما هو إثبات وجود، لا إثبات تحديد وتكييف.

فإذا قلنا: لله تعالى يد، وسمع وبصر، فإن ما هي صفات أثبتها الله تعالى لنفسه، ولا نقول: إن معنى اليد: القدرة، ولا إن معنى السمع والبصر: العلم، ولا نقول: إنها جوارح، ولا نشبهها بالأيدي والأسماع والأبصار التي هي جوارح، وأدوات للفعل.

ونقول: إنما وجب إثباتها؛ لأن التوقيف[1] ورد بها، ووجب نفي التشبيه عنها، لقوله تبارك وتعالى: ﴿ليس كمثله شيء وهو السميع البصير﴾ [الشورى:١١] وقوله عز وجل: ﴿ولم يكن له كفواً أحد﴾ [الإخلاص:٤].

ولما تعلق أهل البدع على عيب أهل النقل برواياتهم هذه الأحاديث، ولبسوا على من ضعف علمه، بأنهم يروون ما لا يليق بالتوحيد، ولا يصح في الدين، ورموهم بكفر أهل التشبيه، وغفلة أهل التعطيل، أجيبوا بأن في كتاب الله تعالى آيات محكمات، يفهم منها المراد بظاهرها, وآيات متشابهات، لا يوقف على معناها إلا بردها إلى المحكم، ويجب

---

(١) أي: نصوص الكتاب والسنة الصحيحة.

تصديق الكل والإيمان بالجميع، فكذلك أخبار الرسول ﷺ جارية هذا المجرى، ومنزلة على هذا التنزيل، يرد المتشابه منها إلى المحكم، ويقبل الجميع.

فتنقسم الأحاديث المروية في الصفات ثلاثة أقسام:

منها: أخبار ثابتة أجمع أئمة النقل على صحتها; لاستفاضتها وعدالة نقلتها، فيجب قبولها والإيمان بها، مع حفظ القلب أن يسبق إليه اعتقاد ما يقتضي تشبيه الله بخلقه، ووصفه بما لا يليق به من الجوارح والأدوات، والتغير والحركات.

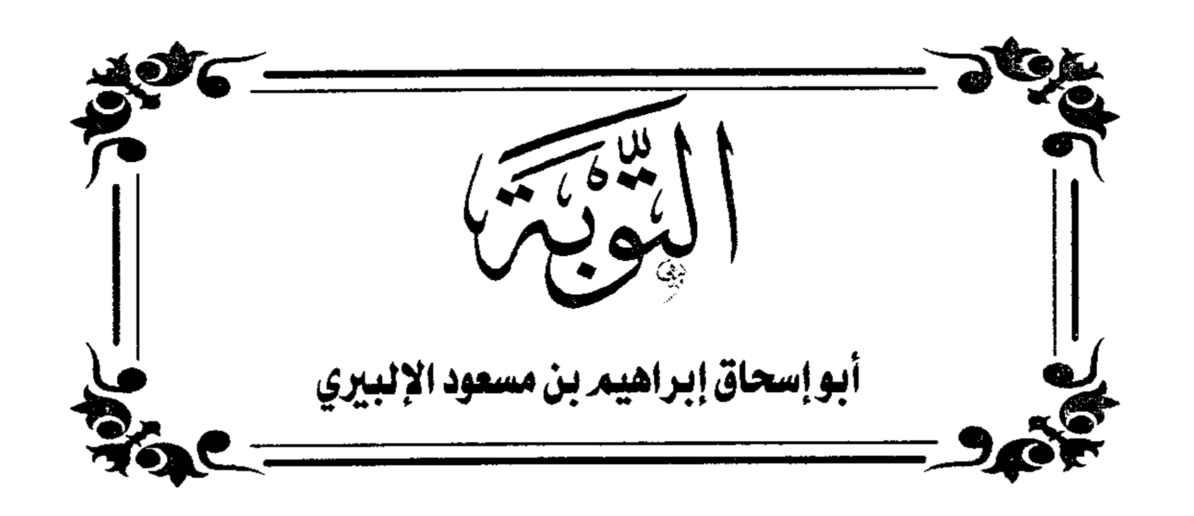
والقسم الثاني: أخبار ساقطة بأسانيد واهية، وألفاظ شنيعة، أجمع أهل العلم (بـ) النقل على بطولها، فهذه لا يجوز الاشتغال بها، ولا التعريج عليها.

والقسم الثالث: أخبار اختلف أهل العلم في أحوال نقلتها، فقبلها البعض دون الكل، فهذه يجب الاجتهاد والنظر فيها; لتلحق بأهل القبول، أو تجعل في حيز الفساد والبطول.

وأما تعيين الأحاديث، فإني لم أشتغل بها، ولا تقدم مني جمع لها، ولعل ذلك يكون فيما بعد، إن شاء الله[1].

(١) إسناد هذه المسألة صحيح إلى الحافظ الخطيب.





هذه قصيدة قالها الفقيه الزاهد أبو إسحاق إبراهيم بن مسعود الإلبيري، رحمه الله، يخاطب الشاعر فيها ويعاتب ويحاور من دعاه (أبا بكر).

وكان هذا الرجل قد ذكر بعض معايب الشاعر، وبلغه ما قال. وقد جعل الشاعر هذا المنطلق فرصة لبسط آرائه في العلم والتقوى والتوبة ونبذ الدنيا، وإشارة إلى مقالة أبي بكر فيه، وتجاوزاً لها في الوقت نفسه. واختلط الحديث بين توجيه أبي بكر هذا، والحديث عن النفس، من منطلق لوم الذات (من التحرج المستمر)، وتضخيم الهفوات، وإعلان الخضوع المطلق لله تعالى.

بدأ الشاعر القصيدة بالكلام على غفلة الإنسان عما تصنعه آلة الزمن في بني آدم (الأبيات١-٥)، ودعا أبا بكر -والخطاب عام- إلى العلم النافع (الأبيات٦-١٠)، وبين منزلة العلم وحلاوته (الأبيات١١-١٩)، وأن الإنسان مسؤول عن علمه والعمل به، وعن جهله لو جهل (الأبيات٢٠-٢٧)، وسفه من يفضل المال -وما يلحق به- على العلم (الأبيات٢٨-٤٤) وهون شأن الدنيا (الأبيات:٤٥-٥٤)؛ فهي عرض فان، ودعا إلى الجد -دون الهزل- وإلى التوبة والخضوع لله تعالى (الأبيات٥٥-٦٠)، وتعجيل التوبة (الأبيات٦١-٦٥)، وجعل نفسه مثالاً يتحدث عنه (الأبيات ٦٦-٦٩)، وعاد إلى خطاب أبي بكر، وحذر من الإخلاد إلى الدنيا، ومن نسيان الآخرة (الأبيات٧٠-٨١)، وإلى تذكر يوم الحساب (الأبيات٨٢-٨٦).

يقول الشاعر الفقيه الزاهد في قصيدته وهي من الوافر:

١- تفـــت فؤادك الأيام فتـــا ... وتنحـت جسـمك السـاعات نحتـا
٢- وتدعـــوك المنون دعاء صدق ... ألا يـا صـاح: أنـت أريـد، أنتـا
٣- أراك تـــحب عرساً ذات غـدر ... أبـت طلاقـها الأكيـاس بتـا[1]
٤- تنام الدهر ويحك في غطيـــط ... بـــها حتـى إذا مـت انتبهتـا[2]
٥- فكم ذا أنت مخدوع وحتـــى ... متــى لا ترعـوي عنهـا وحتـى؟[3]
٦- أبا بكـــر دعوتكَ لـو أجبتـا ... إلى مـــا فيـه حظـك إن عقلتـا[4]
٧- إلى علـــم تكونُ به إمـامـاً ... مُطاعـــاً إن نهيـــتَ وإن أمرتـــا
٨- وتجلـو ما بعينكَ مِنْ غشـــاها ... وتـهـديك السـبيل إذا ضـــللتا[5]

---

(١) العروس: أمرة الرجل، وتقال أيضاً لرجل المرأة، فهما عرسان.
ويقال: أبت الطلاق بتة وإبتاتاً: أوقعه باتاً. أما البت، فمصدر الفعل بت؛ يقال: بت الطلاق، أي أوقعه ثلاثاً باتاً. وفي نهج البلاغة بتحقيق الدكتور صبحي الصالح رحمه الله: ((يا دنيا! يا دنيا! إليك عني؛ أبي تعرضت؟ أم إلي تشوفت؟ لا حان حينك! هيهات! غري غيري، لا حاجة لي فيك؛ قد طلقتك ثلاثاً لا رجعة فيها!)).

(٢) يقال: غط النائم غطاً وغطيطاً أي: شخر وسمع له غطيط. وفي ((كشف الخفا ومزيل الإلباس عما اشتهر من الأحاديث على ألسنة الناس)): (٣١٢/١)، عند ذكره الكلام المشهور: (الناس نيام فإذا ماتوا انتبهوا) ما نصه: ((هو من قول علي بن أبي طالب؛ لكن عزاه الشعراني في الطبقات لسهل التستري، ولفظه في ترجمته، ومن كلامه: الناس نيام، فإذا ماتوا انتبهوا، وإذا ماتوا ندموا، وإن ندموا لم تنفعهم ندامتهم)).

(٣) يقال: أرعوى عن كذا أي: كف وحسن رجوعه عنه.

(٤) أبوبكر: كنية المخاطب المباشر في القصيدة، وقد نبه إليه مرة أخرى في القصيدة (انظر البيت ٨٧ وما قبله وما بعده)، وجعل الحديث إليه وسيلة لبسط آرائه ومواقفه. ولم نهتد إلى المخاطب بهذه الكنية في القصيدة. لم أهتد إليه يقيناً؛ ولعله أبوبكر الحاج المخاطب بالقصيدة (٣١) من ديوان الشاعر. ويدل البيت ٨٩ هنا على أن أبابكر قد هجاه.

(٥) الغشا: ضعف البصر. ونذكر هنا بعض قصيدة أبي مروان عبدالملك بن إدريس الجزيري الأندلسي (يتيمة الدهر ١٠٢/٢):

واعلـم بـــأن العلـــم أرفـــع رتبـــة ... وأجـــل مكتســـب وأســـنى مفخـــر
فاســلك ســـبيل المقتنـــين لـــه تســد ... إن الســـيادة تقتـــني بالدفـــتر
والعـــالم المدعـــو حـــبراً إنمـــا ... سمـــاه باســـم الحـــبر حمـــل المحـــبر!

وقصيدة عبدالملك هذه من عيون شعر الحكمة.

٩- وتَحْمِـــلُ منهُ في ناديكَ تاجـــــاً ... ويكســوكَ الجمــــال إذا اغتربتــا

١٠- ينالك نفعـــــهُ ما دمتَ حيـــاً ... ويبـــــقى ذُخـره لـك إن ذهبتـا

١١- هــــو العَضبُ المهندُ ليس ينبـــو ... تصيـــبُ بـه مقـــاتلَ مَـنْ ضربتـا[١]

١٢- وكـنزاً لا تخافُ عليـــه لصّــــا ... خفيـــفَ الحمـل يوجـدُ حيثُ كنتـا[٢]

١٣- يزيدُ بكثرةِ الإنفاق منـــــــهُ ... وينقـصُ أن بـــه كفّـــاً شـــددتا[٣]

١٤- فلو قـــــد ذُقتَ من حلواهُ طعما ... لآثـرتَ التعـــــلم واجتــــهدتا

١٥- ولم يشغلكَ عنـهُ هـوى مطـــاعٌ ... ولا دنيـــا يزخرفـــها فُتنتـــا

١٦- ولا ألهاك عنــــــه أنيـــقُ روض ... ولا خـــــدرٌ بربربـــه كلفتـــا[٤]

١٧- فقوتُ الـــروح أرواحُ المعـــاني ... وليــــسَ بـسأن طعمـت وأن شـربتا

١٨- فواظبْـــه وخُـــــذ بالجدِّ فيه ... فـــإن أعطاكُـــــه اللهُ أخذتــا[٥]

١٩- وإن أوتيـــتَ فيه طـــويلَ بـاع ... وقـال النـــاسُ إنـك قـــد سَبقتا

٢٠- فلا تأمَن سؤال الله عنـــــــه ... بتـوبيـخ: عَلِمـــتَ فهـل عملتـا؟[٦]

---

(١) العضب: السيف القـاطع، والمهنـد: السيف؛ وأصـل معنـاه مـن هنـد السيف؛ أي شحذه، أو هـو منسوب إلى الهند (المصنوع من حديد الهند).

(٢) في شعر الشافعي رضي الله عنه (ديوانه: ١٠٠):

علمـي معـي حيثمـا يممـت كـان معـي . ... قلـبي وعـاء لـه لا بطـن صنـدوق

إن كنـت في البيـت كـان العلـم فيـه معـي ... أو كنت في السوق كـان العلم في السـوق!

(٣) في الأصل (أن)، كما هو مثبت؛ والشرط في الجملة عندي مقبول.

(٤) الخدر (بالكسر): ستر يمد للجارية في البيت؛ وكل ما واراك من بيت ونحوه.

والربوب: القطيع من بقر الوحش. شبه النساء الجميلات بالبقر الوحشية لكبر عيونهن.

(٥) الأصل أن يتعدى الفعل بوساطة حرف الجر تقول: وظب على الأمر، وواظب عليه، وقول الشاعر: (واظبه)- أي: تعدية الفعل إلى المفعول مباشرة- لم يرد في كتب اللغة؛ ولا أعرفه في آثار الأدباء.

(٦) في كشف الخفا: (لا تزول قدما ابن آدم يوم القيامة حتى يسأل عن أربع: شبابه فيما أبلاه، وعن عمره فيما أفناه، وعن ماله من أين اكتسبه، وفيما أنفقه، وعن علمه ماذا عمل به)) رواه الطبراني، ورواه الترمذي: (٢/٣٧٨)، وفي سنن الدارمي: (١/٨٢)، عن أبي كبشة السلولي قال: سمعت أبا الدرداء يقول: ((إن من أشر الناس عند الله منزلة يوم القيامة عالم لا ينتفع بعلمه)).

٢١- فرأس العــلم تقوى الله حقـــا وليــس بـأن يقـال: لقــد رأستا[١]

٢٢- وضــافي ثوبَك الإحســانُ لا أن تـرى ثـوب الإســاءة قــد لبستا[٢]

٢٣- إذا مــا لم يُفدكَ العلمُ خــيراً فخــير منه أن لــو قــد جهلتـا[٣]

٢٤- وإنْ ألقــاكَ فهمُـكَ في مــهاوٍ فليتــكَ -ثـم ليْتَــكَ!- مــا فَهمتـا

٢٥- ستَجْني منْ ثِمــارِ العَجْز جَـهْلاً وتَصــغُرُ في العُيــون إذا كَبُرتـا[٤]

٢٦- وتُفقَدُ إن جهِــلتَ وأنتَ بــاقٍ وتوجــدُ إن عَلمْتَ وقــدْ فُقِدتــا

٢٧- وتذكُـــرُ قــولتي لكَ بعد حين وتغبطـــها إذا عنهــا شُـغلتا[٥]

٢٨- لســـوف تعضُّ مِنْ نَدَم عَليـهاَ ومـــا تُغـــني النّـدامةُ إنْ ندِمتــا

٢٩- إذا أبصـــرتَ صَحْبَكَ في سمــاء قـــد ارتفعـوا عليـكَ وقــد سَـفُلتا[٦]

٣٠- فراجِعهـــا ودَعْ عَنكَ الهُـوينى فمــا بــالبُطءِ تُــدرِكُ مــا طلبتــا[٧]

٣١- ولا تحفـــلْ بمالكَ والهُ عنــهُ فليـــس المـالُ إلا مــا علــمتا[٨]

٣٢- وليـــسَ لجاهل في النّـاس مَعنىً ولـــو مُلـكُ العِـراقِ لــهُ تــاتّى[٩]

---

(١) في حديث ابن مسعود رضي الله عنه: ((رأس الحكمة مخافة الله تعالى))، ((الفتح الكبير)): (٢/١٢٢)، الحديث ضعيف [المجلة].

(٢) روى ابن مسعود رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: ((لا يدخل الجنه من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر))، قال رجل: إن الرجل يحب أن يكون ثوبه حسنا، ونعله حسناً! قال: ((إن الله جميل يحب الجمال)). الكبر: بطر الحق وغمط الناس.

(٣) في الدعاء المشهور: ((إني أعوذ بك من علم لا ينفع))، وفيه ((سلوا الله علماً نافعاً))، و((اللهم إني أسألك علماً نافعاً)).

(٤) كبر (بضم الباء): عظم، وهو يريد معنى التكبر والتعاظم.

(٥) تغبطها: أي تتمنى الحصول عليها، بعد تضييعها أو التشاغل والانشغال عنها.

(٦) في سماء: أي في منزلة عالية، (مادياً ومعنوياً).

(٧) الهويني: التؤدة والرفق والسكينة والوقار.

(٨) ينبه الشاعر السامع والقارئ على ما في القرآن الكريم من صفة المال في بعض الآيات التي ورد فيها ذكر المال؛ قال تعالى في سورة الأنفال: (٢٨) ﴿واعلموا أنما أموالكم وأولادكم فتنة﴾، وفي سورة سبأ: (٣٧): ﴿وما أموالكم ولا أولادكم بالتي تقربكم عندنا زلفى﴾، وفي سورة المنافقين: (٩): ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تلهكم أموالكم ولا أولادكم عن ذكر الله﴾.

(٩) ضرب المثل بـ (ملك العراقين) لما هو واسع كثير من السلطة والملك، ومنه قول أبي الطيب:

وغـــيرُ كثـــير أن يـــزورك راجـــلُ فـــيرجع ملكـــاً للعراقـــين واليـــاً!

٣٣- سينطقُ عَنْكَ علمُك في نديٍّ   ويكتبُ عنك يوماً إن كتبتا[١]

٣٤- وما يغنيك تشييدُ المباني   إذا بالجهل نفسكَ قد هَدَمتا

٣٥- جعلت المالَ فوقَ العلم جهلاً   لعمرُك في القضيَّة ما عَدَلتا

٣٦- وبينهما بنصٍّ الوحي بونٌ   ستعلمُهُ إذا (طه) قرأتا

٣٧- لئنْ رَفعَ الغنيُّ لواءَ مالٍ   لأنتَ لواءَ علمِكَ قد رَفَعْتا

٣٨- وإن جلس الغني على الحشايا   لأنت على الكواكب قد جلستا[٢]

٣٩- وإن ركبَ الجيادَ مُسوماتٍ   لأنتَ مناهجَ التَّقوى ركِبتا[٣]

٤٠- ومهما افتضَّ أبكارَ الغواني   فكَمْ بكرٍ من الحِكَم افتضضتا[٤]

٤١- وليس يضُرُّك الإقتارُ شيئاً   إذا ما أنت ربَّكَ قد عَرَفتا[٥]

٤٢- فماذا عندهُ لكَ من جميلٍ   إذا بفناءِ طاعتِهِ أنختا[٦]

٤٣- فقابل بالقبول صحيحَ نُصحي   فإن أعرضتَ عنه فقد خَسرتا

٤٤- وإن راعَيتهُ قولاً وفِعلاً   وتاجَرتَ الإلهَ به ربحتا[٧]

٤٥- فليسَت هذه الدُّنيا بشيءٍ   تسُوؤُك حقبةً وتسُرُّ وقتا

٤٦- وغايَتُها إذا فكَّرتَ فيها   كَفَيئِكَ أو كحُلمِكَ إن حَلمتا[٨]

---

(١) النَّديّ: والنادي: مجتمع القوم.

(٢) الحشايا: جمع الحشية، وهي الفراش المحشو؛ وهو- كما في متن اللغة- المعروف في الشام بالطرحة. وما تزال الكلمة حية في ديار الشام. والبيت في معنى: رتبة العلم أعلى الرتب.

(٣) سوّم الفرس: أعلمه بسومة والسومة: السمة والعلامة.

(٤) هذه المقارنة غير جيدة؛ إذ فض بكارة المرأة متيسرة لكل أحد، بخلاف معرفة الحكمة فضلاً عمن ابتدرها. (التحرير).

(٥) الإقتار: مصدر أقتر الرجل: أي قل ماله وضاق عيشه.

(٦) استعمل (ماذا) بدلاً من (كم ذا) لأن المعنى: إذا لزمت طاعة الله سبحانه وتعالى، ظفرت بكثير مما أعد الله لعباده من أهل الطاعة. وكلمة (جميل) صفة لموصوف محذوف مقدر.

(٧) في سورة فاطر: (٢٩): ﴿إن الذين يتلون كتاب الله وأقاموا الصلاة وأنفقوا مما رزقناهم سراً وعلانية يرجون تجارة لن تبور﴾، وفي سورة الصف: (١٠): ﴿يا أيها الذين آمنوا هل أدلكم على تجارة تنجيكم من عذاب أليم، تؤمنون بالله ورسوله وتجاهدون في سبيل الله بأموالكم وأنفسكم ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون﴾.

والمراد بالمتاجرة في الآيتين الكريمتين المعنى المجازي، و((التجارة)) ترد للعمل يترتب عليه خير أو شر.

(٨) الفيء -هنا- ما كان شمساً فينسخه الظل، والحلم: بضم اللام وسكونها.

٤٧- سُجِنْتَ بها وأنتَ لها مُحِـــبٌّ فكيـــف تُحبُّ ما فيــه سُجِنتا[١]

٤٨- وتُطعِمُك الطعـــام وعن قريـب سَتطعَـــمُ منــك مــا مِنــها طَعِمتــا

٤٩- وتعـــرى إنْ لبسْتَ لهـــا ثياباً وتُكســـي إن ملابسـها خَلعتــا

٥٠- وتشهـــدُ كلَّ يوم دفن خـلٍّ كـــأنّك لا تُـراد بمـا شَهِـدتا!

٥١- ولم تُخـــلق لتعمُرها ولكـــنْ لتعـــبرها فجـدَّ لمـا خُلِقتـا[٢]

٥٢- وإن هُدِمَت فزِدها أنتَ هدمــاً وحصِّــن أمر دينـك مـا استطعتا[٣]

٥٣- ولا تحزَنْ على ما فات منهـــا إذا مـــا أنــتَ في أخـراك فزتـا[٤]

٥٤- فليس بنافع ما نلتَ فيـهـــا مـــن الفـاني، إذا البـاقي حُرِمتـا

٥٥- ولا تَضحك مع السُّفهاء لهـــواً فـــإنّك سوفَ تبكـي إن ضَحِكتا[٥]

٥٦- وكيف لك السُّرورُ وأنت رهـــنٌ ولا تـــدري أتُفـــدى أم غَلقتـا[٦]

٥٧- وسل من ربِّك التَّوفيق فيهـــا وأخلـصْ في السُّـؤال إذا سـألتا

٥٨- وناد إذا سجـــدت له اعترافـا بما نـاداهُ ذو النُّــون بـنُ متّـى[٧]

---

(١) في الحديث: ((الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر)). رواه مسلم وغيره.

(٢) عن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه قال: نام رسول الله ﷺ على حصير فقام وقد أثر في جنبه، قلنا: يا رسول الله، لو اتخذنا لك وطاء، فقال: ((مالي وللدنيا؟ ما أنا في الدنيا إلا كراكب استظل تحت شجرة، ثم راح وتركها)). رواه الترمذي، وقال: حديث حسن صحيح. وفي مسند الإمام أحمد: (٢/٢٤)، أن عبدالله بن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: أخذ رسول الله ﷺ ببعض جسدي فقال: ((يا عبدالله كن في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل، واعدد نفسك في الموتى)).

(٣) معنى البيت فيه نظر، إذ إن الله تعالى سخر للإنسان ما في الأرض جميعاً، وأمر بطاعته ولم يأمر بهدم ما سخر ولا بزيادة الهدم، ولكن الله تعالى نهى عن الركون إلى الدنيا بأشكالها، (التحرير).

(٤) راجع ما في التنزيل الحكيم (الحديد: الآيات:٢٢-٢٣).

(٥) في سورة التوبة: (٨٢): ﴿فليضحكوا قليلاً وليبكوا كثيراً جزاءً بما كانوا يكسبون﴾.

(٦) غلق الرهن: استحقه المرتهن؛ وذلك إذا لم يفتك في الوقت المشروط.

(٧) قال تعالى في سورة الأنبياء: ﴿وذا النون إذ ذهب مغاضباً فظن أن لن نقدر عليه في فنادى في الظلمات أن لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين. فاستجبنا له ونجيناه من الغم وكذلك ننجي المؤمنين﴾.

قال القرطبي في تفسيره: (٣٢٩): ذو النون لقب ليونس بن متى (عليه السلام) ولقب بذلك لا بتلاع النون إياه.

والنون: الحوت.

٥٩- ولازِمْ بابَهُ قَرْعاً عساهُ ... سيفتح بابهُ لك إن قَرعتا

٦٠- وأكثِرْ ذكرَهُ في الأرض دأباً ... لتُذكَرَ في السَّماء إذا ذكرتا[1]

٦١- ولا تَقُل الصِّبا فيه مجالٌ ... وفكِّرْ كم صَغير قد دفنتا[2]

٦٢- وقُلْ لي يا نَصيحُ لأنت أولى ... بنُصحك لو بعقلك قد نظرتا[3]

٦٣- تُقطعني على التَّفريط لوما ... وبالتَّفريط دهرك قد قطعتا[4]

٦٤- وفي صغري تُخوِّفني المنايا ... وما تَجري ببالك حين شختا

٦٥- وكُنتَ مع الصبا أهدى سبيلا ... فما لك بعد شيبك قد نُكستا[5]

٦٦- وها أنا لم أخُضْ بحر الخطايا ... كما قد خضته حتى غَرقتا

٦٧- ولم أشرَبْ حُمَيّا أمِّ دَفْرٍ ... وأنت شَربتها حتى سَكِرتا[6]

٦٨- ولم أحلُلْ بوادٍ فيه ظلمٌ ... وأنت حَللتَ فيه وانهملتا[7]

٦٩- ولم أنشأ بعصر فيه نفعٌ ... وأنت نشأتَ فيه وما انتفعتا

٧٠- وقد صاحبت أعلاماً كباراً ... ولم أرك اقتديتَ بمن صحبتا

٧١- وناداك الكتاب فلم تُجبه ... ونهنك المشيبُ فما انتبهتا[8]

٧٢- ليقبحُ بالفتى فِعلُ التَّصابي ... وأقبحُ منه شيخٌ قد تفتَّى[9]

---

(١) في التنزيل الحكيم: البقرة: (١٥٢): ﴿فاذكروني أذكركم واشكروا لي ولا تكفرون﴾.

(٢) في كشف الخفاء: (١٤٨): ((اغتنم خمساً قبل خمس؛ حياتك قبل موتك، وصحتك قبل سقمك، وفراغك قبل شغلك، وشبابك قبل هرمك، وغناك قبل فقرك)). رواه الحاكم، وصححه البيهقي عن ابن عباس. قال: قاله رسول الله ﷺ لرجل وهو يعظه.

(٣) يقال: هو ناصح ونصيح، من الفعل نصح؛ يقال: نصحه ونصح له.

(٤) فرط في الشيء: ضيعه وقدم العجز فيه، وقصر.

(٥) يقال: نكس المريض: إذا عاودته العلة بعد النقة. ونكس على رأسه: رجع عما عرفه. وفي التنزيل العزيز في ذكر قوم إبراهيم: ﴿ثم نكسوا على رؤوسهم﴾.

(٦) أم دفر: كنية الدنيا. (انظر ثمار القلوب في المضاف والمنسوب: ٢٥٧).

(٧) أصل معنى همل (الدمع) وانهمل: انصب، وانهملت العين: فاضت.

(٨) نهته عن الأمر: كفه وزجره.

(٩) شيخ قد تفتى: سلك سبيل الفتيان.

وفي حديث أنس عن رسول الله ﷺ أنه قال: ((خير شبابكم من تشبه بكهولكم، وشر كهولكم من تشبه بشبابكم))، رواه في بهجة المجالس: (٢/٢١١). الحديث لا يثبت وذكره الألباني في الضعيفة [المحلة].

٧٣- فأنت أحــقُّ بالتفنيـــد منّي | ولـو سـكت المسـيء لمـا نطقتـا[1]
٧٤- ونفسكَ ذمَّ لا تذمُمْ سـواهـا | بعيـبٍ فـهي أجـدَرُ مَـنْ ذممتـا!
٧٥- فلو بَكَتِ الدِّما عيناك خـوفاً | لذنبـكَ لم أقُـلْ لـكَ قـد أمِنتـا
٧٦- ومَنْ لك بالأمان وأنتَ عبـدٌ | أمـرتَ فمـا ائتمـرتَ ولا أطعتـا
٧٧- ثقُلتَ من الذنوب ولسـتَ تخْشى | لجهـلـكَ أن تخـفَّ إذ وُزنتـا[2]
٧٨- وتُشفق للمصرِّ على المعـاصي | وترحَمُـهُ، ونفسـك مـا رحمتـا[3]
٧٩- رجعت القهقري وخبطت عشـوا | لعمـرُك لو وصلت لما رجعتـا![4]
٨٠- ولو وافيـت ربك دون ذنـبٍ | وناقشـك الحسـاب إذاً هلكتـا[5]
٨١- ولم يظلمك في عمـل ولكـن | عسـيرٌ أن تقـوم بمـا حملتـا
٨٢- ولو قد جئت يوم الفصـل فـرداً | وأبصـرت المنازل فيه شتَّـى[6]
٨٣- لأعظمتَ النّدامـة فيه لهفـا | علـى مـا في حيـاتك قـد أضعتـا[7]
٨٤- تفـر مـن الهجير وتتقيـه | فهـلا عـن جهنـم قـد فررتـا[8]

---

(١) فنده تفنيداً: كذبه، وعجزه، وخطأ رأيه.

(٢) في التنزيل العزيز: (القارعة:٥-٩): ﴿فأما من ثقلت موازينه فهو في عيشة راضية. وأما من خفت موازينه فأمه هاوية﴾.

(٣) في الأساس: أشفقت عليه أن يناله مكروه، وأنا مشفق عليه من هذا الأمر.

(٤) رجع القهقري: إلى الوراء، وخبط عشواء: مثل، وأصله من خبط الناقة التي ضعف بصرها، فهي لا تميز أين تمضي، وما تصيب في طريقها.

(٥) عن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: ((من حوسب يوم القيامة عذب. فقلت: أليس قد قال الله عز وجل: ﴿فسوف يحاسب حساباً يسيراً﴾ فقال: ((ليس ذلك الحساب، إنما ذلك العرض؛ من نوقش الحساب يوم القيامة عذب)).

(٦) في سورة مريم: (٩٣-٩٥): ﴿إن كل من في السماوات والأرض إلا آتي الرحمن عبدا. لقد أحصاهم وعدهم عدا. وكلهم آتيه يوم القيامة فردا﴾.

(٧) في التنزيل الحكيم: (الزمر:٥٥-٥٦): ﴿واتبعوا أحسن ما أنزل إليكم من ربكم من قبل أن يأتيكم العذاب بغتة وأنتم لا تشعرون. أن تقول نفس يا حسرتا على ما فرطت في جنب الله وإن كنت لمن الساخرين﴾.

(٨) الهجير: نصف النهار، في القيظ خاصة، (أي في عز الصيف).

٨٥- ولست تطيــــــق أهونها عــذاباً ولــو كنت الحديــد بهــا لذبتــا[(١)]

٨٦- فلا تكــــذب فإنَّ الأمرَ جــــدٌ وليــس كمــا احتسبت ولا ظننتــا[(٢)]

٨٧- أبا بكـــــرٍ كَشَفتَ أقلَّ عيــبي وأكـــثرَهُ ومُعظمَــهُ سَـــــترتا

٨٨- فقـــــل ما شئت فيَّ من المخــازي وضــاعِفها فــإنَّك قــد صدقتـــا

٨٩- ومهمـــــا عبتني فلفرط علمــي بـــاطنتي كــأنَّكَ قــد مَدحتـــا[(٣)]

٩٠- فلا ترضـــى المعايبَ فهي عــارٌ عظيــمٌ يــورثُ الإنســان مَقْتـــا[(٤)]

٩١- وتهـــوى بالوجيــه من الــثُّريا وتُبــدِلهُ مكــانَ الفــوق تحتـــا[(٥)]

٩٢- كمـــا الطاعات تنعلك الدّراري وتجعـــلك القريــبَ وإن بعُدتـــا[(٦)]

٩٣- وتنشُرُ عنـــك في الدُّنيا جميــلاً فتلفــى البرُّ فيهــا حيــثُ كنتــا

٩٤- وتمشي في مناكبهـــا كريمــاً وتجـــني الحمــد ممــا قــد غرســتا

٩٥- وأنت الآن لم تعـــرف بعــابٍ ولا دنســـت ثوبــك مُــذ نشــأتا[(٧)]

٩٦- ولا ســـابقت في ميـــدان زورٍ ولا أوضعـــت فيــه ولا خببتـــا[(٨)]

٩٧- فإن لم تنأ عنـــه نشبت فيـــه ومــن لــك بــالخلاص إذا نشــبتا[(٩)]

٩٨- ودنَّس ما تطهَّر منـــك حتَّـــى كـــأنَّك قبل ذلــكَ مــا طهرتــا

٩٩- وصِرتَ أسيرَ ذنبـــكَ في وثــاقٍ وكيــف لــك الفكــاك وقــد أسـرتا

---

(١) عن ابن عباس رضي الله عنهما من حديث رسول الله ﷺ: ((أهون الناس عذاباً يوم القيامة رجل يوضع في أخمص قدميه جمرتان يغلي منهما دماغه)). الفتح الكبير: (٤٧٢/١)، والحديث صحيح [المجلة].

(٢) أي لا يكن منك غفلة، فتصدق ما يكذب به عليك في أحوال الآخرة، واحتسبه: ظنه.

(٣) الباطنة من الرجل: سريرته.

(٤) يقال: مقته يمقته مقتاً أي: أبغضه أشد البغض، وكرهه لقبيح ركبه. وقد وردت الكلمة في أكثر من موضع في القرآن الكريم.

(٥) الوجيه: ذو الجاه والقدر.

(٦) أي تجعل الدراري (النجوم) كالنعل لك. (على سبيل المبالغة وضرب المثل).

(٧) العاب: الوصمة.

(٨) الخبب: ضرب من العدو، وأوضعت الناقة في سيرها: أشرعت.

(٩) نشب في الأمر: وقع فيما لا مخلص له منه.

١٠٠- وخف أبناء جنسك واخش منهم ... كما تخشى الضراغم والسَّبَنْتى[١]

١٠١- وخالطهم وزايلهم حذارا ... وكن كالسامري إذا لمستا[٢]

١٠٢- وإن جهلوا عليك فقُل سلاماً ... لعلَّكَ سوفَ تسلمُ إن فعلتا[٣]

١٠٣- ومن لك بالسلامة في زمان ... ينالُ العُصْمَ إلا إن عُصمتا[٤]

١٠٤- ولا تلبث بحي فيه ضيمٌ ... يُميتُ القَلبَ إلا إن كبلتا[٥]

١٠٥- وغرب فالغريب له نفاق ... وشرق إن بريقك قد شرفتا[٦]

١٠٦- ولو فوق الأمير تكون فيها ... سُمُواً وافتخاراً كنتَ أنتا

١٠٧- وإن فرَّقتها وخَرَجْتَ منها ... إلى دار السَّلام فقد سَلمتا[٧]

١٠٨- وإن كرَّمتها ونَظرتَ منها ... بإجلال فنفسَكَ قَدْ أهنتا

١٠٩- جمعتُ لك النَّصائحَ فامتثلها ... حياتَكَ؛ فهي أفضلُ ما امتثلتا[٨]

١١٠- وطوَّلتُ تأخذ العتابَ وزدْتُ فيه ... لأنَّك في البطالة قد أطلتا

---

(١) في هامش الأصل المخطوط: الضراغم: الأسود. السبنتى: النمر.

(٢) كان السامري عظيماً في بني إسرائيل، قيل: هو منهم، وقيل: دخل فيهم، دعاهم إلى الضلالة وعبادة العجل. قال الحسن: جعل الله عقوبة السامري ألا يماس الناس ولا يماسوه؛ عقوبة له ولمن كان منه إلى يوم القيامة. وكأن الله عز وجل شدد عليه المحنة بأن جعله لا يماس أحداً، ولا يمكن من أن يمسه أحد ومعنى زايلهم: فارقهم.

- راجع تفسير الطبري لخبر السامري: (٢٣٢/١١)، وما بعدها. وفي التنزيل الحكيم في سورة طه: (٩٧/٢٠): ﴿قال فاذهب فإن لك في الحياة أن تقول لا مساس وإن لك موعداً لن تخلفه وانظر إلى إلهك الذي ظلت عليه عاكفاً لنحرقنه ثم لننسفنه في اليم نسفاً﴾.

(٣) في التنزيل الحكيم (الفرقان:٦٣): ﴿وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هوناً وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاماً﴾.

(٤) العصم (بالضم): جمع أعصم، وهو من الظباء والوعول ما في ذراعيه أو إحداهما بياض، وسائره أسود أو أحمر. وأراد مطلق الوعول؛ لأنها تسكن الجبال.

(٥) وفي شعر المتلمس (ديوانه: ١٩٦)، ويجري كلامه مجرى المثل:

ولا يقيم على ضيم يسام به ... إلا الأذلان عير الحي والوتد

هذا على الخسف مربوط برمته ... وذا يشج فلا يرثي له أحد.

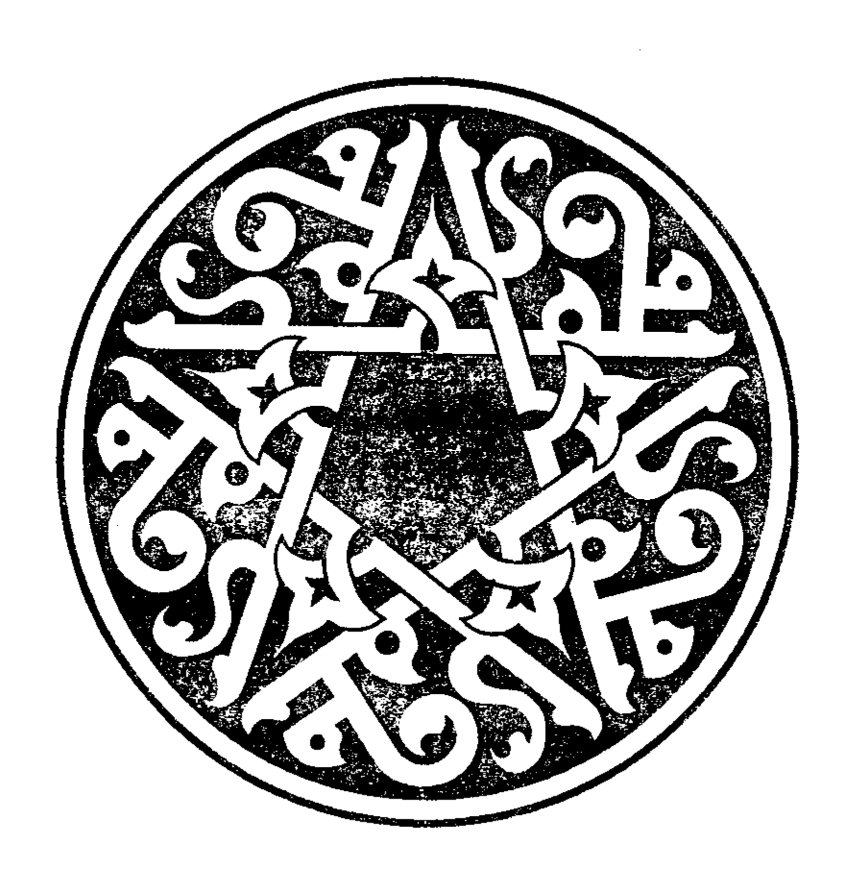
(٦) قوله: غرب وشرق: أي سر في الأرض، وتحول عن مواطن الضيم.

(٧) في الأصل المخطوط: فرقتها.. وأقرؤها بالألف (فارقتها) لمناسبة المعنى الظاهر.

(٨) امتثل الطريقة: اتبعها فلم يعدها، (لم يتجاوزها).

١١١- فلا تأخــــذ بتقصيري وسهــوي وخــــذ بوصيَّــتي لــك إن رَشــدتا

١١٢- وقـــــد أردفتها ستّاً حِســاناً وكـــانت قَبْــل ذا مِئــةً وســتّا(١)



(١) الإشارة إلى عدد أبيات القصيدة. فهي في ١١٢ بيتاً، كانت في الأصل ١٠٦ أبيات، وزاد فيها ٦ أبيات.